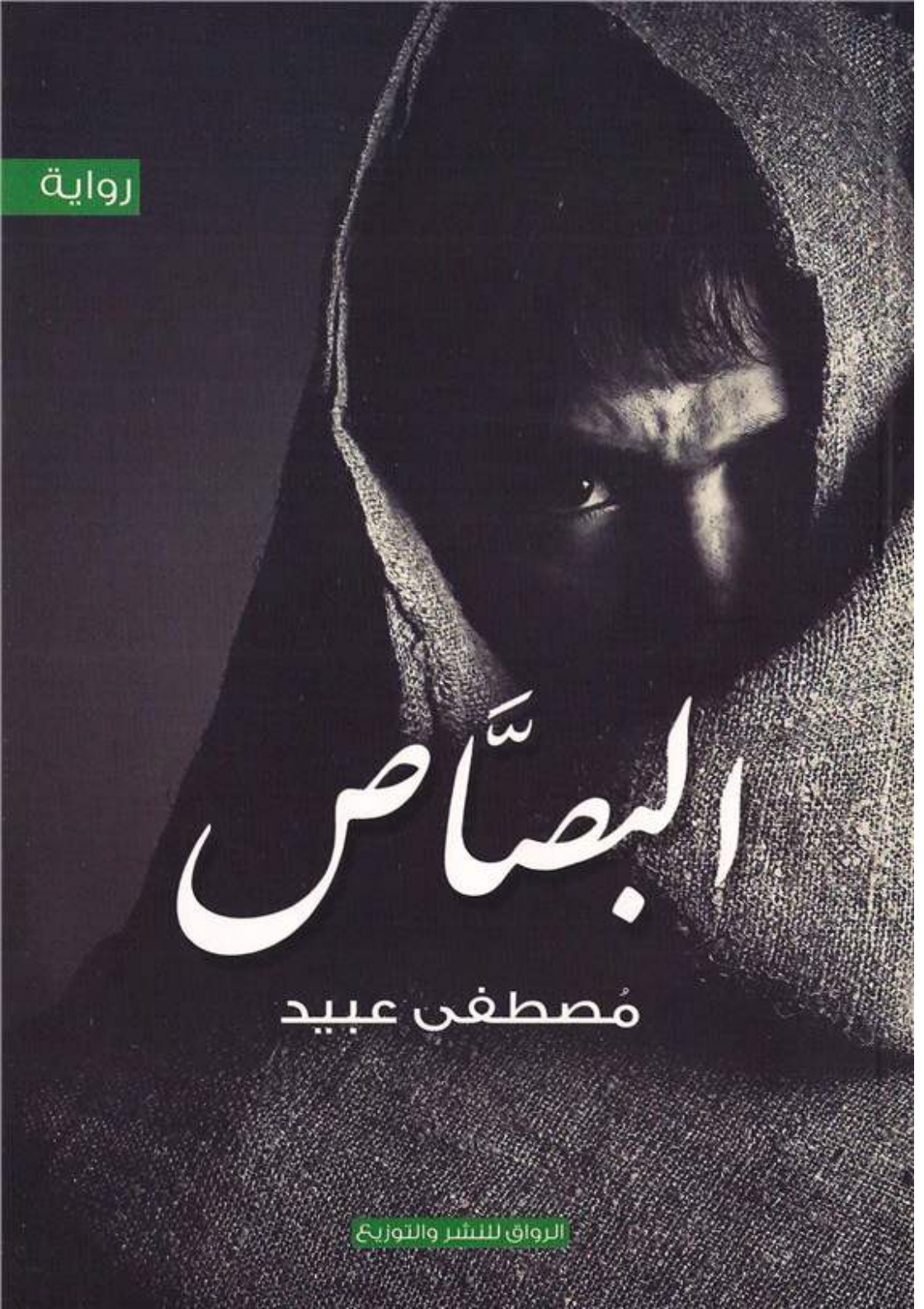
رواية
البصّاص
مُصطفى عبيد
الرواق للنشر والتوزيع

# البصّاص

رواية

مصطفى عبيد

الرواق للنشر والتوزيع

«إن القادة والأبطال فارغون. مستبدون. بلداء غير محبوبين وأشرار. يكذبون حين يدعون أنهم يتكلمون باسم الشعب لأن الراية التى يحملونها هى راية الموت. من أجل بقائهم يمارسون القمع والعنف. وكيفما كان موقعهم فى أى نظام أو مجتمع فإنهم يطالبون بالطاعة وعبادة الشخص. لا يستطيعون أن يتحملوا الحرية ولا الابداع ولا الحلم. إنّ الفرد يُرعبهم. يضعون أنفسهم فوق الشعب ويشيدون عالماً حزيناً رديئاً. لقد كانوا دائماً هكذا فمن يستطيع أن يميز البطل من القاتل والقاتل من الطاغية؟»

جورج أمادو

# (١)

يااااه. أحر من جُهنم.

يوليو الجحيمى بعرقه وشمسه ورطوبة هوائه. لن يغادر سريعاً ذلك اللعين. وتلك الأتربة المُعتادة تناسب وجوهاً كالحة تحجرت على الدهشة، وعيوناً خاضعة ترك العُماص جحافله فيها للأبد.

لم يدر المفتاح يميناً رغم تذكره أنه أدار ذلك المفتاح المنقوش بالبصمة ثلاث لفات قبل أن يغادر. شقته المتواضعة التى لا تطل على النيل أو تعلو جبل المقطم، أو تسترخى فى حضن ترف وفخامة التجمع الخامس، تؤكد أنه ليس ميسورا، لكنه يشعر بالرضا لوحدته وقلة احتياجاته، وإعلانه الدائم عن عزوبيته الأبدية، مما يعنى أنه ليس فى حاجة لادخار ما يلزم لتأثيث بيت أو إنشاء عائلة.

التكة الوحيدة لترباس الباب تثير شكوكه الدائمة فى وجود مَن يعبث بمحتويات شقته. يفتح مُحدقا فى منضدة مستطيلة تتوسط الصالة، وإلى

جوارها كنبة قديمة ورثها عن والده الموظف بدار المحفوظات والذى رحل قبل أن يكمل حلمه ويرى ابنه الوحيد أستاذاً للتاريخ. قبلها بثلاث سنوات غادرتها دون رجعة الأم التى لم يرها إلا مريضة روماتويد قاسٍ ظالم لم يترك فريسته حتى باب القبر. فى يوم ما فى ليالى الشتاء قبل أحد عشر عاما أخبره والده الاستاذ سالم البرديسى بأن عليه أن يعتمد تماما على نفسه ويعرف أن أمه التى ذاق على يديها حنانا كالبحر صارت ماضياً عابراً.

مر مرور الكرام على محتويات بسيطة لشقة تليق بعازب فى مستهل عقده الرابع ولم يهتم سوى بمكتبة ضخمة تنوء بما تحمل من مُجلدات وكُتب معظمها قديم، وثلاثة براويز مُعلقة على الحائط المجاور، أحدها لعروسين بملابس تناسب السبعينيات من القرن العشرين، والثانى لنفسه وهو يلبس روبا أخضر ويقف متحدثا على يسار منصة يجلس عليها ثلاثة كهول فى وضع تحفز وتعالٍ، والثالث بورتوريه لرجل بعمامة بيضاء ولحية كثيفة وعينين ضيقتين تشعان ذكاء لا ينقطع. ابتسم للبرواز الثالث فى برود وغمز بعين عسلية سائلاً سؤاله المعتاد اليومى: لماذا يا صديقى كل هذا العذاب بين أولئك الجهلة؟ أما كان أليق بك أن تعايش أناسا آخرين وتكتب عن نفوس أكثر تحضرا ورُقيا؟

دلف إلى حجرته التى لا تجاورها سوى حجرة أخرى صغيرة مظلمة لا تنم عن حياة، ليجد جهاز الحاسب مضيئا إضاءة خافتة تعنى وضع sleep المنتظر للمسة واحدة ليعود للعمل. ألم تغلقه أصابعك قبل أن تخرج صباحا إلى الجامعة؟ هل عبث أحدهم به؟ لكن لمَ؟ إنه لا يحتوى على شىء مهم. وحتى مخطط رسالة الدكتوراة غير مكتمل لأنه لم يحظ

بعد بتوقيع المُشرف الذى زارته جلطة مفاجئة فعطّلت كل شىء، ثُمَّ مَن هو ذلك المجنون الذى يدخل إلى هذا الجُحر ليسرق كتابات وبحوثاً مبتورة عن حوادث غريبة فى التاريخ؟

كثيرا ما تلاعبك الهواجس وتلعب بك الخيالات كما يقول صديقك الصعلوك حسن السويسى. أترى هذا الحل السهل مُقنعاً لأمثالك الذين يبحثون عن الخطر وينخرون جراحا لم تلتئم؟ أليس ما تُفتش فيه يستحق عناء الأجهزة العليا التى تدرس وتطور كل يوم نظم التأمين والتجسس والسيطرة على المناوئين؟

«ليس إلى هذه الدرجة». أجاب بنفسه عن السؤال، مرتاحا لكلام صديقه حسن السويسى «إنهم جهلة والمشكلة أنك تحسبهم أكبر من حجمهم الحقيقى».

فتح ثلاجته البدائية ليُجهّز ما يلزم لسهرته المفضلة بصحبة استلا المُطفئة لدخان ميريت، تلك السجائر التى مرّ عليه تسعة أشهر وهو يوشوشها احتفالا بزيادة دخله بعد تعاقده مع مكتب إحدى الصحف الخليجية على كتابة مقالات تاريخية بشكل أسبوعى مقابل ٥٠٠ دولار، قبلها كان كرم ولمدة ١٣ سنة هى عمره التدخينى من قبيلة كليوباترا. كوب كبير صب فيه نصف الزجاجة معُلنا البداية، ومواجها نديمه الدائم وصديقه الأقرب وصاحب البرواز الثالث عبد الرحمن الجبرتى.

فتح صديقه الحميم له النافذة ليطل على عالم يحبه ويألفه رغم دمويته وغدرسكانه. عالم ملئ بالخيانات والمطاعن الخلفية والاتفاقات السرية والانتقام الوحشى. التاريخ مسلسل تركى غير منتهٍ يمنح الذهن القدرة على استيعاب تقلبات الأصحاب وخيانات الأحباب وانقلابات الرفاق.

ماذا كان بوسعه أن يكتب ذلك الشيخ المُلتحى الغائص فى الرضا، والمالك لمال لا آخر له يمنحه راحة البال، والاكتفاء بالتدوين والكتابة لو عاش زمن العولمة؟ ما هو رد فعله لو علم أن كرة موت يحملها نسر معدنى آلاف الكيلومترات يمكنها أن تقضى على مدينة كاملة بسكانها؟ ماهو حجم اندهاشه لو أدرك الآلة الحاسبة، أو البريد الالكترونى، أو حبات الفياغرا؟ ربما كان استغرابه من نابليون عندما أوصل الكهرباء فى جثث الموتى لتنتفض مجرد جهل شرقى بتطور العلم الأوروبى، لكن دهشته لاشك أكبر من استمرار تدفق الابتكارات فى بلاد الكفر، وتنامى البلادة والتخلف فى ديار الإسلام.

حكى له صديقه المأسور فى برواز ذهبى قديم والمصلوب على جدار باهت لم يتغير لونه منذ سنين قصة إبنة الشيخ خليل البكرى الفاتنة والتى أعجبها ظرف ولطف ورقة الفرنسيين فصاحبتهم عندما غزوا المحروسة بقيادة شاب طموح قصير يُدعى نابليون. كان والدها تاجرا ثريا وله حوانيت عديدة وبيوت كبيرة.

أحبت الفاتنة المصرية هؤلاء ذوى البشرة البيضاء والعيون البحرية وأقامت علاقات مع بعضهم. وطوال ثلاث سنوات هى عمر الحملة الفرنسية فى مصر لم يجرؤ أى من أبناء البلد أن ينتقد سلوك الفاتنة، حتى والدها لم يعترض، وتركها تظهر بشعرها بين الناس. ولما غادر الفرنسيس ودخل جنود آل عثمان وقاضيهم الشرعى إلى القاهرة عُرض عليه أمر ابنة خليل البكرى فأمر بالقبض عليها، وسألها القاضى عما كانت تفعله وقت الفرنسيس، فأقرت لكنها قالت إنها تابت بعد ذلك تماما. بالطبع لم تنطل

التوبة على القاضى المُحنّك وأمر باستدعاء والدها التاجر الكبير والذى تبرأ منها، فقرر القاضى إعدامها.

وبدأ رجال القاضى العثمانى فى تتبع مَن هنَّ على شاكلتها، فوجدوا امرأة تسمى هوى كانت متزوجة من رجل شامى يدعى اسماعيل الكاشف، وقد حلّت شعرها وتبرجت عند دخول الفرنسيين، وهجرها زوجها، فتزوجت بقبطان فرنسى، واستأذن زوجها القاضى العثمانى فى قتلها فأذن له، ففعل بعد أن أمّنها عدة أيام قضاها معها، لتطمئن تجاهه وتُعلمه مكان أموالها وذهبها، كما قتل جاريتها المعروفة بالبيضاء معها.

ووجد الجند العثمانيون بعد ذلك امرأتين أخريين قيل أنهما تبرجتا فى ظل الاحتلال الفرنسى، فقتلتا انتصاراً للعفة وحفاظاً على الأخلاق الكريمة.

ضحك كرم مُغلقا «عجائب الآثار فى التراجم والاخبار» وتمتم فى استخفاف: «الأخلاق الكريمة! أى أخلاق يتحدث عنها هؤلاء القتلة». ونظر إلى صاحب البرواز الثالث نظرة محبة قائلا: «أنت نفسك ضحيتهم. لكنك انتصرت عليهم جميعا بما دونته عن مخازيهم. ماتوا جميعا يا عبد الرحمن، لكنك وحدك حى.» وسكب ما تبقى من زجاجة «استلا» فى جوفه دون أن يصبه فى الكوب.

# (٢)

كعبان عاليان يدقان بإيقاع منتظم على سلم حجرى. علامة لافتة لامراة تهتم بنفسها وتعرف مغزى الأنوثة. هكذا تنبأ كرم قبل أن يلتفت قليلا للخلف ليرمق الصاعدة إلى الدور الثانى بمبنى كلية الآداب. عيناك العسليتان حصلتا على أكثر من دورة تدريبية فى تفرُس أجساد النساء بتلذذ حتى صرت خبيراً بهن. مارس هوايتك المفضلة فى تعريتها من أسفل لأعلى، ثُمَّ من أعلى لأسفل وتخيلها نائمة فى قميص نوم شفاف تشع نوراً وبهجة. هذا البنطال السماوى يخفى شجرتى صنوبر ناعمتين يستند عليهما خصر حلزونى منفجر بالأنوثة، وذلك التى شيرت الفيروزى غير مناسب لمَن هى تخطو بتلك الخطوات الثابتة التى تنم عن ثقة.

اقتربت قليلاً ليلفح أنفه عطرٌ مميزاً غامضٌ يفوح من ثيابها. رمقها بتفحص فردّت بنظرة احتقار مصطنع قبل أن يختفى فى حجرة جانبية، لتواصل هى طريقها نحو آخر حجرات الممر الرئيس فى الدور الثانى. ألقى التحية على شاب حليبى الوجه، ناعم الشعر، تتجمد ملامحه على بسمة صفراء.

ـ صباح الخير يا دكتور غريب.

ـ صباح الخير دكتور كرم.

يعلم كلاهما أنهما كاذبين لكنهما اعتادا التحدث باعتبار ما هو قادم. فغريب صبحى مثله مثل كرم البرديسى لم يحصل بعد على الدكتوراة وإن كان قد قطع شوطاً طويلاً فى رسالته.

يكرهك، أليس كذلك؟ هكذا تشعر لكن فى الحقيقة أنت الذى تكرهه، لأنك تخرجت منذ عشر سنوات ولم تحصل على الدكتوراة، أما هو فدفعته تبتعد عن دفعتك ثلاث دفعات وقد حدد موعد مناقشته. الفشل حليفك، لأنهم يريدون فشلك. مَن هُم؟ لا تعلم. لكن متى كنت تعلم أى شىء؟

سأل كرم زميله فى اهتمام ظاهرى وهو يُقلّب بعض الأوراق على مكتبه:

ـ ما أخبار الرسالة؟

ـ بخير، تسير الأمور على ما يرام.

ـ قاربت الانتهاء؟

ـ نعم. أراجع اللغة فقط، أما المضمون فقد أثبت أنّ مصطفى كامل وهم كبير، وأنّ كل مواقفه لم تكن لصالح الوطن وإنما لصالح الخديو عباس حلمى والدولة العثمانية. فى حقيقة الأمر لم يقدم هذا الزعيم لمصر سوى الخطب والشعارات.

ـ أختلف معك، كانت كل دعاوى الاستقلال فى ذلك الوقت ترى أنّ الاستقلال يعنى العودة لأحضان الخلافة. ليس التاريخ ما نرى ولكنه ما كان.

ـ هذا ما تقوله أنت وما يقوله أستاذك محمود مندور، أما أنا وأستاذى الدكتور عفت عزام، فكل شىء لدينا له أصول أخرى.

ـ اسمع يا غريب. أنا من أنصار إعادة كتابة التاريخ، لكن ضد القوالب الغربية المعمول بها فى القسم منذ تولى رئاسته الدكتورعفت. لقد كان الاستقلال بالنسبة للشعب المصرى فى زمن مصطفى كامل يعنى التحرر من الاحتلال البريطانى، ولم يكن الناس فى خلاف حول التبعية لأسطنبول.

دارت عينا كرم فى الحجرة الصغيرة التى لا تضم سوى مكتبين صغيرين ليلحظ أنّ هناك شقاً فى جدار الغرفة أمامه. التقطت عيناه بُرصاً صغيراً يتحرك داخل الشق فشعر بالاشمئزاز. وسأل زميله:

ـ ما رأي قوالب أستاذك العظيم فى هذا الأخدود الذى تتربى فيه الزواحف؟ هل تظن أنّ هذه الدولة محترمة؟

جاوبه غريب صبحى بالصمت كعادته عندما يشم لهجة سخرية تجاه أستاذه الاثير الدكتورعفت عزام، وأعفته من الإجابة رنات تليفون بدائى على مكتبه ليرفع السماعة ويتمتم ببضع كلمات قبل أن يلتفت إلى كرم ويقول له:

ـ الدكتور عفت.

ـ ماله؟

ـ يسأل عنك. اذهب إليه. لا تهدر الفرصة وأعرض عليه مشروع رسالتك. الوقت ليس فى صالحك.

أى وقت، وأنت تُحضِّر بحثاً علمياً مُفخخاً يصدم الجميع. ليس الوقت مهما، فأنت الأبقى، ومجرد مناقشة الرسالة سيفتح لك مجالات واسعة. لكن الدكتورمحمود مندور قال لك اصبر ولا تقدم عصارة ذهنك لمن حولك كى لا تُسرق. هذا عصر السرقات العلمية، ولصوص الأدمغة ليس لديهم مبادئ أو أخلاق.

قام من فوره، مُرتباً هندامه وحاملاً محموله ليذهب إلى رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب، والذى يسكن الحجرة الأخيرة فى الطابق الثانى من المبنى العتيد. الباب كما هو دائماًمفتوح، لكن أصابعه نقرت تأدبا قبل أن يُلقى السلام. اخطتفته الدهشة وهو يرى مُهرا أنثوياً يجلس أمام أستاذه، تلك التى عرّتها مُقلتاه قبل قليل.

ـ الأستاذة ندى حسين صحفية بجريدة الأهرام إبدو.

ابتسامة ترحيب قدمتها ذات العينين العسليتين الناطقتين ألقا أسفل إيشارب مربوط «spanish» تظهر منه خصلات شعر مُسترسل شديد السواد.

ـ أهلاً وسهلاً.

قال كرم قبل أن يواصل الدكتور عفت عزام تقديمه قائلاً:

ـ الدكتور كرم البرديسى من أنجب وأذكى تلاميذى ومهتم بتاريخ محمد على اهتماماً كبيراً.

لا تُصدقه لأنه كاذب، سيورطك فى تضييع وقت مع الصحفية الشابة، لأنه يدخرغريب صبحى لأعماله وأبحاثه الخاصة. سيشغلك عن رسالتك التى يشرف عليها الدكتور مندور منافسه الدائم والمطروح

كبديل له فى رئاسة القسم. ذلك القسم الذى تأسس منذ اليوم الأول لإنشاء الجامعة عام ١٩٢٥.

اعتدل الدكتور عفت قليلاً للوراء وهو يقول:

ـ الأستاذة ندى تعد ملفاً كاملاً للأهرام إبدو بمناسبة مرور مائتى عام على خروج الفرنسيين من مصر، وكانت تريد إجراء حوار معى حول مكاسب مصر من الحملة الفرنسية، لكننى أعرف أنك أكثر تخصصاً فى ذلك، ومعلوماتى أنّ رسالتك للدكتوراة حول النظام الأمنى الذى استخدمه الفرنسيون فى مصر.

نجحت خطتك، البصاصون نقلوا له المعلومات مبتورة كما أردت. الرسالة ستكون مفاجأة لأنها الاولى التى تتناول «تطور نظام العسس فى مصر من عهد المماليك لمحمد على». تُبدى اهتماما ظاهرا، وتُرحب بالتحاور مع الفتاة، لا لشىء سوى أنها تستحق، فربما تكون صيداً سهلاً.

ـ بالطبع. هذا شرف لى.

كلماتك الدبلوماسية تُرضى غرور الدكتور عفت، لكن الأهم أنّها ترسم ابتسامة واسعة على شفتى تلك الفتاة. تلك الشفتين اللتين ما خلقتا سوى للثم. عيناها الصاحيتان ترمُقان ملابسك ووجهك كمَّن يُفتش عن إجابة لتساؤل مُحيّر.

تسألك ندى:

ـ أى وقت يُناسبك لأحضر المصور ليلتقط لك صوراً حديثة؟

ـ الخميس القادم.

يوم الخميس أجمل أيامك لأنك تسهر فيه مع حسن السويسى فى الحرية أو ريش تُجددان روحيكما، وهو اليوم الذى قد تُباغتك فيه فاتن زائرة دون أن تطلبها لتُشبع فيك حيوان الجنس. وهو اليوم الذى كان يأخذك فيه والداك ليلا إلى السينما مع أختك هُدى لتشاهد فيلما ثمانينيا، وهو ذاته اليوم الذى كنت تزور فيه أمك بعد رحيلها مدفونة فى قبر بائس. هو يوم الجمال والذكرى والسعادة لذا فأهلا بها فى نهاره.

ـ أى ساعة؟

ـ أنا هُنا يوم الخميس بدءاً من التاسعة.

ـ هل تُحب أن أرسل إليك الأسئلة كاملة قبل الحوار؟

ـ نعم. لا بأس.

لست نجماً سينمائياً لتفعل ذلك، لكن لا بأس من اتقان دور العالم الباحث.

الدكتور عفت يتظاهر بالانشغال عنكما ببحث يقرأ فيه غالباً يخص غريب صبحى. تلاحقه نظرات ندى، فيبتسم لها مُجاملا، قبل أن تقوم مُصافحة أصابع كرم التى تقدم لها كارتاً صغيراً عليه رقم المحمول وصفته كمدرس مساعد بالجامعة.

ـ سأهاتفك غدا لنتفق. فى الغالب ليس هذا المكان مُناسب لإجراء الحوار، ربما فى قلعة محمد على أفضل. أنا أهتم بالتفاصيل والصور يجب أن تُعبّر عن مضمون الملف. أنت تعرف قراءنا جميعا من الأجانب.

تأتيك الفرصة زاحفة لاصطياد غزالة برية تسُر الناظرين. لا فاتن ولا غيرها تمتلك ذلك القد المنحوت بامتياز يجدد الإيمان بأن الله هو أحسنُ الخالقين. بالطبع هذا المكان غير مُناسب للتحاور فى وجود تلك الصلعة الثقيلة لرجل يحمل لقب أستاذ ولا يجيد سوى سرقة الأبحاث وانتحال النظريات الغربية الحديثة ويغطى جدران مكتبه بشهادات تقدير لا حصر لها يدّعى أنها من مؤسسات دولية. أما غرفتك الحقيرة ذات الشق المُظلم والأثاث البدائى الذى يشع فقراً وبؤساً فلا يمكن أن تستوعب أى لمحة جمال. افتح لها الباب وانتظر تقدمها.

ـ سأكون سعيداً، حتى أسمع صوتِك. تشرفتُ بمعرفتك، وأشكر أستاذى العظيم الدكتور عفت عزام أن عرّفنى بصحفية ناجحة مثلك.

شكرته بامتنان قبل أن تمد أصابعها وتصافحه مرة أخرى مودعة ليفتقد عطراً أخاذاً صاحب حضورها.

# (٣)

يتثاءب والليل يزحف برتابة. دقات الساعة تشير إلى الثامنة مساء فيشعر بالرغبة فى الفرار. إلى أين؟ أى مكان. ومع مَن تقضى صحبتك أيها الأعزب الوحيد؟ أيُهم؟ لا يهم مَن فالمُهم ألا تستسلم لاكتئاب الوحدة. فاتن غائبة منذ اسبوعين لعلها فى بعثة عمل خارج الوطن، ولو حادثتها ولم ترُد كعادتها عند استغراقها فى العمل ربما يصيبك كدر أنت فى غنى عنه الآن، ثم إنك غير مؤهل للقاء فاتن بذلك الوجه البارد، والروح الخافتة. وحسن لم يعُد من السويس منذ سافر أمس الأول ليزور شقيقته، وربما استغرق فى استجمام تقليب الذكريات الذى يُمارسه باستمتاع كل بضعة أشهر. أى مُتعة يتجرعها ذلك المجنون فى تذكر أيام ولّت، وأناس رحلوا؟ هُدى تنتظر زيارتك منذ أسابيع ولكن «مودك» لا يُناسب أن ترى أختك الساهمة طوال جلساتكم والسارحة فى مشكلة عدم الانجاب التى تعكر صفو حياتها وتعتبرها ابتلاء عظيماً. أتحسب أن إنجاب أطفال ليتجرعوا مزيداً من الوجع فعل خير فى هذا الوطن المالح؟

سيجارتك ملهاتك، لكن إلى متى؟ تسحب الدُخان بتلذذ مُصطنع ليزور النيكوتين رئتين شائختين تجاوزتا الثانية والثلاثين وستة أشهر وخمسة أيام.

يومض اسم الدكتور أحمد هواش فى فص مُخه الأيسر، فيتذكر يوم رآه أول مرة طارقاً بابه مُقدما نفسه باعتباره جاراً جديداً. إخصائى قلب بقصر العينى ومتزوج حديثا ولديه طفلة عمرها ستة أشهر اضطرت أمها طبيبة التخدير أن تُدخلها حضانة مجاورة لتعود إلى العمل.

سيطرُق بابه فى الشقة المجاورة. صُحبته ليست شراً مُطلقاً، فمتعة الحشيش المغربى الذى اعتاد أن يقدمه له منذ تعرف به أعظم من ثقل ظله. ارتشف جرعات من الماء المُثلج من ثلاجته القديمة الموروثة عن والده، وقتل سيجارته المُتقزمة الموشكة على التلاشى فى منفضدة بلورية تتوسط مكتبه، ثم وضع نظارتيه على عينيه الزاهدتين، وتأكد من مصاحبة محموله وولاعته وعلبة «الميريت» وغادر إلى الشقة المواجهة.

رن الجرس وانتظر لتفاجئه سحنة عم صالح البواب وهو صاعد جارا قدميه النحيفتين، وملقيا نظرات ريبة تجاهه قبل أن يغمغم:

ـ الدكتور يتأخر كثيراً فى فتح الباب. الكيف صعب يا بك.

لم تسأله عن شىء ذلك المتطفل الجاهل، لكنه واصل:

ـ طوال الليل صوت الدكتور والدكتورة يسمعه الناس على المقهى، يبدو أنهما متخاصمين. المشكلة يا أستاذ كرم أن الدكتورة تعمل طوال النهار والليل، بينما هو جالس معظم الوقت فى البيت.

يعتقد بعض البوابين أنهم مسئولون عن أخلاق الناس وأنهم رقباء

على تصرفاتهم. ما الذى يُدخل هذا السخيف فيما لا يعنيه؟ ولمَ لا ينشغل بنظافة العقار وتلبية طلبات السكان. نصف البوابين فى هذا البلد يعملون مخبرين للأمن والنصف الآخر يحترفون القوادة.

ثوانٍ مرت دون رد لينطلق عم صالح فى حكيه السخيف:

ـ ستنتظر كثيراً يا أستاذ كرم. بالأمس جاء صديق للدكتور وظل واقفاً خمس دقائق كاملة حتى فتح الدكتور بعد أن اتصل به مراراً على المحمول.

كلامه تحول إلى همس وهو يقول:

ـ الحشيش يا سيدى. لعنة الله على الحشاشين، لو كُنا نطبق شرع الله لاستحقوا الجلد مثل السكارى.

ـ كفى لت وعجن. ألا ترى القاذورات التى تملأ السلالم؟ لمَ لا تغسل المدخل بالكلور؟ ولماذا خرجت صباحا ولم أجدك تجلس أمام العمارة؟ أنت تصحو متأخراً كل يوم وكثيراً ما أجد الأتربة أكواماً أمام المدخل.

أفضل طريقة لتشتيت المتطفلين أمثاله هى تحويلهم إلى متهمين. واصل تكسير حصونه.

ـ ثم أنت مالك بالسكان، مَن جعلك وصياً عليهم؟ فلان يشرب وفلان يُحشش وفلانة تتشاجر مع زوجها، وفلان يسهر. مالك أنت؟

رفع صالح كفيه استجداء:

ـ آسف يا باشا آسف. أنا أحبك وكنت أريد أن أحذرك..

لم يكمل دفاعه، فقد علا صوت كرم:

ـ ألا تكف عن مراقبة الناس وتتبع أسرارهم؟ ألن تتوقف عن التجسس علينا؟

ـ أنا؟

كرر كرم:

ـ نعم أنت.

فُتح باب الشقة فجأة ليطل رأس أسمر تسكنه عينان ناعستان، فيفر صالح صعوداً وهو يكرر كلمات أسف.

سأل الخارج من الشقة وكأنه مستيقظ للتو من نوم عميق:

ـ ماذا هناك يا كرم؟

يرد كرم:

ـ هذا الحيوان يحكى لى كل يوم أسرار العمارة بكل مَن فيها.

ـ حتى أنا؟

هزّ كرم رأسه، فواصل الدكتور أحمد حديثه ببرود:

ـ ما المشكلة؟ لا شئ يهم. كبّر دماغك يا بروفيسور. تفضل ادخل. نهى فى المستشفى ولن تأتى الليلة.

ـ والبنت؟

ـ عند حماتى.

جلسا على أريكة بدائية لا تنم عن أى ذوق، وحتى مظهر الشقة العام

متواضع ويناسب سكان غير مهتمين بتفاصيل أثاث المنزل المزروع فى حى عابدين ربما لشعورهم بأنه منزل مؤقت كان شقة قديمة مغلقة منحها أب لابنه لحين تجهيز شقة جديدة تليق بطبيبين.

ـ ما أخبارك؟

سأل أحمد وهو يلتقط سيجارة من علبة كرم.

ـ كما أنا. لا جديد.

ـ ورسالتك؟

ـ فى الطريق.

لا مُعلقات فى الصالة تشع أى طاقة إيجابية، والإنارة الخافتة تضفى كثير من الكآبة على هذا المكان. سحبت أصابع أحمد مقبض درج صغير يسكن مكتبة على يسار الداخل ليخرج لفة بُنية أشبه بأصابع الشيكولاتة. عراها بيديه ثُمَّ فركها قبل أن يشعل فى فتافيتها النار ثم يحشو سيجارتين وقال لكرم:

ـ مساء الفل.

ـ من عجائب القدر أنك طبيب قلب وتُدخن.

ـ صحيح.

ـ والأعجب أنك تُحشش.

ـ يا عزيزى كُلنا مُخدرون.

مذ حكى له حكايته مع الحشيش فى أول لقاء تعارف وهو يعى أنه لا

مستقبل لهذا الوطن الذى تردت فيه كل قيمة. تذكر كلمات جاره الطبيب الشاب الذى لم يتجاوز بعد ثلاثين عاماً لكن ملامح وجهه المتعبة توحى بأنّه تجاوز الأربعين. تذكرها كأنه دوّنها فى وريقات خاصة كما قيلت على لسان صاحبها:

«سنوات طويلة من الكد والمثابرة لتصبح متفوقاً بما يكفى لتحقيق حلم والديك فى أن يروك طبيبا يفتخرون به بين أصدقائهم. لا لهو ولا مرح ولا لحظات تلذذ بأجمل ما فى العمر من سنوات حتى يمكن التفرغ للمذاكرة والجد للوصول إلى حرف الدال.

بعد ذلك تعب أكبر وكد أشد فى سبيل المرور من دراسات مادية ومصطلحات مملة، ومشرحة كريهة، ولون أحمر تعتاده العينان وصراخ مرضى تتكيف معه الأذنان.

ستكون شيئاً عظيماً. هكذا يخدعونك فى البدء. وبعد سبع سنوات دراسة تختلف عن كافة الدراسات تجد نفسك موظفاً بدائياً براتب لا يفى بمصروفات تنقلاتك. تدوخ على المستشفيات الخاصة والعيادات حتى تحقق ما يكفى من مصروفات لأبحاث إضافية تمنحك التخصص.

فى الطب أنت مُطالب أن تقتل مشاعر الطفولة ورومانسية الشباب قتلا تحت ضغط العمل القاسى. لامجال لاقتناص المستحيل سوى الهروب كل ليلة خارج الوعى لتفترس الخيال وتُجدد الشعور بأنك مازلت إنسانا يحلم ويفكر بالآخرين ويعيش آلامهم.

نوبتجية العمل تمتد اثنتى عشرة ساعة من الصعب اقتناص لحظة راحة أو نوم فيها. فى بعض الأوقات تطول النوبتجية إلى ١٨ ساعة

و٢٤ ساعة. السادة الأطباء الزملاء أنواع منهم الكيميائى الذى يعرف طريقه إلى حبوب المهدئات خاصة الترامادول المساعد فى السهر ساعات متواصلة، ومنهم الخمورجى الذى يجد راحة نسبية فى غياب ما عن الوعى بكأس فودكا، أو زجاجة «هينكين»، ومنهم الحشاش - مثلى - الذى يحتاج ساعات فرار وكسر للمألوف. لا تتعجب، فإن كثيراً من الأطباء عقدوا صداقتهم الدائمة مع الحشيش، ذلك النبات العظيم الذى يثير قرون السعادة وينكش هرمونات الانبساط.»

سحب كرم نفساً طويلاً من السيجارة المتضخمة التى صنعها مضيفه، وواصل تذكر تجربة الدكتور أحمد هواش مع الحشيش..

«التجربة الأولى كانت ممتعة وصادمة فى آن واحد. ممرضة بمستشفى عام فى حلوان ساقتنى ظروفى للعمل فيه أهدتنى السيجارة الأولى. كان شقيقها كما قالت لى موزع صغير فى المنطقة وجميع أفراد عائلتها لا يرون فى ذلك شيئاً منكراً. هو يبيع السعادة وصفاء الذهن وجميع زبائنه رجال محترمون، منهم الأطباء ومنهم رجال الأعمال والموظفون الكبار. فى تلك التجربة لم أغب عن الوعى كما يتصور غير المجربين، وإنما انتابنى شعور عميق بالاسترخاء وراحة البال ووضعت اللامبالاة توقيعها فوق رأسى. ذابت المشكلات وكأنها لم تكن وشعرت بهدوء شديد وأنا أمر على المرضى ليلاً.

الأنفاس الأولى تمحو عنك شعور التعب ثم تصادر الأنفاس التالية هموم العمل والحياة ثم تفتح الأنفاس الأخرى نوافذ البهجة، كل كلمة تدور بينك وبين جلسائك تتحول إلى قفشة وكل فكرة تحمل نكتة، وكل اشارة تثير ضحكة.

هكذا أصبح عندما أريد أن أصبح. الخير الأبدى والسعادة الطاغية والحكمة المطلقة. كل أعدائك يفرون خوفاً من أمامك، الأشجار تنحنى احتراما، والأرض تُقبّل حذاءك وهو يخطو خطوة وراء خطوة.»

خرج كرم من غرفة ليدخل غرفة أخرى أكثر اتساعا وفى يده الدكتور أحمد. دخنا معاً فى استمتاع وغرقا فى ضحك عميق، وطالت الساعات وقصرت، وتغيرت الأدوار والوظائف، فوَجد كرم نفسه طبيبا فى مستشفى قصر العينى، ورأى أحمد مُحاضرا للطلبة فى كلية الآداب، ثم تبدلت المواقع فرأى شقته من الداخل، وحجرة صغيرة شبه مهجورة يجلس فيها ويكتب أوراقا عديدة ثم يتأملها قليلا ونقل بعضها كـsoft copies على حاسبه الشخصى، وأطل عليه صديقه الأبدى عبد الرحمن الجبرتى فى برواز مُعلّق مبتسماً فى ثقة، فغاب فى الغياب ورحل بعيداً بعيداً.

# (٤)

هواء ساحر يندر أن يرّف فى وسط المدينة خلال شهر يوليو الساخن، لكن نسمات منه تمرُ على رجلين يجلسان يدخنان على مقهى صغير. عابدين، تلك الساحة الفسيحة المشرفة على قصر ملكى رائع كان يوماً مقر السلطة فى مصر. نسى كرم أنه جالس مع صديق الثرثرة حسن السويسى عندما اختطف تاريخ تلك البقعة القديمة عصب الذاكرة فى دماغه المُشتعلة دائما بنيران متواصلة من العصف الذهنى. تذكر اسم البطل الحقيقى للميدان «دى كوريل روسو». ذلك المُهندس الذى استدعاه الخديو إسماعيل من فرنسا ليضع تصميماً لقصر خرافى يتحاكى به فنانو العالم. كان الخديو الوارث لوطن لم يمنح أبناءه نصف لحظة اهتمام حريصاً على بناء مجد ذاتى عظيم يتمثل فى عمائر فخمة، وقصور مُترفة، وبهرجة صاخبة، وعندما علم بوفاة عابدين بك القائد المخضرم لدى محمد على باشا اشترى بيته من أرملته، ثُم اشترى كل الأراضى حوله لتصل مساحة القصر إلى ٢٤ فداناً، وأنفق من أموال المصريين ما لا يطيقون لتبقى ديوناً لتأثيث قصره.

يحمل حسن السويسى وجه متشرد، وعقل عبقرى، وقلب طفل، وكلما جلس إلى كرم أطاح بمشروب صديقه نتيجة انفعالات يديه وهو يتحدث بحماس صاخب. يفتتح حسن الحديث بكلام مُكرر عن غلاء الأسعار وفساد الحكومة واستبداد النظام وعذاب الطبقة العاملة ومخدر التدين الظاهرى. يروى لصديقه نوادر يعيشها كل يوم حول استغلال الحلاق وجشع البقال وتردى خدمات الاتصال وفوضى المرور. كل حكاية يسردها حسن تستدعى موقفاً مشابهاً عاشه الرجل فى بريطانيا من قبل عندما كان محرراً فىّ هيئة الإذاعة البريطانية قبل أن تستغنى عن خدماته عند أول أزمة مالية تواجهها منذ خمسة سنوات.

حكى حسن لكرم من قبل أنه هجر الكتابة والصحافة بعد عودته وتفرغ لمراجعة نصوص الكتب لدور النشر مقابل أجر زهيد بعد أن شعر بتفسخ الحال مقارنة بما عاينه فى بلاد الانجليز. أما مالم يحكه حسن لصديقه ـ الذى تعرّف عليه فى ندوة بجمعية التاريخيين ـ أنه ممنوع من الكتابة فى المطبوعات والدوريات الشهيرة بسبب نشاطه السياسى السابق عضواً بارزاً فى الحزب الشيوعى، بل إنّ سفره إلى لندن كان هروباً من تضييقات أمنية تعرّض لها بعد القبض عليه بتهمة التظاهر ضد حرب الخليج عام ١٩٩١.

الدخان يطوّف بالمقهى المفتوح تماماً على الشارع صاعدا من نارجيلة حسن السويسى ذى الأربعين عاماص ليضفى على قسمات وجهه عشر سنوات أخرى إرهاقا ووهناً.

ـ الموضوع يسير بخطى سريعة، أنهيت نصف الرسالة تقريباً، والنتائج مُذهلة.

هكذا يجيب كرم عن سؤال اعتيادى يتكرر فى لقاءاته مع حسن. لكنه يُضيف:

ـ الفصل الأول يرصد أدوات البصاصين لجمع المعلومات وتصنيفها وطرق إرسالها إلى صاحب الدرك ليرفعها إلى السلطان، هل تتخيل أن هناك بصاصين عاشوا أعمارهم وماتوا ولم يُعرف أحد أنهم كذلك إلا يوم دفنهم!

ـ يااااه.

يقول حسن باستغراب مَصطنع، ثُم يسأل:

ـ هل كانوا يحصلون على رواتب عالية؟

ـ ستستغرب عندما أؤكد لك طبقاً لما توصلت إليه أنهم لم يكونوا يحصلون على أموال وفيرة، بل إنّ كثيرين كانوا يعملون تطوعاً، أو خوفاً من رجال السلطان، أو مماليك الأمير. والغريب أنّ بعض البصاصين نقلوا أخبار ذويهم وأقاربهم درءا للعقاب الجماعى للسلطة، وشهدوا بأنفسهم اعدام أصدقائهم أمام عيونهم.

ـ لم يتغير شىء يا كرم. التاريخ يُكرر نفسه.

ـ التاريخ لا يُكرر نفسه الا فى الأمم المتخلفة.

ابتسم حسن وعيناه تطاردان شبح أنثى تمر قبل أن يقول:

ـ ومَن قال لك إننا لسنا كذلك. هل هناك تخلف أكثر مما يحدث حولنا؟ متى ستنتهى رسالتك؟

برقت عينا كرم وسرح قليلاً قبل أن يجيب:

ـ سنة على أكثر تقدير، لكنها ستكون شيئا آخرا، بحث لم تعرفه الجامعات المصرية من قبل. تشريح تفصيلى لنظام الأمن خلال عهد المماليك وحتى محمد على.

ـ لكن محمد على شىء آخر.

علق حسن وهو ينفُث دُخان نارجيلته، فباغته كرم:

ـ لا لا. نفس المدرسة الأمنية. لا تتخيل أنّ محمد على كان عظيم الذكاء، وواسع الحيلة، وعبقرى الذهن. لقد استخدم نفس أدوات القمع المملوكية، وزاد عليها بطرق أعنف فى التعذيب والتنكيل بالخصوم.

ـ لكنه بعث بعثات إلى أوروبا ورفاعة الطهطاوى خير دليل على...

لم يكمل حسن عبارته، لأن كرم ردَّ بعنف:

ـ كذب وتدليس. لم تكن هناك بعثات بالمعنى الحقيقى، وإنما رُسل للتقرب للسادة الفرنسيين والانجليز، ورفاعة ما هو إلا شيخ لمجموعة من هؤلاء، لكنه كان فلتة غير مقصودة.

يعلم حسن أن عشر سنوات فارق سن بينه وبين كرم لا تعنى شيئا ماداما فى حوار ثقافى وتاريخى، لذا فإنّه لا يُكمل جداله ويكتفى بنقل الموضوع إلى اتجاه بعيد.

تعلم يا كرم أنّ حسن السويسى هو مؤنس الوحدة فى ظل عزوبية اختيارية وشريك فى التفكير والشك والشراب. حسن الذى لا ينبهر بنظريات الغرب المفسّرة للتاريخ والمُردد دائما أن التاريخ الحقيقى لم يُكتب بعد، وأن ما تُرك لنا هو تاريخ السلاطين والحكام فقط. حسن

الذى يُصاحبك لذاتك لا لمصلحة أو غرض ويرى فيك نموذجاً محترماً للتفكير. حسن الذى يتمرد على النخب الملوثة والمتثاقفين وأدعياء الموهبة المنتشرين فى الجامعات والمقاهى ودور النشر ويقول رأيه فيهم بصراحة حتى لو كان وقحاً فى بعض الأحيان. حسن ذلك القصير النحيل مُجعّد الشعر كإينشتاين الذى لا يرى صبحا سوى فى تحرك الفقراء للثورة ضد الرأسمالية الطاغية. حسن الذى يحبك ويفضفض لك ولا يبخل عليك بوقته وعقله وثقافته حتى أنه يُحيلك فى مرات عديدة إلى كتاب معين أو فكر ما لم تكن تعرفه. حسن الذى عرّفك بفاتن، تلك النخلة السمراء التى تقطف منها رطبا جنيا، دون أن تدفع سوى ما معك.

فاتن. أين هى منذ أسابيع؟ يتذكرها، ثم تخطُر فى ذهنه ذات العينين الجميلتين التى التقى بها صباح الأمس، ويحكى عنها لصديقه فيمنحه ابتسامة إعجاب ونظرات تشجيع.

# (٥)

بدا المُصور الشاب المُصاحب لندى محترفاً وهو يلتقط لقطات مختلفة لكرم داخل قلعة محمد على. كانت ندى توجهه وتحاول أن تتحدث إلى الرجل الذى ستحاوره فى تاريخ مصر لتبدو الصورة طبيعية وهى تشع بالحركة. مارست ندى هوايتها المُفضلة فى استنزاف لحظات الانفعال الإنسانى لترصدها عدسة كانون حديثة، بينما مارس كرم عادته السرية فى تعرية مُحدثته من بنطال جينز أسود يلتصق بساقيها، وبلوزة حمراء منقطة بحبات خرز زرقاء، وإيشارب عصرى يغطى نصف الشعر ويكشف نصفا آخر سائلا كالموج المُعتم. أجمل ما يميز وجهها هاتان الجوهرتان العسليتان، وذلك الثغر المنفرج ابتساما من غير سوء.

سلامٌ على الجمال. هتفت حواس كرم الباطنة وهو يتحدث بلطف مُصطنع مع الصحفية الفاتنة. «نادرا ما تجد صحفية جميلة». هكذا أخبره صديقه حسن يوما وهما يتحدثان عن النساء فى الوسط الثقافى. قُل للصعلوك ذى الشعر الأبيض المُجعد والوجه النحيل «أنت لا تعرف

شيئاً، وحتى سفرك إلى لندن لم يمنحك المعرفة الحقة. النساء مفاجأة كونية، والجمال يهبط عليك من حيث لا تنتظر».

ابتسم وهى تسأله فى براءة عن مذبحة المماليك «أين كانت تلك الواقعة الدامية؟»

ـ كانوا هُنا داخلين من باب العزب عندما أغلقت الأبواب فجأة وخرج القناصة من خلف الأعمدة وأطلقوا رصاص النهاية.

أبهرها بعلمك. التشويق حرفتك الرئيسية فاحكِ لها مالم تسمع.

ابتسم كرم مواصلاً حكايته:

ـ دعا محمد على أمراء المماليك إلى مأدبة غداء. لاحظى غداء.

ابتسمت فى صمت، فواصل:

ـ واتفق محمد على مع أربعة رجال فقط هم حسن الارناؤطى وصالح قوج وإبراهيم أغا والكتخدا محمد على تنفيذ المذبحة بمجرد إعطائهم الإشارة.

بالفعل دخل المماليك فرقة وراء أخرى وجرى كل شىء مثلما اتفقوا وأصدر صالح قوج أوامره للحراس بإطلاق الرصاص على جميع المنحصرين الذين حاولوا العودة لكن الرصاص كان ينتظرهم. وبدأت رءووس الأمراء تتساقط بدءا من شاهين بك كبير المماليك ثم سليمان بك البواب، ويحيى بك وأحمد بك الكلارجى. وكان الجنود يمسكون من يبقى حياً ويجلسونهم تحت مجلس الكتخدا، حتى اذا اجتمع لديهم عدد كبير من الأمراء فيستدعون عشماوى الذى كانوا يسمونه «المشاعلى»

ليضرب أعناقهم واحداً تلو الآخر حتى امتلأ الحوش بالقتلى. وبعد ساعات قليلة انطلق عساكر محمد على لينهبوا منازل وقصور المماليك ويغتصبوا جواريهم واستمرت الفوضى ثلاثة أيام.

- ياه.

قالت باشمئزاز. وسألته:

- كم عدد القتلى؟

- حوالى ألف شخص، فالموضوع لم يقتصر على القلعة وحدها. فى اليوم التالى خرجت قوات محمد على بقيادة حسن باشا الأرناؤطى لتقبض على كل من هو مملوكى أو يشبه المماليك فى الملبس أو الهيئة. وكان الكتخدا ينتظرهم ومعه المشاعلى ليقطع رؤوسهم، وكان هناك عمال مهمتهم سلخ الرؤوس وحشوها تبناً، لذلك يسمى المؤرخ الجبرتى ما حدث بأشنع الحوادث.

امتعضت قليلا لكنها لم تفقد ذرة من الحُسن الساكن لوجهها الباسم، وجلست على سور صغير يواجه قصر محمد على لتقول لمحدثها:

- تاريخ بشع، وشخصيات مُقززة.

لم تكمل رأيها عندما تدخل المصور الأربعينى نصف المتعلم فى الحوار، مؤكدا أنّ المماليك يستحقون وأنه لولا ذبحهم ما دخلت المدنية الحديثة مصر. ردت ندى بنظرة مُعاتبة أرادت أن تستكملها بإبعاد المصور بعد أن أتم مهمته، فشكرته بابتسامة مُصطنعة، وودعته لتنسحب بفريستها الذى جذبها بحكاياته التاريخية.

سارا فى هواء محدود ورطوبة عالية ليدلفا إلى كافتيريا تلاصق المتحف الحربى وقالت فى إصرار:

ـ عازماك.

طلبت شايا وطلب كرم قهوتة المُعتادة ليتبادل رشفاتها مع زفرات دُخان سجائره.

نجحت الخطة وستستدرجها بما تمتلك من حكايات هى الأروع والأمتع. ليذهب ما يكتبه حسن السويسى من قصص وروايات لم ينشر أيآمنها إلى الجحيم. أما أنت حامل خزانة الماضى، فستبهرها بما تحفظ وستدهشها بما تعرف. ستطلب منك أن تسرد عليها تفاصيل أخرى عن تلك المذبحة الدامية؟ وستقول لها قصة الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الأزهر وما فعله بعد المذبحة من محاولة التدخل لإجارة مملوكين استجارا به. فوجىء محمد على بالشيخ المسن يتوسل إليه فى العفو عن مملوكين لم يحضرا المأدبة والتجأ إليه. وقال الشرقاوى للباشا: لا تفضح شيبتى يا ولدى واقبل شفاعتى وأعطهما محرمة الأمان.

فقال له محمد على: شفاعتك مقبولة ولكن نحن لا نعطى محارم، وأنا أمانى هو القول. وخرج محمد على وركب إلى القلعة، وأرسل ورقة إلى الشيخ مع رسول بطلبه للمملوكين المُجارين. هنا ملأ الخوف قلبى الرجلين وسألا شيخ الأزهر «إن كان ذلك خيرا؟» فقال لهما الشيخ: لقد قبل شفاعتى وهو يأخذكما من بيتى.

وسأل المملوكان: وما يفعل الباشا بذهابنا إليه ما دام لا ينوى قتلنا؟ فرد الشيخ: لابد أنه سيمنحكما أمانا ورزقا.

وبالفعل ذهب المملوكان إلى القلعة، وعندما وصلا إلى الحوش وجداه مملوءاً بالقتلى وضرب الرقاب واقع فى المحبوسين ولم يكادا يفيقان من دهشتهما إلا وكانا مقيدين إلى جانب الأسرى المماليك، ثم قتلا مع الآخرين.

ـ ياه.. كل هذا الغدر.

علقت ندى منزعجة، فقال كرم:

ـ ويبدو أنّ الحادثة آلمت الشيخ الشرقاوى أكثر مما آلمت غيره، فهو شيخ الأزهر وكانت له مكانة عظيمة، والنكوص بعهده ورد شفاعته اهانة بالغة، لذا لم يلبث الرجل بعد ذلك كثيرا، فسرعان ما أصيب بعلة ومات. هذا هو محمد على الذى يسمونه باعث النهضة الحديثة.

ابتسمت ندى وقالت:

ـ لست قارئة تاريخ ولا أعرف حقيقة ما يكتب، لكن أتصور أنّ الرجل أفاد مصر بعد ذلك بالجيش الذى أنشاه والقناطر التى بناها، والبعثات التى أرسلها.

أعاد كرم ظهره إلى الخلف وقال فى ثقة:

ـ هذا ما علموكم إياه فى المدارس حتى ترضوا بما يفعله الحكام بعد ذلك. محمد على كان قاتلاً واستعبد المصريين ليحاربوا فى بلاد لا يعرفونها إرضاء لمجده، وأهان المصريين وأذلهم وحلب خيرات مصر هو وأسرته لأكثر من قرن.

ـ يبدو أنك سترهقنى بعلمك، ويبدو أنّ ما ستقوله عن الحملة الفرنسية سيكون مُدهشاً.

غاص بصره فى عينيها العسليتين، وداعب خياشيمه عطرها الرائع الذى رجح أنه «burberry» وفكر فيها كأنثى لا كطالبة تستمع لشرحه فى انبهار. وسألها فى استعلاء:

ـ وماذا تقرأين؟

ـ شعر.

خيال؟ خزعبلات الشعراء لا يتحقق منها شىء. مثلها مثل حسن السويسى الذى يدّعى الإبداع فيكتب عن أبطال ومخلصين ونبلاء وثوار لا ينتصرون إلا على الورق. التاريخ يا سادة يقول لا. التاريخ يغفر للسفاحين والقتلة والقوادين وتجار البشر، ومحمد على خير دليل ومن سبقوه بإساءة كذلك إلى يوم الدين. غض طرفك واستدرجها، اكتم رفضك لرؤى الحالمين، واصطنع انبهارا بما تقول.

أشعل واحدة من صديقاته «الميريت» وتظاهر بالاهتمام وسألها:

ـ مَن مِن الشعراء تفضلين؟

وكأنها تنتظره هتفت:

ـ درويش.

وأضافت:

ـ وأمل طبعاً وصلاح عبد الصبور.

قال كرم مستغرباً:

ـ من هى أمل؟

ردّت منفعلة:

ـ أمل دُنقل. شاعر وليس شاعرة.

ـ آه آه. سمعت عنه.

استنكارها لجهله بأمل دنقل تحوّل إلى ملامح جدية كست وجهها، قبل أن تعتدل وتخرج مُسجلاً صغيرا أقصر قليلاً من اصبعها الدقيق، وسألت فى صرامة:

ـ هل نبدأ الحوار؟

ـ نبدأ الحوار.

# (٦)

يتذكر كرم البرديسى ذلك اليوم تماماً وكأنه بالأمس وليس قبل اثنى عشر عاما. فى ذلك اليوم الخريفى الدافىء دخل الموظف الأربعينى ذو الوجه الأسمر والأنف المدبب منزله المتواضع عابسا. شعره الاجعد يرسم كآبة حادة، وعيناه الغائرتان توحيان بقلق طاغ. بين يديه جريدة الأهرام ملفوفة كما هو حالها كل يوم على مدى عشرين عاما هى عمر زواجه التقليدى لفتاة نصف متعلمة كانت تجاور منزل والده بعابدين. ألقى سلامه ووضع جثته على أريكة صغيرة تبدو استراحة الداخلين إلى صالة ضيقة، قبل أن يسأل بصوت عالٍ:

ـ هنية. الغداء جاهز؟

أجابه صوت من الداخل بدا حانياً وراضياً:

ـ عشر دقائق.

سأل ثانية:

- كرم وهدى وصلوا؟

- كرم عاد مبكرا من الكلية ويبدو أنه مُتعب، وهُدى لم تخرج اليوم.

هُدى نطفته الأولى، وفرحته الغامرة. عندما كان موظفاً بالدرجة السادسة بهيئة الآثار، وجاءت إلى الحياة، رُقى إلى الخامسة وُنقل إلى دار الوثائق والمحفوظات كإخصائى أول لشئون الأرشيف. ساعتها قالت له هنية «ستّحقق هُدى أملك فى دراسة التاريخ والتعمق فى عمل موسوعة تاريخ المصريين عبر ألف عام»، لكن ذلك بدا مُستبعدا بعد أن زارها شيطان شلل الأطفال وترك عرجاً خفيفاً لديها. بعد عامين والنصف جدد أمله طفل جميل بعينين عسليتين اختار له اسم كرم مغتبطا بكرم الله.

كان سالم البرديسى المُغرم بالتاريخ يجلس بالساعات مع طفليه ليحكى لهما حواديت تاريخية مُسلية عن مراد بك وابراهيم بك ومحمد الألفى، والشيخ الشرقاوى، ونابليون بونابرت، ومحمد على باشا. فى سن مُبكرة ملأ الشوق دماغ ابنه الصغير لزيارة شارع المُعز وباب زويلة وقلعة صلاح الدين وقلعة قايتباى مستشرفاً حكايات والده بخياله المحدود. كل هؤلاء القتلة واللصوص والخونة كان يطاردهم فى أحلامه بحثاً عن نهايات عادلة لجرائمهم وأفعالهم. وعندما شبَّ الابن عوَّض أبويه عن اقتصار شقيقته على دبلوم التجارة والعمل فى مكتب البريد بالتحاقه بكلية الآداب قسم التاريخ.

كانت علامات النجابة والتعلق بالتاريخ بادية على الفتى الصغير الذى اهتم بقراءة «آخرة المماليك» لابن زنبل الرمال قبل أن يدرس الفتح العثمانى لمصر وهو فى الإعدادية. سأل الولد الصغير أبيه عما يعرف عن طومان باى وهل كان أميرا عادلا وبطلا عظيما كما أخبره ابن زنبل أم لا،

وكان يكن كراهية شديدة لجان بردى الغزالى، وخاير بك الخائن، وحسن بن مرعى الذى وشى بمكان طومان باى ليتم اقتياده إلى المشنقة. فى يوم ما طلب كرم من والده أن يزور بوابة المتولى، حيث شُنق طومان باى بعد أسبوعين من القبض عليه. وقتها أدرك سالم البرديسى أن ابنه جدير بدراسة التاريخ، ومؤهل للتفوق فيه، وشجعه أن يدخل الأداب قسم التاريخ موقناً أنه سيكون أستاذاً فى الجامعة.

ناداه بحب:

ـ كرم. كيف يمضى بك الحال؟

ـ تمام.

لا ينسى كرم ذلك اليوم، لأنّ والده بدا كئيبا لدرجة شعر خلالها أنّ حكماً بالإعدام صدر تجاهه. لقد نقلوه إلى إدارة الحركة بعد أن كان مُشرفاً على قسم الوثائق التاريخية. معنى القرار كما قال والده أن يجلس أمام سيارات خدمة كبار الموظفين ليّسجل مواعيد حضور ومغادرة السائقين الثلاثة الذين يعملون بدار المحفوظات. كان ذلك بمثابة عزل للرجل عن أحبائه، وفراق مقصود لصحبته، وإبعاد متعمد له عن كنز لا يعرف به كثيرون اسمه الوثائق. قال سالم لإبنه أن القرار صدر، لأنه كمشرف على الوثائق الخديوية رفض إغراء زميليه حسن وعفت لبيع وثيقة خاصة بنظام العسس فى مصر مؤرخة بعام ١٨٤٤ ميلادية، وكان المعلم نصحى تاجر الورق القديم والانتيكات قد عرض شراءها بـ١٥ ألف جنيه لصالح أحد أمراء الخليج. وقتها قدم سالم شكوى رسمية فى زميليه ونقل الوثيقة إلى خزانة «الوثائق الملكية» حفاظاًعليها. وحسبما يتذكر كرم فإن شكوى والده اعتبرت كيدية وتم حفظها ورأى رئيسه فى العمل ضرورة

إبعاده درءا للمشاكل واستجابة لتوصية من أحد ضباط الشرطة الكبار، وهو ما أحدث شرخاً لا يُنكر فى نفس سالم.

لم يقف الأمر عند ذلك، فقد تكررت محاولات استبدال وثيقة العسس بأوراق وهمية من جانب حسن وعفت الموظفين فى نفس القسم، وهو ما اكتشفه عندما كررا محاولات رشوته وسؤاله عن مكان الوثيقة. بعدها اضطر سالم أن يستبدل الوثيقة الأصلية بنفسه بأوراق كتبها بالحبر ورشها بالشاى ثُم أحضرها إلى البيت صوناً لها من التسرب إلى الخارج.

«هذه الأوراق خطيرة جدا، لأنها تحتوى أُسس النظام الأمنى المصرى» هكذا قال لابنه وهو يضعها فى كرتونة صغيرة فوق دولابه الخشبى. «فيها ما لا يخطر على عقل بشر» تمتم الوالد موصياً ولده.

أساليب التجسس، طُرق التخفى، جمع المعلومات، تحرير التقارير، تحليل الشخوص وتوقع أفعالهم، سبل التحقيق، انتزاع الاعترافات، التعامل القاسى، استخدام النساء، استغلال الخواطى، بث الشائعات، كسر صلابة الخصوم، والتصدى لصانعى الفتن كانت أهم ما تحتويه الأوراق.

فى العام نفسه تقريباً ضربت أزمة قلبية مفاجئة قلب الأم هنية، التى لم يرها كرم إلا باسمة. علام كانت تبتسم؟ لاشىء سوى الرضا. بعدها حلّ الحزن ضيفاً دائما على وجه سالم الذى حاول أن يبدو متماسكا. كانت جلسته مع إبنته وكُتب إبنه الجامعية هما سلواه فى عام الحزن الأكبر. لذا سيمرض الرجل سريعاً ولن تمر ثلاث سنوات تتزوج خلالها بكريته إلا ويلحق برفيقته تاركاً كرم وحيداً ينتظر نتيجة آخر سنوات دراسته بكلية الآداب.

# (٧)

«البصاص هو الإمام الحارس. مشكاة الدروب المُظلمة وسلالم الصاعدين إلى الحقيقة. شجرة وارفة الظلال تقى من الفتنة، وسياج من العطاء يصد سهام الغدر. رجل الأقدار لحفظ الأمن والحفاظ على الدولة، والتى لولاها هلك الدين وانقطع رباط الخلافة. البصاص عين الأمة وعون الأئمة للسهر على منافع الناس. به يستمد السلطان معرفته، وبعينيه يرى ما يُدبر من كيدٍ للدين القويم على أيدى السفلة والمفسدين فى الأرض.

لولاه لسادت الظُلمة، وتسيّد الغوغاء، وطغى الناس على كبرائهم واختل ميزان القوة ونهشت كلاب الأعداء دين الله نهشاً. هو خادم الحق، ومطارد الحقيقة، والعاصم من الهلاك. هو دارىء الشرور وكاشف البُغض، والمُنقذ من الضلال.

هدوؤه تدبر، وتأمله حكمة، وصمته تقوى، وفعاله جهاد، وحياته كلها منافع للبشرية ورحمة بهم، حتى لو بدت خلاف ذلك. ما يبغضه

إلا فاسق، وما يتآمر عليه سوى خائن. يداه هى العدالة المُطلقة وإرادته هى الحق المُبين. سوطه هو عذاب الله للكافرين حتى يؤمنوا، وإرهاب العصاة حتى يتوبوا.

رضاه من رضا أولى الأمر، الذين يأمر المولى بطاعتهم، وغضبه يستتبعه غضب المتملكين بقضاء الله، له ألف عُذر وعُذر إن عذّب بالجهل، وظلمَ بالشك، وأهلك بالظن. أخطاؤه مقبولة فى حق العامة، ومُنكرة فى حق السلطان.»

«تن تن». من سكرته العميقة فى عذوبة النص سحبه جرس الباب، فهبَّ واقفاً كمن باغته مُطارد. أغلق كرم ملفاً على طاولة صغيرة توحى أرجلها بتاريخ يعود لزمن بعيد. أطفأ نور الغرفة وسحب بابها قبل أن يفتح باب الشقة على مُهر أسود لا يبين منه سوى عينين كحيلتين.

ـ فاتن.

هتف فى بهجة لتدلف دون استئذان مُلقية قُبلتين على خديه من فوق نقاب ضبابى قريب من لون العباءة السوداء التى تُظللها كخيمة. فكت أصابعها الرقيقة أغطية عديدة لُفت بعناية فوق شعر طويل ليلى، ثُم خلعت عباءتها عن بادى برتقالى وبنطلون أسود مُلتصق بنخلتين رائعتين. ألقت حقيبتها على طاولة الصالة الصغيرة وهى تخرج قدميها من حذاء له كعب عالٍ لا يتناسب مع نقابها. جلست مُتمتمة:

ـ البواب الأبله أوقفنى.

ابتسم كرم قائلاً:

ـ صالح؟ إنسان ثقيل.

ـ قُلت له أنا الست هُدى أخت الدكتور كرم.

عادت الابتسامة على شفتى كرم مغمغماً:

ـ هل صدقك؟

أومأت بالإيجاب فقال ضاحكاً:

ـ صالح شاف هُدى مرتين ويعرف أنها بدون نقاب.

ضحكا من سذاجته والتى اعتبرها كرم تغابياً مقصوداً يُقنع به ذلك البواب الفضولى ضميره بأنه لا يتستر على فجور. يشعر دائما أنّ ذلك البواب قواد مجانى، مثلما هو مخبر ضليع يتجسس على الجميع ويعمل كإذاعة متنقلة.

ألقى ناظريه على الجسد الأسمر الأبنوسى الذى تعرى سريعاً لتمر بذاكرته ليالى عديدة تقلب فيها بين نهدين شقيين وردفين مُتكبرّين. فى يوم ما قاده صديقه الصعلوك حسن السويسى لسهرة حشيش فى بيت فنان تشكيلى مُسن اعتاد التعامل مع بعض المومسات كموديل رسم بعد قيام كليات الفنون بحظر مادة الطبيعة الحرة وانقراض مهنة عارضات الجسد للرسم، وهناك صادف فاتن التى تعلقت بعينيه وقبلت دعوته المُلحة بعد أن منحها ثلاثمائة جنيه اعتبرتها كرماً زائداً. من يومها وهى زائرة أسبوعية لشقته الصغيرة تُحضر معها عشاءها وتنهل من بيرته وتغادر مُبكراً لتأخذ مائتى جنيه لا تزيد عنها. شهور قليلة وصار كرم زبوناً مألوفاً لها واعتادت طقوسه وغرائبه، وقصّت عليه فاتن جانباً من حياتها البائسة عندما سألها يوما عن تلك الضحكة الدائمة المرسومة على وجهها إن كانت متصلة بقلبها أم مُجرد مكياج مُعتاد. قالت له إنها أتت

إلى القاهرة من طنطا هاربة من زوج أمها الذى كان يُجبرها على الخدمة فى منزل أحد أعضاء مجلس الشعب مقابل مائتى جنيه ينفقها على شراء الحشيش. كانت تتصور أنّ القاهرة حاضنة للغرباء، مانحة للسعادة، وعندما التقت بالحاجة سنية التى تُدير مكتب تسفير للخادمات إلى الدول العربية ظنت أنّ الحياة تبتسم لها، ودخلت التجربة لتسافر إلى بلاد النفط عذراء وتعود بعد شهور قليلة دون بكارتها مُهددة بالاتهام فى قضية سرقة، وراضية بمكافأة سنة خدمة لتبدأ حياة جديدة فى عاصمة بلا قلب. دخلت طرقات الليل مستثمرة قواماً ملفوفاً وخصراً نحيلاً وعينين غاويتين وعطراً مُثيراً، وذاقت مرارة مجربين قُساة وزناة ساديين حتى ائتنست بعالم الرسامين المُتحضر خاصة أنهم يكتفون غالباً برسم الجسد العارى دون نهش أو تدنيس.

فاتن لم تكمل تعليمها، لكنها احتفظت بروح فُكاهة مرحة، وشىء من الذوق اكتسبته من مجتمع الرسامين. تشُعر بألفة بالغة فى شقة عابدين القديمة فقيرة الأثاث التى يقطنها مشروع الأستاذ الجامعى الغامض كرم سالم البرديسى. يعجبها طوله وحُسن مظهره، وترتاح لعطره وتحضره فى التعامل. سألته كثيراً عن تلك الغرفة المُغلقة المجاورة لغرفتها المعتادة وعما تحتويه، فتكررت إجابته: «مُجرد كراكيب». ابتلعتها غرفة نومه ومكتبه البدائى الأبلاكاش الذى يحتمل رزمات ثقيلة من الورق ومجلدات لكتاب «عجائب الآثار فى التراجم والأخبار». غرقا فى المتعة وغابا فى لجاج الكحول.

# (٨)

كمن نام قرناً. عُزير، استيقظ مُنهكا مثل عداء انتهى تواً من ماراثون طويل طويل. تحسس جسداً ناعماً مُلتهباً كان جواره فلم يجدُه. فتح ذراعيه وطرقع ظهره متمطعاً، ونهض. جرجر عُريه إلى حمام صغير يُناسب شقة بُنيت قبل نصف قرن ويغسل خلاياه وذنوبه تحت الدُش متذكراً عبارات عديدة زارت أذنيه ليلاً تضُج بالحُب المَصطنع من عينة «حبيبى كرم»، و«روح قلبى». ابتسم للانتصار الزائف الذى يعى تماماً أنه مدفوع. وناقش ذهنه مُبررا «مدفوع لكنه غاية فى الجمال». ارتدى ملابسه أمام المرآة معجباً بجسد طويل أقرب للرشاقة ووجه رائق بارد القسمات وعينين ساحرتين تستلبان لون العسل.

خرج إلى الصالة يُفتش محفظته ليراجع ما امتدت له يد المُهر الليلية، يبتسم لذوقها وقناعتها إذ لم تأخذ سوى مائتى جنيه مثلما تأخذ كل مرة. «مُحترمة» تمتم وهو يُقلّب محفظته المحشوة بألف وثلاثمائة جنيه هى ما تبقى من راتبى الجامعة والجريدة العربية التى يُراسلها. لا تخون فاتن عهدها،

ولا تغدُر. ملتزمة بالاتفاق إلى أبعد مدى، وتؤدى عملها بإحسان وهمة وضمير. «عظيمة يا فاتن».

توالت ذكريات نساء عديدات عرفن بيته وعرف مخادعهن مُنذ عمل مُعيداً بكلية الآداب واقترن بالوحدة. كانت أكثرهن ً استمراراً سنية ذات القدّ السمين التى تابت واعتزلت بعد أن فقدت ابنها الوحيد فى حادث سيارة، وربما كانت أمكرهنّ وأكثرهُنّ خطراً جاسمين التى تُجيد الإنجليزية وترتدى أفخر الملابس وأفضل المساحيق. حاولت تلك المومس إقناع كرم أنها تحبه وتعشقه وأنها على استعداد أن تُغير حياتها تماما من أجله، بشرط أن يتزوجها عُرفياً، وكاد متذوق النساء المبتدئ أن يفعلها قبل أن يقرأ فى الصحف خبر القبض على فتاة متزوجة من ثلاثة شبان فى الوقت نفسه وتعمل فى أكبر شبكة دعارة وإلى جواره صورتها.

قبل اعتياده طريق البغاء كانت لكرم تجربتان غريبتان. الأولى مع باحثة أمريكية تعرّف عليها فى مكتبة الجامعة الأمريكية وكانت تُعدّ دراسات حول القاهرة المملوكية وساعدها وزار معها مسجد المؤيد شيخ ومئذنتيه الرائعتين والتى من خلالهما يمكن الصعود إلى سور بوابة المتولى. لم يكن الأمر صعباً أن يمنح كرم حارس المسجد عشرة جنيهات ليفتح لهما قبو الصعود إلى داخل السور ذى المزاغل الضيقة. كانت ميريام ذات الخامسة والعشرين القادمة من شمال ولاية أريزونا تبحث عن تاريخ لم يُكتب وأبطال مغمورين وحكايات صاخبة فى بلد كان يوماً ملتقى حضارات وأجناس وملاحم مذهولة من عبق التاريخ الفواح فى شارع المُعز، ولما دخلت أقبية السور ونظرت إلى الشارع وهى تستمع لقصة شنق طومان باى فى نفس المكان منذ ٤٨٤ سنة شعرت بالخوف فارتمت بين ذراعى كرم، ثُم استكانت

وذابت وامتدت يداها لتعبث بملابسه وحاول الإفلات، لكن شيطان المُتعة غلبه وكان عليه أن يدفع مرة أخرى لحامل مفتاح المئذنتين وهما يخرجان من مسجد المؤيد شيخ، ذلك السجن الذى احُتجز فيه المملوك المُضطهد يوماً ما، فأقسم إن فك الله أسره وملّكه حُكم مِصر ليحوّلن ذلك السجن إلى مسجد كبير. بعدها سافرت ميريان سريعاً كما جاءت سريعاً ولم يتذكر كرم منها سوى صغر النهدين وشعرها الذهبى وساقيها النحيلتين.

أما التجربة الثانية فكانت مع مُرشدة سياحية اقتربت من الخمسين وكانت تصاحب فريق الكلية فى رحلة نصف العام بالأقصر وأسوان، وفى بار الفندق كان شريكها الوحيد فى الشراب هو كرم الذى نافسها فى ازدراد «هينكين» حتى غابا عن الوعى، واستيقظ ليجدها فى غرفته نائمة دون ثياب.

ارتشف نسكافيه ساخناً أعده سريعاً، ثُم ابتلع حبة fish oil اعتاد تناولها كل صباح تحت زعم منح الحيوية والنشاط وتأهب للمغادرة. لمعت عيناه للحظات وسرت الكهرباء فى أوصاله عندما لمح باب الغرفة الصغيرة مواربا كأنها تعرضت لغزو. تلك الغرفة التى كانت تثوى شقيقته هُدى فى الماضى، بينما كان عليه أن ينام فى الصالة تحولت الآن إلى كهف سرى مُكدّس بالكراكيب. تذكر أنّ وثائق البصاص تركها على المكتب قبل مجىء فاتن غير المُنتظر. يدلف مُرتاباً ليجدها ساجية على الطاولة العتيقة مفتوحة الصفحات صفراء اللون.

هل زارتها فاتن؟ تلك العاهرة الخبيثة التى تدّعى الطيبة. هل اطلعت على تلك الأوراق السرية؟ هل قامت بنقلها أو تصويرها؟ هل قرأتها؟ اطرد المخاوف جانبا، لكن الباب كان مُغلقاً، وعندما سألتك المُنتقبة الغاوية عن

تلك الغرفة كانت مُغلقة. أنت تشك فيها، لكن لماذا تتجسس عليك فاتن؟ لعلمك؟ لرسالتك؟ لخباياك؟ كشوفاتك المُذهلة فى التاريخ؟ مُستحيل. إنها تقرأ اسمها بالكاد، وما يهم فاتحة الساقين فى التاريخ؟ ربما تكون جاسوسة؟ لكن لصالح مَن؟ أجهزة الأمن؟ أم الجامعة؟ أم تُجار الورق القديم؟ مِن يعرف فى الأصل أنها هُنا؟ لا أحد.

أعد حقيبته، أوراقه، أقلامه، وكتاباً صغيراً استعاره من مكتبة الجامعة بعنوان «تاريخ محمد على وابراهيم باشا» لاسكندر بن يعقوب مكاريوس، ورشّ ثلاث رشات من عطر «hugo boss» على قميصه، ونظر أمامه ليطالع وجه عبد الرحمن الجبرتى مبتسما فوق الجدار ببروازه القديم فحياه، وغادر.

المترو هو الأسرع والأسهل. من محطة محمد نجيب إلى جامعة القاهرة. يستغرق المشوار عشرين دقيقة يستمتع خلالها بقراءة وجوه الناس العابسة، والاستماع إلى أحاديثهم التافهة فى الكرة والجن والدين. سيذهب إلى مكتبه البائس ويطلب قهوة، مرة واثنتين، ثُم يسأل على أستاذه الدكتور أحمد مندور فيعلم أنه مازال مريضاً، وأنّ عليه أن ينتظر حتى يُنعم الله عليه بالشفاء فيعود إلى مكتبه وتلاميذه ورسائلهم المُعطلة.

أترى هُناك مَن يتفهم رسالتك غير الدكتور «مندور»؟ هل هُناك من يعى أهميتها؟ هل يعرفون خطورتها؟ «تطور النظام الأمنى من عهد المماليك إلى محمد على باشا. الأدوات والوسائل.» لو رآها الدكتورعفت لباعها إلى أجهزة مخابرات دول الخليج بأى ثمن. لو عرفوا بما لديك لسكبوا فى حجرك الذهب والفضة، وربما اختاروك مستشاراً للأمن القومى العربى. لاعليك. لم يحن الوقت بعد.

سيدخل إلى المكتبة التاريخية ليجد الطالب حسام الحفنى جالساً وأمامه

عدة مُجلدات سميكة التجليد، وورقاً أبيض، وقلماً أزرق وآخرا أحمر. سيسأله عما يفعل وهم فى اجازة صيفية، وسيرد:

ـ أحقق أمرا يا دكتور أكتب عنه مقالاً فى موقع «إسلامنا».

سيسأله كرم عما يكتب، وسيخبره أنّه يحقق فى مؤامرة سقوط الأندلس عام ١٤٩٢. أليس غريباً أن تسقط دولة الإسلام الوحيدة فى أوروبا فى العام ذاته الذى اكتشفت فيه أمريكا على يد كريستوفر كولومبوس؟

ـ التاريخ ليس مؤامرة يا شيخ حسام.

ـ إنّه كذلك.

ـ كم يدفعون لك؟

ـ خمسمائة فى المقال.

مرتبك فى نصف شهر. زكائب أموال تُصب صباً فى تكريس نظرية المؤامرة، وصناعة التخلف لدى العقل العربى. ما سقطت الأندلس لأنهم تآمروا عليها وعلى المسلمين، لكنها سقطت لأنّ أخلاق قادتها وعدلهم سقطت.

سيتكرر النهار والمساء كما تكرر الأمس وسيُفاجىء بعد أيام بصوت ندى حسين يفاجئه على هاتفه بأنّ الحوار الذى أجرته معه الخميس الماضى، سينشر فى الغد ضمن ملف حول مرور مائتى سنة على خروج الحملة الفرنسية من مصر. شكرها بتودد وفكر فيها مرة أخرى.

# (٩)

نفس السيناريو وذات الطريق. صحا فى الثامنة وكرر ما كان بالأمس.

من محطة محمد نجيب إلى جامعة القاهرة ٢٠ دقيقة كانت كافية ليتأمل كرم صورته المنشورة بجريدة «الأهرام إبدو» مبتسماً وخلفه قبة مسجد محمد على باشا تتوسط صفحة كاملة. لا يفهم الفرنسية، لكنه يفهم من بضع كلمات عرف معناها أنّ الحملة الفرنسية تركت آثاراً عظيمة على مصر.

عظيمة أنتِ أيتها الصحافة، تصنعين نجوماً وأبطالاً وخالدين. ما بين طرفة عينٍ وانتباهتها يتحول اللاشىء إلى شىء، بل وشىء عظيم. مَن يعرفك يا صاحب الوجه الحزين؟ أيها الوحيد المعزول عن العالم فى شقة حقيرة آلت للسقوط قبل عقود. أيها المكتفى بصداقة صعلوك مجنون اسمه حسن السويسى، ورجل بصاص رحل قبل مائة وثمانين عاماً لا يتبقى منه سوى برواز عتيق يتوسط صالتك. أيها المنتظر لمُعجزة أن يكتشفك عباقرة التاريخ فيفتحون لك أبواب المراكز والمعاهد الكبرى فى

العالم المتحضر. أيها المجنون بالنساء دون سبب سوى أنك تغرس فيهم انتصاراتك وتُحقق من خلالهم فلسفتك المادية القائمة على أنّ السعادة قائمة على كل ما هو محسوس.

تذكر كرم حديثه لصاحبة العينين العسليتين والثغر الباسم. ذلك المنشور أمامه فى جريدة بالفرنسية يقرأها السفراء والأجانب. تلك الوجوه العابسة حوله فى مترو الأنفاق لا تعرفه ولا تعرف ما يدور بدماغه، وما يمتلك من معارف وعلوم. بالطبع ليس فيهم مَن يجيد الفرنسية التى درسها وهو ابن اثنى عشر عاما باعتبارها لغة إضافية للدلع فقط، فلم تبق فى ذاكرته منها سوى كلمات معدودة. أيها الناس الراضون بكل شىء. يا أهل مصر: هُنا فى هذه الجريدة حقيقتكم. قُلت لصاحبة الغمازتين أن الفرنسيين أيقظوا جينات الحُرية لدى أهل مصر. أخبرتها بالحقيقة. من نابليون ورفاقه عرف أجدادكم أنّ هُناك أنظمة وقوانين وقواعد مكتوبة لكل شىء، علموا أن العلم ليس فقط ما قرأوه فى كتاب «الحيوان» للجاحظ، وألفية ابن مالك، والحكم العطائية، وأنّ هُناك علوماً أخرى، واكتشافات جديدة، وعلماء يستغرقون أعمارهم بالكامل فى خدمة البشرية.

قُلت لَمَن تقرأ شِعر لرجل اسمه أمل لا أعرفه أنّ فكرة مصر للمصريين ولدت لأول مرة مع الحملة الفرنسية عندما حاول نابليون بونابرت فى منشوره الأول أن يذّكر المصريين أن البلاد التى يعيشون عليها هى بلادهم وأنهم أولى الناس بخيراتها. عندما حاول أن يُحذّرهم من بغاة فاسدين يحكمونهم باسم الدين وفى الغالب لا علاقة لهم بالدين. نقلت لها نص منشور بونابرت الذى يقول فيه:

«إننى ما قدمت إليكم الا لأخلص حقكم من يد الظالمين، وإننى

أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم. إنّ جميع الناس متساوون عند الله وإن الشيء الوحيد الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضايل والعلوم، وبين المماليك والعقل والفضايل تضارب».

بالطبع لم يكن نابليون يفعل ذلك عن محبة، وإنما عن مصلحة، لكنها مصلحة آتت ثمارها بالفعل وتركت أثراً فى نفوس أهل مصر.

حكيت لها يا كرم ما تريد. حكيت كيف نظمّ الفرنسيون مُدن مصر وقراها، وأنشأوا الدواوين فى القاهرة وباقى الجهات، ورتبوا مواعيد الرى والصرف ووضعوا ديواناً للصحة وغسلوا الشوارع، وتخلصوا من القمامة، وأجروا فحوصات للمواطنين لمنع انتشار الأوبئة، وأقاموا نظاماً لخدمات البريد والمواصلات، وأنشأوا مطبعة، ومسرحاً للتمثيل، ومجمعاً علمياً، ومركزاً للطب والصيدلة، ومستشفى من خمسمائة سرير، ومعملاً كيميائياً، ومرصداً فلكياً، ومعرضاً للرسم، وحديقة للحيوانات ومتحفا، ومعامل وطواحين.

وصل الجامعة، ليجد وجه غريب صبحى الكئيب مُنكباً على تلال من الورق القديم، يُقلبها مُمسكاً بكاميرا صغيرة ليلتقط بين ورقة وأخرى صورة ضوئية بيدين مرتعشتين. حياه مُبتسماً ليسمع سؤاله التقليدى:

ـ متى تنتهى رسالتك؟

أيها الكئيب التافه: أليس عندك غير هذا السؤال؟ لا تُجبه.

صمت مر، فُكرر السؤال، فباغته كرم:

ـ ما هذه الأوراق؟

ـ كنز.

ابتسم غريب ابتسامته الصفراء التى اعتادها منه عارفوه، واقتربت نظارته من ورقة صفراء منقوش عليها بمداد أسود حروف مُتصلة تأخذ شكلا زخرفيا.

واصل غريب مفاجأته:

ـ هذه هدية من المعلم نصحى تاجر الورق القديم. مُراسلات مُصطفى كامل زعيم الوطنية الذى تُحبه لولى نعمته الخديو عباس.

يا ناعم الشعر ومنكوش الفكر كيف سقطت عليك هذه التحفة النادرة؟ يقترب كرم من الجالس على كرسى خشبى أبلاكاش لا يناسب جلال الموقف ويمد أصابعه لامساً كومة الورق، ليرده زميله قائلا:

ـ ممنوع اللمس. هذه الوثائق استعارة فقط من المعلم نصحى، ولولا وساطة الدكتور عفت عنده ما آئتمننى عليها. أنت لا تعرف كم سعر هذه الأوراق.

كان كرم قد سمع مراراً حول زيارات الدكتور عفت عزام رئيس قسم التاريخ لمخازن المعلم نصحى لتقييم وثائق معينة وتسعير أوراق ما اشتراها الرجل المُتخصص فى تجارة الأوراق القديمة ببضعة آلاف من مُستخدمين بمصالح حكومية معينة، وورثة شخصيات عامة، وهواة يتلذذون بحيازة خطابات وأوراق وصور العظماء. وسمع كرم كثيراً عن ثراء المعلم نصحى وعلاقاته برجال أعمال ومسئولين كبار فى مصر وبعض دول الخليج، فضلاً عن صلاته واتصالاته مع مراكز ومعاهد أبحاث وجامعات أوروبية وغربية. وقبل كُل ذلك فقد سمع اسمه من

والده المرحوم سالم البرديسى الذى تعرّض لإغراءات ليبيع له وثيقة «العسس» لكنه أبى. إنّه يتذكر الآن عندما سأل والده قبل أيام من وفاته «مَن هو المعلم نصحى الذى طلب زميليك أنّ تقابله؟» أجاب: امبراطور مملكة التاريخ.

تذكر ندى تلك الفريسة التى لم تقع بعد. أخرج محموله ليتصل بها ليشكرها. صوت دافيء وحنون لا يوحى بغواية، وعبارات شبه رسمية خانقة للحوار.

ـ هل قرأت الموضوع؟

ـ طبعاً. عظيم. أنت كاتبة مُحترفة.

ـ لم تُقل لى إنك تعرف الفرنسية.

ـ لا أعرفها، لكننى قرأت بعينى وبقلبى.

أيها الكاذب اللعين، مُنذُ متى كان لك قلب.

صمت، فواصل تقدمه:

ـ عندى موضوع آخر مهم جدا، ويُمثل سبقاً صحفياً.

ـ خير.

ردت فى لهفة، فطلب أن يلتقيا. متى؟ فى أسرع وقت. إذن نلتقى الليلة. هكذا اتفقا فوقف صافعاً صبحى غريب بنظرة احتقار.

# (١٠)

لم تُدرك صاحبة الوجه الهادىء والقسمات الرقيقة والعينين العسليتين أنّ ذلك المكان الذى دعاها كرم أن تنتظره فيه كان يوماً مجلساً للمُثقفين والمُبدعين المشاهير. ماله تحوّل إلى مقهى خانق، مكتوم الأنفاس، طافح بالكآبة، مثير للشبهات. لم تجلس هُنا ولا كرم عام ١٩٣٦ عندما افتتح يوسف أفندى ذلك المقهى مُطلقا عليه اسم «الحُرية». كانت الحُرية فى ذلك الزمان تعنى الاستقلال، وبعد خروج المحتلين اكتشف الأحرار أنّ هناك معانى أخرى تعنى الانطلاق فى الفكر والاعتقاد بدون قيود أو حدود. على هذا المقهى جلس ضباط الجيش البريطانى الباحثون عن لحظات راحة والتقاط أنفاس فى طقس حار لم يُخيروا لاحتماله. وبين جنباته تداولوا حكايات الذكرى والشجن عن حبيباتهم اللآئى ودعنهن فى انجلترا وحيواتهم التى افتقدوها هُناك. كان المقهى قد وضع سياسة جاذبة تعتمد على تقديم أفضل خدمة وجودة للزبون، بأقل سعر.

يوماً وراء آخر ذاع صيت المقهى واختاره كثير من المبدعين والفنانين والفدائيين واللصوص والخونة مجلساً لهم.

الآن تغير الحال، رغم بقاء المقهى بنفس معماره السابق المتميز إلا أنّ أيدى العشوائية واللاحضارة تركت بصماتها عليه، فبدت بعض المقاعد مُشققة الأرجل، وعلا القدم طاولات الزبائن الرخامية، وشاعت فى المكان رائحة كريهة تشبه رائحة البول. حتى وجوه الرواد أنفسهم من عاشقى البيرة ومعتادى القهوة غطتها ندوب الزمن وكرمشة العجز.

تجولت ندى بنظرات حذرة فى وجوه مَن حولها لترى غمام الهروب من الواقع البئيس فى زجاجات «استلا» المتراصة بسخاء على الطاولات وحولها أكواب زجاجية طويلة وصحون صغيرة من الترمس والفول. ذلك الكهل الخمسينى المُدخن بشراهة وأمامه زجاجتان إحداهما فارغة والأخرى فرغ نصفها مما يهرُب؟ من رتابة الحياة الزوجية وهموم الأبناء أم قسوة مديريه ومكائد زملائه؟ وهذان العجوزان اللذان تلتمع بقايا الدموع على حدقتيهما. هل كانا زميلين تقاعدا معا ويستذكران أزمنة جميلة مرت سريعاً؟ وذلك الشاب منكوش الشعر نابت الذقن. أتراه فنانا يحسب حياته جنونا أو يتصور اللامبالاة أفضل تحدٍ لهموم الوطن؟ وتلك الفتاة الجالسة مع شاب يبادلها النظرات الحزينة، هل يشربان نخب الفراق؟

رغم ارتفاع السقف خمسة أمتار شعرت ندى أنّ المقهى اسم على غير مُسمى. لا هواء طلق، ولا نوافذ وأبواب مفتوحة، وكأن الرواد يخشون تطفل العابرين للنظر إليهم وهم يحتسون البيرة. انتقل إليها فيروس العبس وهى تُقلب محمولها لتتأكد أنها لم تمكث كثيراً على انتظار.

ما أصعب لحظات الانتظار وما أسأمها، خاصة إن كانت فى مثل هذا المقهى الذى لا تحبه. كم كتبت عليها مهنة الصحافة أن تلتقى بأناس لا تحبهم، وتتحاور مع شخصيات تافهة، وتدخل إلى أماكن لم تتمنى يوماً أن تدوسها قدماها. سنواتها الست والعشرون مُفعمة بما لم تتوقع مُنذ قبلت راضية متاعب ومصاعب مهنة لا تمنح عاشقيها سوى قليلاً من المال، ونفوذاً مُقيداً، ورغبةً عارمة فى نفاق شخصيات مُقززة وكريهة طلباً للمعلومة والخبر.

مرآة صغيرة سحبتها لتستعيد ثقتها وهى تلمح ساعة المحمول تُسجل ٤,٥٠ مساء. خمس دقائق تأخير أمر مقبول ومعقول فى بلد مثل مصر. وجهها الأبيض يبدو عليه الإرهاق، والروج المُلتصق بشفيتها انطفأ تعبا، لكن عينيها الساحرتين تبثان جمالاً لا يُناقش.

لمحته طويلاً يضع يمناه فى جيبه ويدلُف فى تبختر متلفتاً يميناً ويساراً. رأته عيناها فوقفت لتُسلم عليه هاتفة:

ـ دكتور كرم. أهلا.

ابتسم ويداه تُفتش عن دفء كفها الأرق، وانفرجت شفتاه:

ـ تأخرت قليلاً. أنا آسف. تعرفين المترو. ليس دقيقاً تماماً.

ـ لا عليك.

جلس راسماً ابتسامة امتنان تقليدية. ابتسمت فاتسعت غمازتاها مُبدية رقة ساحرة تُداعب انزيمات الشهوة لدى كرم فيتخيلها مُمددة على سريره البسيط، مثلما كانت فاتن قبل أيام. ارتعشت قليلاً عندما لاحظت نظرات متذئبة، لكنها اعتبرتها بحُسن ظن نظرات اعجاب. الشعور أنّ

هُناك مشاعر يُمكن أن تتفاعل وتولد وتتمدد هو أجمل شعور لأنثى هرب منها الحب فجأة. كم افتقدت ذلك الشعور منذ خمس سنوات بعد أن تخرجت وفارقها صديقها الأقرب وحبيبها الذى اختارته بعد تردد ثلاث سنوات إلى منحة دراسية ليستكمل التعرف على الأدب الفرنسى.

ستحكى له إن سألها عن الحُب كل شىء، وستفتح قلبها إن طرقه ذلك الشاب المُنغمس فى حكايات الماضى كمصور مُحترف.

ـ هل تشربين؟

سألها بتودد مُصطنع، فمنحته ابتسامة خفيفة قبل أن تجيبه:

ـ كل الناس تشرب.

ـ لا أقصد المعنى الدارج. هل تشربين كحوليات؟

لم تنطق، لكن وجهها المُبتسم تحرك يميناً ويساراً نافياً، فسأل كرم ثانية:

ـ هل يُضايقك أن أشر..

ـ لا لا. أنت حُر. هذه معدتك، وهذا كبدك، وهذا عقلك. لقد اعتدت أن أحترم رغبات الناس. كل انسان حُر فيما يفعل.

أخرج سجائره، فابتسمت أكثر وأضافت:

ـ وهذه أيضا رئتك يا دكتور.

ـ أنا لست دكتور. اسمى كرم.

أشعل واحدة ميريت وهو فرح، وسألها:

ـ ماذا تشربين؟

ـ بيبسى.

نظر للنادل الذى بدا يعرفه جيدا وقال:

ـ واحدة «ستلا» وبيبسى للآنسة.

حكى لها باختصار عن السوق السرى لتاريخ مصر. تُجار وأباطرة ووسطاء يبيعون ويشرون بطن التاريخ المصرى. وثائق مهمة وخطيرة ومكاتيب ويوميات أناس مشاهير وغير مشاهير لعبوا أدواراً فى صراعات سلطة غير مُدوّنة. ورق أصفر باهت شبه متآكل يحوى حكايات لا يعرفها أحد وأحداث لم تُسجل وشهادات لم تُتح بعد للباحثين والدارسين. شبكة واسعة من الأثرياء داخل وخارج مصر يقيمون متاحف فى قصورهم للتاريخ المنسى ولعاً بالماضى، بينما جمهور الباحثين والعلماء والمؤرخين يدورون حول المراجع الكتب والوثائق نفسها.

قال لها إنّ وثائق ثورة يوليو جميعها بيعت بحضور أستاذ له فى مزاد سرى عُقد لدى واحد من تُجار الورق القديم بثلاثة ملايين دولار. بأذنيه سمع قصة بيع أوراق المشير عبد الحكيم عامر الرجل الثانى فى مصر الستينيات وكيف اشتراها المعلم نصحى بـ ٤٠٠ ألف جنيه وباعها بنصف مليون دولار بعد أقل من إسبوع لأمير عربى. أخبرها أنّ رجل أعمال شهيراً يشترى بشكل ثابت أية أوراق تخص أسرة محمد على ويقيم متحفاً خارج مصر يضم روائع التاريخ.

ابتسمت ندى كأنها لم تندهش وقالت وعيناها ترقب أصابع كرم تحتضن سيجارة ثانية:

- مَن قال لك أن هذه الحكايات يمكن نشرها فى جريدتنا؟ إننا لا ننظر إلى النصف الفارغ من الكوب، لكننا ننظر إلى النصف الممتلىء. من الممكن أن تذهب بتلك الحكايات إلى أى جريدة مُعارضة وسيفرحون بها وينشرونها.

صدمة غير متوقعة. لماذا توصد الأبواب فى وجهك.

سألها:

- إذن لماذا تكتبين إن لم تنشرى ما يُصحح الأوضاع ويواجه الفساد؟

- أولا يا دكتور: النشر لا يُصحح الأوضاع.

- كرم لو سمحتِ.

- أولا يا كرم نشر تلك الحكايات بدون إثبات فعلى جريمة سب وقذف قد تطال أشخاص ما. ثانياً أنا أعمل فى جريدة تخاطب الأجانب، السفارات، السياح، الجاليات الفرنسية المقيمة، ومنذ تأسست عام ١٩٩٥ ولم تنشر سوى ما يُحفّز على السياحة، ويُظهر الوجه الأجمل لمصر.

فتحت حقيبتها السوداء المزركشة لتخرج له ملفاً دفعت به إليه، وواصلت:

- هذا تقرير منظمة العفو الدولية عن التعذيب فى مصر، معى منذ أسبوع ولا أستطيع نشره، لأننى أعرف سياسة المكان الذى أعمل به وأعرف حدوده.

- إذن لماذا أخذته؟

- لأعرف.

ابتسمت قليلاً لتبدو أعقل كثيراً مما يتصور وأخبرته أنها تنشر التقرير لكن بشكل آخر، فالشعر مثلا يُمكن أن يكون وسيلة لقول أمر ممنوع أو مطلوب.

امتدت يُمناه لتسحب الملف لتصطدم عيناه بما هو مكتوب:

«وسائل التعذيب المباشرة:

١ ـ تعليق المُشتبه فيه من قدميه ليعلو رأسه موقد فحم مشتعل.

٢ ـ الضرب المُبرح على باطن القدمين.

٣ ـ تغطيس الرأس فى برميل مياه صرف صحى قذرة الرائحة.

٤ ـ إدخال عصا خشبية فى شرج المتهم.

٥ ـ ربط وصلات كهرباء بشحمتى الأذنين وبالخصيتين.»

ـ هل هذا معقول؟

سأل كرم بصوتٍ عالٍ.

ـ كل ذلك يحدث.

لم يكن يقصد ذلك، يحدث أو لا يحدث، هذا ليس سؤالاً مقبولاً فى بلاد العرب، وإنما لفّت نظره أنّ وسائل دفع المتهم للاعتراف الموجود بالتقرير هى ذاتها المدونة فى وثيقة «العسس» التى اختلسها والده. واصل القراءة ليجد تطابقاً فى وسائل التعذيب غير المباشرة مثل: تهديد المتهم بالاغتصاب، أو القبض على زوجته أو احدى شقيقاته أو امه والتهديد باغتصابها، أو تعريض المتهم لصدمات مرئية مثل مشاهدة جثة متفحمة أو اسماعه صرخات وصيحات مُعذّبين.

أغلق الملف مهموماً فلاحت فى عينيه نظرة حُزن قرأت فيها ندى وجعاً قديماً.

ـ نُغيّر الموضوع.

ابتلعت ريقها خجلاً عندما سألها:

ـ كيف تنشغلين بهذا القبح ولديك كل هذا الجمال؟

فعلا هى جميلة، لكن تلك البراءة البادية على وجهها تُعرقل تقدمك. تبتسم فتبدو أجمل وأجمل. يصب آخر ما تبقى فى زجاجة البيرة الجالسة أمامه ويتقدم بإتقان.

ابتسمت مرة أخرى عندما أخبرها أن عينيها ساحرتين، لكنها كبحت نظراته بسؤال صادم:

ـ لماذا تنظُر لى هكذا؟ أنت تُعرينى بعينيك كأنى فتاة ليل.

ضربة مباغتة. كشف علنى. كيف قرأتك بهذه الدقة؟ سحبتك سحباً ككلب ضال ببقايا عظام حتى أدخلتك قفصها. هزمتك على ملعبك وبين أحبائك ووسط جمهورك وعلى مجلسك المفضل. ستسقط جثتك متدحرجة من جبل المقطم. ستحفر يداك قبرا يليق بوقاحتك ونذالتك. عيناكَ فاضحتان فاصمت ولا تُنكر. انتظر ما لديها.

انفرجت شفتاها بذبذبات ترجمها الفراغ المُحيط كلمات قاسية:

ـ ألا تعرف أننى قارئة عيون مُحترفة. أعرف ما يدور فى ذهنك. منذ اللقاء الأول وأنا أعى تماما مع مَن أتعامل. أنت شاب أعزب، تبحث عن رفيقة رخيصة رغم أنّ لديك كثيرات. رأيتنى مُقبلة فرسمت طريقك،

وما ذكرته من حكايات عن موضوع جديد مهم يمكن أن أكتب فيه مجرد سنارة لتصطاد سمكتك.

ـ ماذا تقولين؟ آنسة ندى كيف تتحدثين بهذا الشكل؟

ابتسمت وقالت له:

أنت تمتلك عينى بصاص.

ـ أنا؟

سأل كرم فردت له بسؤال مُباغت:

ـ هل تحب أن أذهب معك إلى البيت الآن؟

الصدمة قاسية، لكنه استجمع شجاعته وقال فى برود:

ـ أنت أجرأ مما توقعت.

ردت الابتسامة بأخرى ووقفت، فقام كرم الأطول كثيرا، ثُم دفع الحساب، وقاما، خرجا، وسارا معا، وكانت الساعة تقترب من الخامسة وتذكر صالح البواب قبل أن تباغته ندى للمرة الثانية:

ـ أنا أمزح معك فقط. سأراك غدا. يجب أن أعود للبيت. أهلى محافظون، وأنا لست كما تظن.

ابتسمت وصافحته لتمشى فى الطريق الآخر، وظن أن زجاجتي البيرة قد أسكرتاه بالفعل، وأن ما جرى محض أوهام وخيالات تدور برأسه.

# (١١)

«عينا البصاص لا تمسهما النار لأنها باتت تحرس فى سبيل الله. يُسجل الشاردة والواردة، ويدقق النظر فى وجوه الخلق مستقرئا خباياهم ومفتشاً أسرارهم. عيناه مُسلطة على الجميع، الكبير والصغير، الغنى والفقير، الأبيض والأسود، العبد والسيد. كل نظرة وراءها غرض، وكل فعل خلفه خفايا يتتبع الكلمة خلف الكلمة متى خرجت من ألسنة الإفك وصُناع الفتن لتنسل لحم الدولة.

البصاص لا يُحقر أمراً، ولا يستثنى أحداً من المراقبة فكثير من الأشرار لا يبينون، وبعض مَن تبدو سيماهم طيبة جواسيس وخونة. إنّ الكلاب التى لا تنبح قد تنهش غادرة، ودائما تشتعل النار من مستصغر الشرر.

البصاص لا قلب له. مات ودُفن يوم نذّر نفسه لخدمة الإمام. لا يحب سوى مَن يطيع ويرضى، ولا يكره إلا مَن يعصى ويطغى. يداه هى عذاب الله للمارقين والكفرة يعتصر الضالين اعتصارا حتى يبوحوا ويقروا.

يعذره الله فيما يفعل لأنّ مبتغاه الأخير هو صون الدين وصيانة الدنيا. لذا فعليه السلام أينما حلَّ وأذلَّ وله المن متى انطق واستنطق.

وسائل البصاص متعددة لدفع الخونة للكشف والاعتراف. التدرج سنة محمودة أمر بها المولى عزّ وجل وطبقها نبيه الكريم ولا يكون فى شىء إلا زانه ولا ينعدم من شىء إلا شانه. لذا فإنّه أمرٍ لازم فى صب العذاب على مَن يستحق من الأفاقين والحمقى وذيول الأعداء.

يبدأ البصاص استجوابه بالتحذير من الصمت أو الكذب ويُشهد المسئول كيف نال آخرين عذاب الهون بما كانوا يكذبون. طلة واحدة من كوة زنزانة على أى شخص نال عذابا مستحقا كفيلة بتهيئة النفس أن تستقيم وتطيع. سرد حكايات لصرعى لم يحتملوا العذاب وتم دفنهم أو ألقوا لسباع الصحارى يمنح الروح حافزها أن تمتثل وتُقر. إنّ انتظار العذاب يكون فى كثير من الأحوال دواء شافيا يدفع المرء أن يبوح بكل شىء كأنما يتحدث إلى نفسه.

للطبيعة البشرية شذوذها واستثناءاتها. يتصور البعض أن مصارع السابقين ليس إلا تهديداً ووعيداً. يحسب هؤلاء الحمقى أنهم آمنون أو سالمون ماداموا يُصرون على الانكار والكذب. هُنا تبدأ المهمة الصعبة وهى صب قليل من الوجع على نفوس هؤلاء حتى يفيئوا إلى الحق. التعليق من أعلى بواسطة سلاسل تقبض قبضاً على المنكبين وضع يصعب معه الصمود. إنّ تدفق الدم إلى الرأس يمسك الدماغ عن التحايل والمكر فيعجز المقلوب عن إيجاد حيل التهرب أو التضليل. لقد حصّلنا ذلك العلم فى زياراتنا لبلاد آل عُثمان وشهدنا كيف فقد البعض القدرة على الانكار فور تعليقهم ورؤوسهم تتدلى لأسفل. كثير من الفتن الكُبرى

أمكن وأدها بعد اعترافات تفصيلية أفضى بها مُعلقون من أرجلهم لليلة واحدة.

البصاص لا مُنتهى لعذابه. خلق الله البعض أشداء صابرين قادرين على العيش برأس ممتلئ بالدماء وأطراف خالية منها. يمكن لهؤلاء شد أطرافهم شداً بحبال من جدران الغرفة واشعال موقد من النار أسفل آليتيه. الشواء عن بُعد موجع لأن المُعلّق يشم تدريجياً رائحة شواء دبره. سيحمر جلده سريعاً وسيبدأ ينسل رويداً أمام ناظريه. وتلك الحيلة استنها الأمير قايد نار رحمه الله عندما امتنع بعض المُغرضين عن دفع العشور لأمراء البلاد، وقد شهدتها بنفسي مع إبراهيم باشا عندما كان يُحصّل إتاوات أهل الصعيد.

ماذا لو صمت المُستنطق وتحمّل كل هذا العذاب؟ يتصور البعض أنّ ذلك لن يكون، لكنه كائن في بعض الأحيان. هُناك أناس جُبلوا على الألم، ولدوا وتربوا على احتماله. لقد عرفت بعضهم وهم من عجائب خلق الله حتى لأنك تشعر أنهم يتلذذون بكل ضربة سوط أو جلسة عذاب. كان هؤلاء يبتسمون عند ضربهم بالسياط، ويصمتون عند تعليقهم من أرجلهم، ويتأوهون همساً عند حرقهم بالنار، لكنهم كانوا يتذللون ويعتذرون ويقبلّون الأرض عندما تُزرع في أدبارهم عيدان القصب. قليلٌ من الزيت يُرش رشاً على دُبر الصامد منهم، ثُم يُصب صبا على الدُبر ويُكسر عود القصب نصفين ويدق دقاً في المأفون الكافر.

مهما بكى أو استرحمك فلا ترحمه، فإنّ أولئك حق عليهم عذاب ربك بما كانوا يكفرون، وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.»

رحلته في وثيقته السرية فتحت له نوافذ جديدة استكملها له صديقه

العديد عبد الرحمن الجبرتى الذى يحكى له عن قايد نار ذلك الأمير الذى طغى وتجبر وكان يحرق مَن يتشكك فى ولائه لسادته حتى لقبوه بالأمير قايد نار.

أما إبراهيم باشا فقد كان حاكماً للصعيد وضج الناس بأفاعيله حتى وصف الجبرتى ذلك «بـ فعل التتار عندما جالوا بالأقطار». يلتقط كرم وهو يمتص دخان سجائره بتلذذ حكاية يرصدها المؤرخ فى عجائبه عن ذلك القائد المهيب الذى يحتل تمثاله الضخم ميدان الأوبرا تقول:

«وبلغنى والعهدة على الناقل أنه ربط الرجل ممدوداً على خشبة طويلة ومسك بطرفيها الرجال وجعلوا يقلبونه على النار المضرمة مثل الكباب، وليس ذلك ببعيد على شاب جاهل، سنه دون العشرين ولم ير غير ما هو فيه، ولم يؤدبه مؤدب ولا يعرف شريعة ولا مأمورات ولا منهيات. وسمعت أن قائلاً قال له: وحق من أعطاك، فقال له ومن الذى أعطانى؟ قال له: ربك. فقال إنه لم يعطنى شيئاً وأبى هو الذى أعطانى. فلهذا لم تبلغه دعوى ولم يتخلق إلا بالأخلاق التى دربه عليها والده، وهى تحصيل المال بأى وجه كان، فأنزل بأهل الصعيد الذل والهوان.»

تختنق روحه بتلك البشائع ويلتقط محموله ليتحدث إلى حسن السويسى ذلك الصديق المختفى منذ أيام دون عذر. يخبره حسن أنه مُنشغل بكتابة رواية وأنه لم يخرج من بيته منذ ثلاثة أيام. يتذكر أنها المرة العاشرة التى يسمع فيها أن صديقه منشغل بكتابة رواية ويبتسم لأنه لم يسمع ذلك الصديق يخبره يوماً أنه انتهى بالفعل من أيٍ من رواياته. هل قدرك أن تصاحب المجانين وتلتقى بالغرباء؟ أحمد هواش جارك الذى يعمل طبيباً ولا يعترف بأثر للمخدرات على جسده وعقله. وفاتن التى

تعمل مومساً لكنها تحترم الفن والذوق ولا تأخذ الا ما تعتقد أنه حقها. وتلك الصحفية الشابة التى تنقلب من البراءة للوقاحة، وتتكلم كملاك ثم تتعامل كامرأة مُتجبرة.

ندى حسين. فتاة جميلة. مرحة. أنيقة. مُثقفة. مُتحضرة. مُلفتة للبصر. كيف يخسرها بهذه السهولة؟ يُخجله أنه لم يكن رقيقاً بما يجب مع حديثها، ويؤلمه أنه تعجل التحرُش بها. هل لا يمكن أن تربطه علاقة محترمة بأى أنثى؟

ستدفعه حيرته أن يسأل جاره الدكتور أحمد هواش هل يُمكن له أن يخون زوجته. سيفاجئه الرد: مُستحيل. لمَ؟ لا طائل من الخيانة. كل النساء سواء، الفارق بين الجنس الشرعى وغير الشرعى هو أن هُناك حُضناً يضمك كآلة وآخر طافحاً بالحنان. إن العلاقة المُشتراة كريهة.

سيتحدثان لأول مرة مُنذ عرفه قبل ستة أشهر عن الحُب والحياة والعاطفة، وسيُدخنان كالعادة ثلاث سجائر محشوة بمستخرج النبات السحرى المعروف بالقنب، وسيدوران فى عوالم عدة ليعترف له الدكتور أحمد أنه لا يرغب فى إنجاب أبناء جدد يذوقون مُر الحياة، ويعترف كرم أنه يشعر بأن هُناك مَن يراقب كل تحركاته. سيضحكان بشدة وسيكتب كرم على ورقة بيضاء اسم ندى حسين.

# (١٢)

سموه جبلا رغم أنّ ارتفاعه لا يتجاوز ثلاثمائة متر. الجهل بالجغرافيا من شيم المصريين خاصة القاهريين الذين ولد بعضهم وعاشوا ورحلوا ولم يروا جبلاً حقيقياً أبدا. المُقطم. أصل التسمية غريب حيث يذكر ياقوت الحموى أنه سُمى كذلك نسبة إلى القطم أى القطع فهو مُنقطع النبات والشجر. ربما تجهل ندى حسين ذلك رغم أنها تقطن هُناك منذ كانت طفلة صغيرة لم تتفجر بعد أنوثتها. كان أبوها طبيب الأسنان الذى ظل نصف عمره يعمل فى مستشفيات وعيادات خاصة قد تمكن من افتتاح عيادة له فى ميدان النافورة أشهر مكان فى المقطم قبل عشر سنوات، وهام غراماً بنقاء الهواء وهدوء الشوارع ونجح فى إقناع زوجته وابنتيه رباب وندى بجمال العيش فوق الجبل.

راحة نفسية تتسرب لمن يتعرف على الهواء الطلق فى ليل المقطم الصيفى. على المقهى الرئيس المطل على الميدان الأشهر جلسوا يثرثرون كأصدقاء يعرفون بعضهم منذ عشر سنين. كانوا ثلاثة لا يشبه أحدهم الآخر لا فى

الملامح أو السلوك. حسن السويسى أكبرهم سناً وأبسطهم ثياباً وأقلهم كلاماً وأمامه نارجيلته التى تمنحه شعوراً بالعظمة، وعلى يمينه صديقه الناعس فى القرون الماضية والمستيقظ على الجمال الأنثوى والذى يناديه كثير من الناس زورا بلقب دكتور كرم، وإلى جواره فتاة بيضاء أنيقة الملابس يؤكد حُسن هندامها أنّ الجمال فضفاض. لقد عرّفت الفتاة نفسها للضيف المصاحب بندى حسين صحفية بالأهرام إبدو، بينما قدم لها الضيف نفسه بحسن السويسى أديب وروائى.

قبل ساعات من اللقاء ابتسم كرم مغتبطاً عندما تلقى اتصالاً من ندى تدعوه لجلسة عمل ونقاش موسع حول تاريخ التعذيب فى مصر. قالت له الفتاة الجريئة إنها تعد كتاباً عن صناعة الألم وتحاول تقديم رؤية واضحة لشخصية الجلاد، وهو ما آثار قرون الاستشعار لديه فعرض عليها جلسة يشاركهما فيها صديقه المهتم بذات الاهتمام حسن. لم يكن كرم يعرف يقينا إن كان عرضه يأتى رغبة فى الافتخار بجمالها أمام صديقه حسن أم استعداد حقيقى لمشاطرتها علمه ورؤاه حول وسائل الاستجواب فى الماضى.

دخان النارجيلة الطاغى يحوّم مستمتعا بحديث ثلاثتهم عن تلك السادية الساكنة فى أفراد مؤسسة الأمن. يبدو حسن أكثرهم وعياً بأن ميراثا من الوحشية والبداوة يدفع مؤسسات الأمن فى الدول العربية لاستخدام العنف للتحصل على المعلومات. تفكر ندى فى الأمر باعتباره رسالة موكولاً لها اتمامها فى مجتمع يعانى من البدائية والظلم، ويتصور كرم أن اتصال التعذيب فى المؤسسات الأمنية بذات الأساليب يعنى أن ما يستنبطه ويستنتجه من دراسات فى التاريخ مُراقب. حكى كرم لهم لأول مرة قصة الوثيقة التى

تسجل تفاصيل عمل البصاص فى دولة محمد على سارداً لهم حكايات متفرقة أوردها الجبرتى تؤكد أنّ رجال محمد على طوروا علم المباحث لدرجة استخدام ماء البصل والشفرات فى مكاتيبهم.

ـ معقول؟

علّقت ندى، فأردف كرم مُستفيضاً:

ـ أخطر من ذلك. لقد كان هُناك بصاصون يعملون فى خدمة الحكام دون أن يعلموا أنهم بصاصون. استخدم رجال العسس علم التنويم المغناطيسى مع بعض أصحاب المقاهى فصاروا يكتبون كل ما يسمعونه ويسلمونه لدراويش ومخابيل وهميين كانوا يمرون بالقرب منهم كل يوم. وكانت هناك مقاهٍ لخدمة العسس استخدمت أنواعاً غريبة من العقاقير التى تجعل الإنسان يبوح بكل ما لديه.

قفزت سيجارة من علبة كرتون صفراء لتحتضنها أصابع كرم ويغمسها بين شفتيه، بينما كان لسان ندى يُداعب شفتيها بعد رشفات من عصير البرتقال الطبيعى إلى تحرص عليه صيفاً وشتاء، قبل أن يُعلق حسن قائلاً:

ـ هذا الكلام لو كتبناه فى رواية لاعتبره النقاد خروجاً عن المنطق.

ابتسمت ندى سائلة:

ـ هل تكتب الرواية أستاذ حسن؟

ـ نعم.

ـ أنا أكتب شعراً.

تظاهر كرم باللامبالاة، لكنه شعر بقطرات من الغيرة لتلاقى صديقه وصديقته على ضفاف الإبداع. سأل بشغف مُصطنع إن كان يمكنها أن تسمعهما شيئاً، فانطلقت:

- عيناك ابتسمت فى خجلٍ ولدت وردة.

- الله.

هتف حسن فاستغرب كرم وقال:

- هل هذا شعر؟ ليس هذا ما تعلمته فى المدرسة.

فاجأه حسن:

- الشعر شعور يا كرم. جمال كلمات وصور، وليس مجرد قافية. ما علموه لك فى المدرسة مُجرد نظم أو كلام له جرس موسيقى.

- ربما.

أجاب محاولاً التراجع، داعياً صديقته إلى قول المزيد، فقالت:

- ولأن يدى تتحسس كفك، فالكونُ سعيدٌ وسعيدُ.

- الله.

قالها هو. الذى لا يعترف بالشعر ولا يحب الخيال ولم يطل يوماً على أبيات خارج مناهج دراسته. قرأ فى عينيها رومانسية غارقة ولمح على وجه صديقه ابتسامة تشجيع.

سألها فى تبسط:

- لماذا تريدين أن تكتبى كتاباً عن التعذيب؟

سحرته عيناها وهى تنظر له وتقول:

ـ فعل تحضر فى مواجهة القبح. فضح التعذيب هو المانع لآخرين أن يأخذوه منهجاً. التعرية يا كرم سلاح ناجح. لولا فضح العنصرية فى أمريكا ما حصل السود على نفس حقوق أقرانهم من ذوى البشرة البيضاء. كل جريمة سرية تخرج إلى العلن تموت للأبد.

ذكرته الكلمة بعادته فابتسم وكأنها فهمت فقالت:

ـ نسيت أن أقول لكما. أبى يُسلم عليكما.

ـ هل يعرف بكل ما تفعلين؟

سأل كرم بسذاجة فأومأت بنعم، ثُم قالت لهما:

ـ أنا أخبر والدى بكل ما أفعل. هو صديقى الأول، ولولا زبائنه لكان معنا الآن. ها. كيف ستساعدانى؟

سحب حسن نفساً عميقاً وطرده إلى أعلى وقال لها:

ـ سأمنحكِ شهادة حية لجلاد صديقى.

استغرب كرم، فواصل حسن:

ـ العميد عزت إسماعيل جارى فى السيدة وهو على المعاش، وقد حكى لى كثيراً عن الضرب والتعذيب فى أقسام البوليس، وبسهولة يمكن أن يحكى لك.

ـ وأنت يا كرم؟

سألت ندى. فسارع قائلاً:

ـ سأطلعكِ على سرى. سأصوّر لك وثيقة العسس فى عهد محمد على، فضلاً عن مراجع تاريخية حول التعذيب.

ـ متى؟

ـ غدا.. إن شئت .

ارتسمت السعادة على خديها وهطلت أمطار الرضا وزقزق الشعر بقلبها، فأصرّت على دفع الحساب، ثُم اتفقوا على اللقاء وغادر الصديقان جنباً إلى جنب. ابتعدت قليلاً فنظر كرم إلى حسن نظرة عتاب، عاجله بعدها بقوله:

ـ لم تقل لى يوماً أى شىء عن صديقك عميد الشرطة السابق الذى كان يضرب الناس.

ابتسم حسن قليلاً، وقال:

ـ وأنت لم تخبرنى يوماً بحكاية وثيقة العسس التى سرقها أبوك الله يرحمه.

ـ الله يرحمه.

واصلا العتاب والسباب حتى اختفيا عن عينين ساحرتين لفتاة ليست كباقى الفتيات.

# (١٣)

لم تخرج ندى صباح الحادى عشر من سبتمبر، لأنّها باتت ساهرة على هدية كرم سالم المظروفة والتى لم تكن سوى أكوام من الورق المتضمن صوراً ضوئية لتطور أساليب جهازالأمن منذ العهد المملوكى وحتى أواخر عهد محمد على باشا. التقيا مساء على قهوة زهرة البستان التى تحتل شارعين متعامدين يتفرع أحدهما من شارع هدى شعراوى بوسط المدينة وشربا معا سحلباً ساخناً وتحادثا بصوت أقرب إلى الهمس قبل أن يمنحها هدية طالما انتظرتها. السهر الطويل مع الأوراق جعلها تفضل النوم عن الذهاب لجريدتها المتفرنسة.

سحابات من كآبة غطتها وهى تقرأ عن الضغط على المتهمين للاعتراف أو الإدلاء بمعلومات من خلال تهديد ذويهم بالقتل أو الاغتصاب. كان المماليك يحضرون أبناء المستجوبين أمامهم فيضربونهم فيُقرون بكل شىء، ثُم تطور الامر بعد ذلك فصارت الشرطة تحضر أمهات المشتبه بهم وتعرينهُنَّ وتهتك أعراضهن فتتحطم إرادة المأسور ويقر بكل شىء. فى بعض الأحيان

كان العسس يلوطون بأبناء المشتبه بهم من الصبية دحراً لإرادة آبائهم. فى واقعة شهيرة استعانت شرطة الباشا بعبد أسود معروف بشذوذه لممارسة الفاحشة مع خصوم النظام جبراً أمام الناس حتى تتفتت كرامتهم، وشاء حظ المنتهك الخادم أن يؤمر برجل شجاع، عنيد، قوى البنية فيفلت من تحته ليسحب خنجراً من بين ملابسه المُلقاة إلى جواره ويحز ذكره فيضحك الجمهور الصامت رعباً، ثُم يقذف اللحم النتن فوق عمود الإنارة الزيتية فيتحمّر وصاحبه يصرخ ألماً وندماً.

قرأت ندى عن قحاب العسس اللاتى استخدمن للإيقاع بجواسيس أو رسل خصوم السياسة. كانت بعض البيوت والمواخير قد عرفت الدعارة مُبكراً تحت سمع وبصر رجال السلطة الذين كانوا يختارون نهايات ضحاياهم فى بعض تلك النُزل. وتسرد حكايات الجبرتى كيف افتتن بعض الفرسان والأمراء بجمال صاحبات تلك البيوت، فقادوهم نحو التهلُكة.

انتابتها حالة من القرف. هل هذا تاريخ مصر؟ قتلة وخونة وجلادون وقحاب؟ لابد أن كرم ذلك الكائن الغريب يبالغ فى رصده. ربما دفعته الكراهية البادية لمصر والتى لمحتها فى كلمات تهكمه هو وصديقه الصعلوك حسن السويسى إلى التقاط القُبح وحده. هكذا فكرت وهى فى حيرة من تناقضات عديدة تتقافز من عينيه. مهذّب لكنه يحاول أن يبدو كذئب بشرى على نهم دائم لالتهام أى خصر أنثوى. باسم لكن بحارٌ من الحزن تتلاطم فى مقلتيه. لبق لكنه يسرح شارداً عندما يستذكر حدثا طوته صحائف التاريخ. صريح لكنه يلف ويدور متى شعر بالريبة تجاه مَن هو أمامه. عليم بدقائق التاريخ حافظاً لوقائع بأكثر من رواية، لكنه محدود الثقافة خارج أى شىء يدرسُه ويُدرسّه.

حتى حياته غريبة للغاية. وحيد كمجذوم، رغم أنه اجتماعى ومحترف تعارف. يقطن فى شقة حقيرة بحى عابدين، لكنه يرتدى ملابس غالية ويستخدم عطراً أصلياً. يبدو معتدل المزاج موفور الصحة رغم أنّه يشرب كثيراً ويُدخن بشراهة.

رومانسى؟ سألت نفسها ولم تجب. هى تتشكك فيه كما علمتها والدتها أن تتشكك فى أى ذكر. بعد سفر زميلها الذى أحبته بجنون فى الجامعة شعرت كأنها كُرة ثلج تتدحرج من هضبة المقطم لتفقد كينونتها تدريجياً. لم تنقذها سوى الصحافة، تلك المهنة القاسية التى تُصقل خبرات الناس وتفتح نوافذ المعرفة الحياتية فتسهل قراءة البشر. تدربت على الصلابة والقوة كشجرة صنوبر تليدة فى مواجهة ريح مُعتادة. تعلمت أن تغزو عقول محاوريها وتستنطق بواطنهم. تدخُل إلى القلب عبر فتحتى العين لتقرأ أدمغة فنانين وأدباء وساسة وشخصيات عامة. اعتادت ندى أن تُفرق بين نظرات الافتراس، والإعجاب الحقيقى، لكنها مع كرم تبلغ ذروة الحيرة، لأنها ترى منه بعض النظرات مفترسة وقحة، والبعض الآخر ملأه الإجلال والاحترام والإعجاب.

كرم أمامه مستقبل واعد، لكن لو يُنهى رسالته المتأخرة، ويُقلل من التدخين، ويمتنع عن السُكر، ويُركز فى دراساته. استغرقت فى كومة الأوراق لتُدهشها بلاغة العبارات المكتوبة كنصائح لرجال العسس من شخص يبدو خبيراً مُخضرماً.

«للبصاص عيون فى كل مكان. فى المواخير، حيث ينسكب الكلام دون حسابات من أفواه تجار وفرسان ومستخدمين لهم نفوذهم. فى المساجد والأضرحة، حيث يعتاد العامة إطلاق شكاويهم وإرسال استغاثاتهم إلى

الله كل يوم. وعلى المقاهى حيث يتحادث الأعيان وطلاب العلم فى شئون الناس وأمورهم، وحتى داخل الأسواق، حيث البيع والشراء يفتح شهية المتحدثين عن أحوال البلاد والعباد.

للبصاص أصدقاء ومساعدون وعملاء من كل نوع ومن كل فئة. تُجار صُغار وكُبار، مجاذيب ومُدّعو جنون، مشعوذون وسحرة، حرفيون وأرباب صناعة، سقاؤون وزبالون، قوادون وموزعو نشوق، عُمال تراحيل وخدم حمامات، حُراس قُضاء وأمراء، شيوخ فقه، وطلاب علم. مَن يخدم البصاص يُخدم، ومَن يساعده يسعد. أما مَن يأبى أو يفر أو يخدع فجزاؤه معروف. حادث ليل يطعنه فيه لص مُحترف، أو وشاية غش تدفعه لعذاب المُحتسب، أو جُرسة نسوان تقطع أوصال عائلته وتنال من سمعتهم.

الكأس دوارة، ومَن يفر اليوم يقع غداً. وكل مَن يشق عصا الطاعة أو يُحدث ما يُفرّق الجماعة سيذوق وبالَ أمره..».

لم تكمل ندى قراءتها فقد سمعت أمها تستدعيها بعجل. تساءلت بقلق «ماذا يحُدث؟»

على شاشة التليفزيون طالعت ندى مشهداً غريباً لطائرة أصيبت بالهوس فاخترقت مبنى ضخماً فى مُنتصفه لتحوله إلى تلال من الأتربة والغبار. لا عقل يُصدق ما رأته ندى وأمها، صرخات فزع، ورجال ونساء يُهرولون، وبكاء حار، وأرواح تصعد إلى بارئها دون أن تعلم سببا لتلك الرحلة الفجائية. نيويورك تحترق. قال المُذيع وهو لا يعى ما يحدث.

اتصلت ندى برئيس التحرير الذى وجدته مذهولاً غاضباً لتغيبها، وأخبرها أنّ اجتماعا طارئاً سيضم كافة المحررين مساء لوضع خطة عمل

أكبر لأكبر حادث إرهابى تتعرض له الولايات المتحدة. «سيكون عراباً علينا جميعاً» تمتم رئيس التحرير وهى لا تدرى ما يعنى بالضبط، ونظرت إلى أمها فلمحت بعينيها نظرة تشفٍ وانتصار.

# (١٤)

يستعد الرائد نادرعبد العليم للعام الدراسى الجديد بثلاثة تقارير اعتيادية. مُذ نُقل من شرطة الكهرباء إلى جامعة القاهرة وهو يعرف دوره الحقيقى كرجل أمن مهمته حشد المعلومات وتحليلها وتقديمها للجهاز الأقوى بوزارة الداخلية والمسئول عن الأنشطة السياسية.

التقرير الأهم سيكون عن النشاط الدينى، فلول الجماعات الإسلامية فى الجامعات والتى ذابت وتشتت على مدى السنوات الأخيرة بفعل الضربات الأمنية الناجحة، وثانى التقارير عن أنشطة المُسيسين من خارج التيار الدينى خاصة مَن يُطلق عليهم اصطلاحا قوى اليسار. أما التقرير الثالث فتقرير عام عن الأساتذة والمعيدين والطلبة من أبناء الشخصيات العامة والمشاهير. هو يعلم جيداً أن مهمته كرجل أمن ليست مقصورة على حفظ سلامة الطلبة أو الحفاظ على سير الدراسة بقدر ما هى قراءة خريطة المظاهرات المستقبلية وجمع المعلومات التفصيلية لتقديمها لأمن الدولة.

على خلاف الصورة المُعتادة لضابط الشرطة يبدو نادر أكثر أناقة وتفهماً للتعامل مع مجتمع الجامعة وهو ما أهلّه لاكتساب ثقة وتقدير مرؤوسيه بامتياز، مما جعلهم يعتبرونه منتدباً من شرطة الكهرباء ليتمتع بنفس مزاياه المادية التى كان يحصل عليها هُناك. تلك المزايا التى تجعله قادراً على التنقل بسيارة «لانوس»، وتدخين سجائر «مارلبورو» وارتداء أحذية «كلارك» واستخدام عطور غالية الثمن.

فى مرآة سيارته يراجع نادر قبل الدخول إلى الجامعة تسريحة شعره المُسترسل، وشاربه المُهذّب، وحلّته الرسمية التى تُظهره كشاب متوهج قادر على لعب دور فتى أحلام فتيات الجامعة الحسناوات. ورغم تجاوزه الثلاثين بقليل لم يتزوج نادر ككثير من ضباط الشرطة الأكفاء المنشغلين بمهام عملهم.

وعلى غير المُعتاد يمكن إطلاق صفة «مُثقف» على نادر عبد العليم الذى يتجاوز اطلاعه حدود القانون وتقنيات الأمن إلى الأدب والتاريخ والسياسة، لذا فقد حرص الرجل أن يمد خيوطاً متينة مع أساتذة ومعيدين وطلبة منفتحين على الثقافة العامة والتاريخ بدءًا بالدكتور محمود مندور أستاذ التاريخ ذى الميول اليسارية وحتى الدكتور عفت عزام أستاذ التاريخ الليبرالى المنتمى للحزب الحاكم والصاعد بسرعة الصاروخ فى سماء السياسة.

التاريخ مرآة حقيقية للحاضر، ومنه يمكن قراءة مستقبل الشعوب والأمم خاصة فى الشرق الذى لا يتعلم كثيراً من دروس التاريخ. هكذا اقتنع نادر بما قاله له كرم سالم البرديسى فى أول لقاء تعارفا فيه مقتنعا برؤية الدكتور محمود مندور قبل أن تُغيبه جلطة مفاجئة عن طلبته ودروسه والتى تتلخص فى أنّ كرم يمتلك قدرات تحليلية مُذهلة فى علم التاريخ. لذلك

كُله كان على نادر أن يتشاور مع كرم باستفاضة عن تصوره لتحولات السياسة فى مصر بعد وقوع صدمة ١١ سبتمبر.

ما يعرفه نادر عن كرم بحر متلاطم من المعلومات التى تجعله يهتم به بشكل أكبر. عقل بارع، هادئ القسمات، غامض التعبيرات، لديه قدرة على كبح انفعالاته، براجماتى، يسبح فوق تلال من الأفكار والرؤى الواقعية الخاصة بالأمن قديماً وحديثاً. لا يحمل كرم أية توجهات سياسية بما يجعله يحكم على الامور بشكل متزن، خالٍ من الحسابات.

الدراسة على الأبواب. يمر نادر على كرم الذى يبدو مُنشغلاً بقراءة برنامج محاضرات قسم التاريخ للعام الجديد والتى لاحظ فيها خلو جدول المحاضرات لأول مرة من اسم أستاذه الدكتور محمود مندور.

ـ صباح السعادة دكتور كرم.

يُصافحه كصديق حميم تمتد صداقتهما سنوات.

ـ صباح النور نادر بك.

ـ اسمع خيراً عن رسالتك.

لا يخفى شيء فى هذا المجتمع المريض. لا أسرار ولا خبايا. يلاحقون كُل شيء. لا شاردة تمُر دون تسجيل، سيستدرجك بسذاجته المعهودة وسيُحادثك عن أخبارك وحياتك ونسائك ليدلف إلى ما يريد. باغته دون لف أو دوران.

ـ هذا العام سيكون صعباً.

برقت عينا نادر مُبدياً الاهتمام ليسمع شرح كرم برضا.

ـ ما جرى فى نيويورك فرصة لا تُعوّض للدولة المصرية. التيار الدينى مجرم، قاتل، إرهابى لا يمكنه أن يتعايش مع أحد، وفتح الأبواب له يعنى منحه حرية القتل والتدمير. الديمقراطية خطر عظيم على العالم كله لا على مصر وحدها، وأكبر دليل أنّ هؤلاء يقتلون الأطفال والنساء بسادية مُتجبرة فى بلد الحُريات والديمقراطية الأكبر. مَن نفّذ هجوم برجى التجارة؟ بن لادن؟ بالتأكيد هو وأتباعه ومعنى ذلك أنّ المعركة القادمة معركة مصير واحد بين مصر وأمريكا، مصير يقف بصلابة ضد الإرهاب باسم الدين. سيكون عليكم أن تعرفوا وتُفصّلوا وتُقدموا قراءتكم للمستقبل. كافة التنظيمات الدينية تنطلق من قاعدة واحدة هى رفض الآخر أياً كان والعمل على تدميره.

واصل كرم رؤيته:

ـ ما يحدث بعد ١١ سبتمبر يعنى أنّ الأمن مُقدّم على الحرية. الرقابة مُباحة الآن فى بلد كان يتغنى بالحريات الفردية إلى أبعد مدى. التجسس على الناس ليس ذنباً ما دامت الغاية حمايتهم وتحقيق أمنهم، وتجنب تكرار ما جرى فى نيويورك. ستضاءل قيم الحُرية والمشاركة السياسية لحساب قيمة الأمن.

هذا ما يريدك أن تقوله. عظيم. أن تمنحه صك الغفران عن تجاوزات تتورط فيها الشرطة المصرية مُنذ بدء الخليقة.

ابتسم نادر وأبدى اتفاقه فى الرأى. ودلف لمبتغاه ذاكراً أنّ كرم تربطه علاقات متميزة بالطلبة المُسيسين فى كلية الآداب.

ألق زهرك أيها الشرطى المُبتدئ. قُل ما تريد سريعا، فوقتى لا يحتمل أن أهدره معك.

ـ الجميع يحبونك ويعجبون بك حتى المتأسلمون. إننا نريد تعاوناً أوسع. أنت تعرف حسام الحفنى رائد أسرة المنار. هذا الولد مشروع ارهابى خطير. لا تُصدق ما يقوله عن نفسه بأنه شاب سلفى. إنّه يعبد سيد قطب، وأنت تعرف من هو سيد قطب. التكفير يا صديقى، الكراهية لكل شىء، الإقصاء بأعنف صوره. تمنى قتل الآخر. وحتى أمجد سامح الشاب الاشتراكى الذى كان يجلس معك كثيراً فى العام الماضى، هو الآخر عنصر خطير. إنّه يحلُم بثورة جياع تُفتت هذا الوطن باسم العدالة، وليس لديه مانع ـ مثل كثير من الاشتراكيين ـ أن يتحالف مع أعدائه من المتأسلمين لتحقيق غايته. كلاهما يحترمانك ويهتمان بالتحدث معك. كُل ما نريده أن تستنطقهما. كل معلومة مهمة، وكل كلمة لها مدلولها. لن يتحقق أمن هذا الوطن بدون معلومات تفصيلية، الوطن له حق عليك.

ابتسم كرم ابتسامة ساخرة عندما سمع كلمة «الوطن». أى وطن هذا الذى يُلقى بى فى حجرة حقيرة فى أقدم جامعة عربية تملأ جدرانها الشقوق؟ أى وطن ذلك الذى يتسيّد فيه عفت عزام وغريب صبحى ويتوارى محمود مندور مرضاً وعزلة؟ أى وطن ذلك الذى يشترى فيه المعلم نصحى ما يريد من عقارات ورجال ونفوذ وشهرة ويبقى هو عالم التاريخ بلا سيارة ولا زوجة ولا حياة هانئة قاطنا شقة ضيقة فى حى شعبى؟ أى وطن ذلك الذى تتاجر فيه فاتن بجسدها ومشاعرها وكرامتها لتجنى جنيهات فقيرة تسد بها حاجتها للطعام والثياب؟ أى وطن ذلك الذى يدور فيه أديب مثقف مثل حسن السويسى على دور النشر ليحصل على بضعة مئات من

الجنيهات نظير مراجعة نصوص يرفضها ويستصغر كاتبيها حتى لا يموت جوعاً؟ أى وطن ذلك الذى يتحول فيه طبيب قلب نابه مثل أحمد هواش إلى حشاش هرباً من واقع لا يرتضيه؟ أى وطن ذلك الذى لا تتمكن فيه صحفية شابة من نشر هموم حقيقية لمجتمع مريض فى صحيفة يومية فتفر إلى التاريخ والثقافة ومجاملة الأجانب؟ أى وطن ذلك الذى يزيد فيه عدد البصاصين والجلادين على عدد المفكرين والمبدعين والمثقفين؟ أى وطن ذلك الذى تستمر فيه صناعة الألم عملاً يومياً كالصلاة لكل مَن يعتقد أنه كبيرا والآخرين صغاراً؟

ـ أنا تحت أمر الوطن نادر بك، لكنى لست مخبراً.

أخرج نادر سيجارتين ناول إحداهما كرم، الذى كرر عبارته المعتادة بأنه لا يُغير سجائره ساحباً إحدى رفيقاته الميريت من علبة كرتونية ترقد على مكتبه، قبل أن يواصل:

ـ أنت تعلم أننى مُدرس مساعد تاريخ، أستطيع أن أناقش معك الثورة العرابية، وأحكى لك حكايات محمد على وأتحدث عن تاريخ التنظيمات الدينية، لكن لا يمكننى أن أكتب تقارير عن طلبة أو زملاء.

ارتسمت حالة من الغضب المُصطنع على وجه كرم قبل أن يضيف:

ـ أنا لست مُخبراً يا سيادة الرائد.

ـ العفو يا دكتور كرم. لم أقصد ذلك. أنت قيمة عظيمة وأنت تعلم أننى أحترمك بشدة. بل إننى أشيد بعقليتك وفكرك المستقبلى وأستفيد منك كثيراً فى عملى وحتى فى حياتى الطبيعية. أنت أخ عزيز يا كرم. وكل

ما أزيده هو أن تُحذرنى لو رأيت شيئاً له تأثير على أمن الجامعة التى يمكن أن تُفرخ مجرمين وقتلة يؤذون المجتمع.

صمتا قليلاً، ونفثا دخانهما عندما دخل غريب صبحى مُرحباً بنادر ومعانقاً، ثُم عانق كرم بمحبة مصطنعة، لينتقل الحديث عن رسالة الدكتوراة المرتقبة له.

ـ سأناقش السبت القادم.

قالها غريب.

باركا له وقام نادر مستئذناً وهو يقول لكرم:

ـ العُقبى لك. نصيحتى ألا تنتظر شفاء الدكتور أحمد مندور، وتبادر بطلب تغيير لجنة رسالتك يا دكتور كرم.

وانصرف، ولاحت على وجه كرم مسحة حزن، وتذكر موعداً مسائياً مع ندى، تلك الرقيقة التى قذف بها القدر أمامه بعد وحدة طالت.

# (١٥)

تبتسمين كما الملائكة، وتفتحين قلبك دون شيش، وتتحدثين كما لو كنا أصدقاء مُذ بدأت رحلتنا على الأرض. هكذا ودَّ كرم أن يقول لمحدثته التى اقتربت أكثر من عواطفه الناعسة لإثنى عشر عاماً هى عمر فراقه لأمه. عندما شُحبت واختطفها ملاك الموت مُبكرا شعر كرم أن قلبه سكب كل دمائه وصار كقطعة إسفنج جافة لا حراك فيها. الأم قالب السُكر الأول وحضن الحنان اللانهائى لا تعوضها امرأة ولا يحل محلها كائن، خاصة لو كانت مثل أم كرم، تلك المُظللة على أبنائها من شر برد أو حسد، الدافقة بالحنان، الطائعة كنموذج نادر لزوج غير ميسور، وابنين آنفين.

تعلو غمازتان صاحيتان فى وجه حليبى رائق تحمله فتاة جريئة مُقبلة على الحياة تعمل بالصحافة. تحكى ندى لكرم عن صدمة أبيها يوم تفجير برجى التجارة بنيويورك، وكيف كان متشائما من رد الفعل العالمى تجاه المسلمين المتهمين بالإرهاب، على خلاف رد فعل أمها المُتشفى فى بلد

تجبّر وتسلّط على العالم كإله. تتوافق أم ندى مع ميولها السياسية عندما كانت يوماً طالبة بكلية الهندسة ومنخرطة فى حركة الشباب اليسارى خلال عهد السادات، بينما ينظر والدها غير المُسيس إلى الأمور بنظرة براجماتية مُقدراً حسابات الربح والخسارة، مُبدياً فى الوقت ذاته تعاطفاً انسانياً باعتباره طبيباً مع أبرياء لقوا حتفهم دون ذنب. تُبدى الأم المفتونة بجيفارا أسفها اللفظى على أرواح الضحايا، لكنها تُكرر منطق الجُناة بأنّ الأمريكيين يدفعون ضريبة سياساتهم فى المنطقة. رباب شقيقتها الكبرى لا تهتم بتاتاً بما جرى وتنشغل دائماً بتدريس اللغة الفرنسية لطلاب مدارس الراهبات بعد أن تركت العمل الوظيفى كمُدرسة فى مدرسة تجريبية.

تقول ندى إنها تربت على مناقشات عديدة يبدو فيها الخلاف فى الرأى عنصراً حاكماً فى علاقة والديها، لكنه خلاف جميل منحها حرية التفكير دون قيود، واختيار ما تراه صائباً ومناسباً. هى تشعُر أنها تمتلك أجمل والدين وأطيب أخت، وأفضل عائلة.

سألها كرم فى إعجاب وهو يشعل إحدى حبيباته «الميريت»:

ـ وأنت؟

ـ أنا أقرب لرأى والدى. لا أتصور أن نكون هُنا فى هذا المكان الجميل بالمقطم ونتحادث بهدوء وينفجر بنا المكان دون سبب سوى أنّ حكامنا انتهجوا سياسة ما ظالمة تجاه أمة أخرى.

«مُنتهى الموضوعية». علّق كرم فى سره وهو يشعر أنّ الدنيا تبدو أجمل عندما يرى ذلك الوجه الرقيق. يسألها عن أوراق العسس وخلاصة

أبحاثه فى منهج العنف الشرطى وكتابها الذى تحلم أن تكتبه فتقول:

ـ هؤلاء ليسوا بشراً. كيف يتأتى لإنسان أن يُحدث تلك المهانة بإنسان آخر لأى سبب فى الوجود. أنت لا تحب الشعر، لكن هناك أبيات لصلاح جاهين تُترجم هذا المعنى بوضوح يقول فيها «أنا كل يوم اسمع عن فلان عذبوه/ أسرح فى بغداد والجزاير وأتوه/ ما اعجبش م اللى يطيق بجسمه العذاب/ وأعجب من اللى يطيق يعذّب أخوه».

ـ جميل جدا. هو سؤال فى محلّه كيف يطيق هؤلاء تعذيب البشر؟

ـ مازالت جينات الإذلال والسادية تجرى فى دمائنا.

ـ تقصدين أهل الشرق؟

ـ نعم.

ـ لا أتصور أنّ الموضوع له علاقة بالشرق أو الغرب، هُناك فظائع عديدة تُرتكب فى دول الغرب المتمدن ولا نعرف عنها شيئاً، ولاتنسى ما فعله البيض تجاه السود فى أمريكا قبل خمسين عاماً. ولا تتصورى أنهم لن يكرروا ذلك وهم يفتشون عن منفذى ١١ سبتمبر. الغاية تبرر الوسيلة، ومتى كان الأمن غاية فلا حرية ولا احترام لحقوق الإنسان.

ـ كلامك منطقى يا كرم، لكن فى المجتمعات الغربية ربما يحدث ذلك سراً، وهناك منظمات مدنية تُشّهر بالجلادين وتلاحقهم.

ـ هل التقيت صديق حسن السويسى؟

ـ ضابط الشرطة السابق؟ نعم. قال لى تبريرات مُعتادة من عينة أنت لا تعرفين مع مَن كُنا نتعامل. مجرمين، شر البشر، حيوانات تتكلم.

قُلت له إنّ هذا لا يُبرر التعذيب والتعليق والصعق، لكنه أقسم أننى لو قضيت يوماً واحداً مكانه لفعلت ما هو أعنف. حكى لى عن الحياة فى العشوائيات حيث يغتصب مدمنون أطفالا تحت تأثير المُخدرات، ويضرب شباب ضائع آباءهم وأمهاتهم بحثاً عن نقود، ويزنى البعض بشقيقاتهم طلباً للمتعة، ولا يتورعون عن قتل آخرين لأسباب تافهة. سألته عن تعذيب خصوم السياسة فقال لى: إنّ المجرمين سواسية، بل إنّهم فى السياسة أخطر لأنهم يقودون البلد كله نحو الدمار. وعندما سألته إن كان نادما على شىء، فقال دون اكتراث أنه غير نادم ولو عاد به الزمن لما احترم حقوق مجرم.

ـ دائما لكل جانٍ فلسفته.

امتدت أصابع كرم لتُشعل سيجارة ثانية فأمسكت ندى بها هاتفة:

ـ كفى. أنت تدُخن بشراهة.

ابتسم قائلا:

ـ ألم تقولى لى من قبل أنت حُر فى رئتك.

جاوبته بابتسمة، ونعست فى عينيه العسليتين قبل أن تسأله:

ـ قُل لى. مَن أنت؟

ـ أنا كرم سالم البرديسى.

ـ يعنى مَن؟

شُعر بدفء راحتها على كفه، فابتسم قائلاً:

ـ أنا مَن ضيّع فى الأوهام عمره.

حكى لها كرم حكاية مُعلمه الأول سالم البرديسى، وأمه التى فُجع بها، وهو فى أولى سنواته بالجامعة، وعشقه للتاريخ مُذ بدأ القراءة، وصداقته الأبدية مع عبد الرحمن الجبرتى، والتى جعلته يشترى من أحد فنانى الإسكندرية بروازاً يحمل رسماً تخيلياً له. قال لها إنّه ممتعض من الجامعة التى عُين بها صُدفة لأنه الأول وكان أحد أبناء أساتذته الثانى ورغبوا فى تعيينه مُعيدا فكان لابد أن يعينوا الأول معه. أخبرها بوحدته القاسية بعد زواج شقيقته الكُبرى التى لا يراها سوى مُكتئبة بسبب العقم الذى ابتليت به، فصار لا يزورها إلا فى الأعياد. ذكر لها جانباً من حياته الخاصة، حيث اعتاد السُكر هرباً وعرف النساء جسداً دون روح. اعترف لها أنّه لا يحتمل العيش أكثر بهذه الوتيرة المملة اللاموصلة إلى شىء، وأنّه عازم على الهجرة بعد أن يحصل على الدكتوراة التى لابد من تقديم تنازلات من أجلها.

ابتسمت ندى فى ثقة وتمتمت:

ـ كرم. الحياة فعل مقاومة.

حكت له ما كان من فرار حُب حياتها إلى أوروبا طلباً لحياة أفضل وأجمل بعد أن منحته حُباً صادقاً. قالت له إنّها استعادت صلابتها وصنعت حلمها. أن تكتب شعراً يُغيّر الناس، وترفض القُبح. أى قُبح.

فى الليلة ذاتها سيحكى كرم لصديقه الجبرتى ما قالته ندى. «الحياة فعل مقاومة. أنت قاومت وعاشت أسفارك وحكاياتك عن قبائح ولاة الأمور قرنين من الزمن. أين مراد بك وإبراهيم بك وشاهين بك وقايد

نار والكتخدا ومحمد على باشا نفسه؟ أين التاجر الشره خليل البكرى، وأين القتلة والمأجورون؟ ما أعظمك يا عبد الرحمن. ما أعظمك». ونام لأول مرة منذ سنوات دون «ستلا».

# (١٦)

يُصلى كرم عندما يغرق فى التاريخ. يتطهر، يشعر بالنقاء التام. الطمأنينة، المُتعة، والتحقق. مادة تاريخ مصر الحديث التى يُلقى فيها محاضرات لطلبة القسم بالسنة الأولى بكلية الآداب تُجدد خلايا دماغه المشتعلة دائما بشخصيات عجيبة، مُدهشة، لعبت أدواراً فى أحداث عظيمة. كُل شخصية رسمت أحداثاً جرّت أناساً نحو التهلُكة ورفعت آخرين فوق القمم. ما حدث كان ينبغى أن يحدُث، ومالم يحدث هو المُستحيل حدوثه، فكما حفظ كرم عن الفيلسوف هيجل «فلو كان شيئا من الممكن أن يحدُث لكان حدث.»

سأل كرم المجموعة «ج» التى كُلف بإلقاء المُحاضرات على طلبتها السؤال الفاتح فى التاريخ الحديث طالبا من كُل طالب اجتهاده وتصوره طبقاً لتحليلات المؤرخين. لماذا اختار المصريون محمد على باشا وهو أجنبى ليكون حاكماً عليهم، بعد أن خلعوا فى عام ١٨٠٥ الوالى العثمانى خورشيد باشا بالقوة؟ لِمَ لم يسع المصريون لتعيين حاكم من بينهم؟

هذا السؤال سأله كرم قبل أكثر من عقد إلى والده الموظف بدار المحفوظات، وتلقى صدمة من والده لم ينتظر سماعها. قال له الرجل المُخضرم إنّ المصريين يكرهون الظُلم ويعتبرونه مُرادفاً للكُفر، لذا فإنهم يتجنبون تجربة الحُكم بقدر الإمكان هرباً من مصير الفرعون. إنّهم يرحبون بتولى أى راغب فى الحُكم فراراً منهم من الظُلم المُقدر سلفا على أى حاكم لهذا البلد الذى لا يُقام بالعدل ولا يُحكم بالرضا. مَن يملك هذه الأرض يجب أن يطغى، ومَن لا يفعل يخسر عرشه، بل ويُذل ويُهان.

كان سالم البرديسى يؤمن أنّ الفساد والظُلم قرينان لحُكم مصر، قد يزيد أحدهما أو يقل عن الآخر، لكنهما لا يغيبان عن أى نظام حاكم، ولأنّ المصريين أقرب للتدين وأدنى للتسامح فإنهم يبتعدون ما أمكنهم عن تولى المسئولية.

رُبما كان ذلك الكلام صحيحاً فى عهد محمد على، لكن ما بالهم تقاتلوا على الحُكم بعد سقوط أسرة محمد على. فكر كرم فى رأى والده، الذى وجد له مؤيدين بين مُحللى التاريخ، لكنه كان يرى أن السؤال يبقى سؤالاً محورياً فى التاريخ الحديث لبلد كمصر، وتبقى اجاباته المُتعددة دليلاً على أن ذلك العلم هو علم نسبى تماماً.

استجاب كرم لفكرة النفاق الاجتماعى الذى نصحه بها الرائد نادرعبد العليم ومرعلى الدكتور عفت عزام فى مكتبه مُبدياً إعجاباً وهمياً بكتابه الأخير عن العلاقات المصرية الأمريكية قبل ١٩٥٢

ـ مُذهل.

علق صاحب العينين العسليتين والوجه الغامض موجهاً نظرات ماكرة

إلى صلعة حمراء ترتكز على جسد ممتلىء يتكورعلى مقعد دوار يتمرجح به يميناً ويساراً. ابتسم مُتلقى الإطراء ماداً يُمناه للافتة مكتبية من الخشب الأرو الناعم منقوش عليها اسم الدكتورعفت عزام وصفته: رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب ليُقيم اعوجاجها بترفع ظاهر.

بادره الدُكتور عفت:

ـ ما أخبار الطلبة الجُدد؟

ـ مثل كُل عام، بعضهم مُندهش، وبعضهم كاره.

مرر الدكتور عفت أصابعه على ذقنه مختبراً نعومة الحلاقة وسأل كرم بسخرية:

ـ صدمتهم كالعادة؟ هل سألت سؤالك الأزلى؟

هزّ كرم رأسه مُبدياً الإيجاب، وشرح تصوره بأنّ هؤلاء الطلبة فى حاجة لسؤال يُثير تفكيرهم ويجذبهم للتاريخ، لكن أستاذه قاطعه فى حدة:

ـ خطأ. هؤلاء ليسوا فى أوروبا أو امريكا ليُفكروا ويُقرر كُل منهم أمرا. كان من المُمكن أن تُشير عليهم ليقرأوا كتابى عن دولة الباشا ليعرفوا أنّ المصريين كانوا يعتبرون أنفسهم غير جديرين بتولى الحُكم وقتها.

لا تُجادله. اصمت. هز رأسك اتفاقاً. نافقه ولو لمرة. هل تتصور أنّه أهل للحوار أو تبادل الرأى؟ اعترف له بخطأك وصُن وضعك حتى تستخلص من أولاد الأفاعى رسالة الدكتوراة. لو كان الدكتور مندور

مُعاق، لو كان واقفاً على قدميه مثلما كان فى العام الماضى، لصار من حقك أن تَرُد وأن تُجادل.

وافق كرم قرينه الشيطانى والتحفَ بالصمت واستأذن عائداً إلى حجرته الحقيرة مع الكائن الموغل فى السخافة غريب صبحى. ذلك الذى سيناقش خلال أيام رسالته للدكتوراة أمام عفت عزام. يالها من مأساة. يالها من فضيحة.

خطواته نحو حُجرته اثاقلت مع هُتاف صاخب لمُظاهرة مارة لمح على رأسهاالطالب اليسارى أمجد سامح. علا الهُتاف وتكرر حتى أطلت رؤوس عديدة من الطابق الثانى لتُشاهد مشهد الطلبة يحتشدون ويحملون شاباً يُكرر بصوت هادر وهم من خلفه عبارة: «يا رئيس الجمهورية: شُفنا فى عهدك العبودية» كأنها نشيد صباحى.

# (١٧)

أمجد سامح طويل كنخلة، أسمر كالنيل مساء، على خديه وتحت أنفه يتناثر شعر خفيف كنجيلة خضراء قُصت بمساواة دقيقة، بينما يتدلى شعر رأسه مُسترسلاً إلى الخلف مثل حقل قمح. صرامة وجهه تُدلل على قلب شُجاع لا يهتز كثيراً. بريق عينيه طاغٍ ونافذ لدرجة يصعب معها عدم التأثير فى أقرانه عندما يبدأون معه حديثا. يحتضن أمجد صديقه كرم عندما يلمحه ماراً أمام قبة الجامعة الضخمة المُغطاة بالنحاس والتى يزيد قُطرها عن ٤٥ متراً. إنّ كثيرين لا يعلمون ما يحفظه كرم تماما بأن هذه القُبة بُنيت خلال ثلاث سنوات انتهت عام ١٩٣٦. لقد وضعت شركة «كوجاتين» البريطانية تصميم القُبة، لكن مُهندسيها فشلوا فى تنفيذها، وقام أساتذة الهندسة المصريون بتنفيذ التصميم باقتدار أذهل جميع مَن شاهدها فى ذلك الوقت.

ـ دكتور كرم.

سكنت المُظاهرة منذ دقائق بعد أن دارت دورتين حول مبنى الجامعة الرئيس. بدا أمجد مُغتبطاً بعودته للدراسة ليستأنف نشاطه السياسى فى التظاهر وتنظيم معارض رافضة للفساد والاستبداد. يضع يده على كتف كرم وكأنه صديق قديم ليقول:

ـ كُنت سأتصل بك بعد ١١ سبتمبر لأعرف رأيك، لكنى فضلت أن أنتظر الدراسة وقُلت سأراك حتما. حادث غريب لكنه نتيجة طبيعية للصلف والغطرسة والظلم الإنسانى. أنا أعرف أن هذا قد يختلف عن رأيك، لكن لا أستطيع أن أتعاطف مع الامريكيين ولديهم نظام سياسى يساند ويدعم أنظمتنا المستبدة.

ابتسم كرم، وتذكر أنه كان خاضعاً خانعاً أمام رئيس القسم قبل دقائق وأنّ الفرصة واتته ليُعبّر عن رأيه بصراحة، فقال لأمجد:

ـ اهدأ ولا تتسرع. المباراة لم تبدأ بعد. لكن بشكل مُسبق أستطيع أن أقول لك إن النتيجة ثلاثة صفر. نحن المهزومون يا أمجد. وسأُذّكرك.

ـ ماذا تقصد؟ هل تقصد أنه مُدبر من الأمريكيين أنفسهم؟

ـ لم أقُل ذلك، لكنهم سيستفيدون منه أكثر مما تتخيل.

ـ مُشكلتك يا دكتور رغم تحليلاتك الصائبة فيما مضى أنك مُنبهر بشدة بالغرب وكأنهم بشرغير البشر. هل تتذكر مقولة ابن خلدون بأنّ «المغلوب مولع بتقليد غالبه»؟ إننى أراك مأسورا بهذا الشعور لذا تراهم دائما عباقرة وترانا مُتخلفين.

بابتسامة اعتاد عليها مع مَن لا يعتقد أنّ بإمكانه اقناعهم بما يرى أجاب كرم، وابتعد عن المجادلة سائلاً:

ـ لماذا تتظاهرون؟

استغرب أمجد سامح وقال له:

ـ ألم تسمع هتافاتنا؟ لقد قبضوا على زملاء لنا عديدين بتهمة الانتماء لتنظيمات إرهابية. أنت تعرف حسام الحفنى فى الفرقة الرابعة؟

هزّ كرم رأسه بالإيجاب، مُتذكرا رؤيته له مراراً خلال فترة الإجازة الصيفية بمكتبة الكلية، فأكمل أمجد:

ـ حسام رائد أسرة المنار مُعتقل ووالده وإخوته لا يعرفون عنه شيئاً مُنذ عشرة أيام، ومثله العشرات فى كليات أخرى. هكذا يُرضون أمريكا.

مطَّ كرم شفتيه مُبدياً الاشمئزاز لكنه تساءل:

ـ وهل تتصور أنكم تضغطون على الجامعة فتُصدر أوامرها إلى وزارة الداخلية لتفرج عنه أو عن غيره. إنّ رئيس الجامعة نفسه لا يعرف أين هو حسام أو غيره من الطلبة.

ـ نعي ذلك تماماً. نحنُ نتظاهر لنُعلن الخبر فيعرفه الطلبة، ويعرفه الناس، وتعرفه وكالات الأنباء الأجنبية، ويمثل احراجاً للنظام.

ضحك كرم بصوت عالٍ قبل أن يسأل:

ـ أمام مَن؟

أجابه أمجد وهو يُربع ساعديه أمامه:

ـ أمام نفسه وأمام شعبه.

ـ أشُك يا أمجد.

يبتسم الواقف أمام كرم شاعراً بالانتصار الحوارى، قبل أن يُباغت بسؤال غريب:

- وهل تعتقد لو كان مكانكم الإسلاميون الآن وأنتم المعتقلون. هل كانوا سيتظاهرون للإفراج عنكم؟

سؤالك قاسٍ. ضربة موفقة. تنتصر بالحُجة، لكن الشاب المُشاغب يرد:

- بالطبع لن يفعلوا. لكن لا يهمنى أن يفعلوا.

جنباً إلى جنب سارا طويلين تتقارب سنهما، أحدهما يرتدى حُلة داكنة مفتوحة الأزرار على قميص أبيض تتوسطه كرافتة سميكة كُحلية اللون تتخللها زركشات سماوية، بينما يلبس الآخر بنطال جينز أسود وقميصاً رمادياً له أكمام، حرص مُرتديه على تشميرها كأنه مُقبل على معركة. حولهما شباب يمشى بخطى واثقة وآخرون حيرى تستكشف نظراتهم أبنية وأرضيات ووجوهاً متنوعة.

الجينز هو الزى الرسمى لأهل الجامعة عدا الأساتذة. والحجاب يسود بين الفتيات اللائى تحرص كثيرات منهن على سحبه حتى منتصف الرأس مُتباهيات بشعر ناعم فتان.

أمجد سامح وكرم البرديسى صديقان مُذ التقيا قبل سبع سنوات وتعارفا، عندما كان أمجد مُترددا إن كان سيستفيد من دراسة التاريخ أم لا، وسأل المُعيد ذا الوجه البشوش عن رأيه فقال له «مَن يحفظ تاريخ هذا الوطن، يستطيع أن يحكمه». كانت وجهة نظر كرم أنّ كثيراً من حوادث التاريخ تتكرر وتتشابه لكن بأسماء أخرى، وهو ما اقتنع به أمجد رويداً.

رسب أمجد متعمداً وهو فى الفرقة الثالثة، ثم كرر رسوبه مرتين فى

السنة النهائية حتى يستمر راعيا لنشاط النادى الذى أنشأه تحت اسم «الفكر الاشتراكى». لقد كان يعتقد أنه لم يُنظم بعد اسلوب قيادة النادى عقب خروجه، وأن عليه البقاء سنة أخرى ليطمئن على حيوية تنظيمه وقدرته على الاستمرار.

سبب آخر كان وراء رسوب أحمد المُتعمد، وهو حبه الذى يتحاكى به الطلبة للفتاة الأرستقراطية غادة سالم، تلك التى آمنت بحتمية الثورة الاشتراكية رغم ثراء والدها رجل الأعمال الشهير. لم تتخرج غادة بعد، لذا فإنّ قضاء سنة أخرى إلى جوارها سيكون مُنعشاً للقلب، مُحفّزاً على العطاء.

سأل أمجد صديقه الذى يحترم دماغه رغم اختلافهما:

ـ هل قرأت كتاب الدكتور عفت عزام الأخير؟

هز كرم رأسه نافياً.

فأردف أحمد:

ـ صورة بالكربون من كتاب هيرالد لورانس عن الاحتلال البريطانى لمصر، لكن حتى تلك الصورة ركيكة جداً.

ـ اصمت.

ـ لا حسابات لدىّ، لست موظفاً تحت رئاسته مثلك. فليفعل ما يشاء. سأفضحه فى ندوة معرض الكتاب عن السرقات الأدبية. حاول أن تحضر يوم ٢٣ الشهر القادم.

ـ إن شاء الله.

وغادر مبتسماً بينما ظل أمجد سامح داخل حرم الجامعة ينتظر حبيبته ليجلسا سوياً فى الكافيتيريا يتشاركان الرأى والحكايات وكلمات الحب.

# (١٨)

عبثت أصابع كرم بأزرار كائن صلب أسود مكتوب عليه كلمة «ericsson» يلبس جراباً من الجلد الصناعى، ورفع ذلك الكائن على أذُنه ليسمع رنات طالت قليلا ثُم أتاه الصوت المنتظر هادئاً كما عرفه.

ـ ماذا تفعلين؟

سألها كرم، تلك التى غابت عنه عدة أيام، فأجابت:

ـ أكتب عرضاً لكتاب صدر بالفرنسية عن عائلة جنرال مغربى غضب عليه الملك يوماً فقتله ثُم سجن أبناءه عشرين عاماً.

ـ قصة غريبة. تستلزم الحكى. متى نلتقى؟

قالت ندى:

ـ خلال نصف ساعة لو يُناسبك.

ـ يناسبنى. اتفقنا.

ـ أين أنت الآن؟

فى الحُب وحيدا حيث لا أهل لك. شقتك الكئيبة لا تصلح لاستقبال أحد. وندى ليست كأحد.

ـ فى البيت.

ردّ مستغرباً، لكنها فاجأته بأنها ستأتى، أنه قريب من الشُغل. هكذا قالت له، ثُمَّ أخذت العنوان لتؤكد وصفا سابقا وصفه له عندما سألته عن منزله، وأنهت المكالمة ليزغرد قلبه فرحاً. هُنيهة، وتذكر البواب الثقيل الذى يتلصص على الداخل والخارج، وينسج حكايات وقصصاً عن كل ساكن. قام مُسرعاً ليُرتب أثاثاً بسيطاً لا يدُل على حياة، وينفض أتربة فوق مائدة خشبية تتوسط الصالة، ثُم يمسح براويزه المُعلقة ويسأل صاحب البرواز الثالث إن كان أحبَّ.

ـ هل جربت الهوى يا عبد الرحمن؟ هل جربت أن يحتجز أحد قلبك فلا تحب سوى ما يريدك أن تحب وتكره ما يدفعك أن تكره؟

سمع لسانه يُردد التساؤل بصوت مسموع فانتبه.

مثلها لم تره من قبل. نقاء أبيض، ممتزج بذكاء لماع، وروح مرحة، وجمال هادئ، واندفاع مُغرٍ، وثقة عالية. ندى حسين صحافية أم قطعة سُكر، انزلقت فى مرارة فنجانك اليومى لتجعله أطيب وألذ؟ فتاة عصرية تُتقن الفضول المعرفى وتحترف الدهشة أم نموذج مُذهل لمناضلة ضد القبح؟

إلى الجحيم يا صالح. ليس لك أن تسألها لَمن تصعد، وليس لك أن ترمقها بطرف عين. لكن ما تصنع لو أحرجها بكلام أو ضايقها بوقاحته

المُعتادة؟ وماذا لو استوقفتها زوجته الأكثر غلظة والأشد ازعاجا؟ إنها ليست كفاتن التى تعرف تماما كيف تتصرف مع هؤلاء.

فكر قليلاً وتذكر جاره النبيل. الدكتور أحمد هواش، فزوجته فى البيت لم تبدأ نوبتجيتها بعد.

الحل من السماء. فتح الباب وطرق الشقة المواجهة، ففتح الدكتور أحمد مُندهشاً قبل أن يقول:

ـ أهلاً يا كرم.

ثُم خفض صوته قليلاً وهو يضيف:

ـ المدام هُنا.

ـ أعرف.

قال كرم ثُم سحبه إلى الخارج ليفهمه أن صديقة زائرة ستأتى ولا يريدها أن تحتك بعم صالح وزوجته.

ـ زائرة؟

سأل أحمد ممتعضاً، فشرح له كرم أنها صحفية مُثقفة تُجرى بعض الدراسات التاريخية وأنها ترغب فى زيارته وأنها ليست كما قد يظُن.

ـ مفهوم مفهوم. ثوانى.

غاب جاره دقائق تاركاً الباب مواربا، ثُم عاد إليه ليخبره بموافقة زوجته أن تستقبلها وطلب منه أن يتصل بها ليخبرها أن تقول للبواب إنها صاعدة للدكتورة نُهى، التى أطلت تُحييه فى إسدال كُحلى يُخفى قدها.

قالت الدكتورة نهى له مُبتسمة:

ـ الجيران لبعضها يا دكتور.

شقة الجيران بسيطة، لكنها أكثر نظافة من شقة كرم الموغلة فى الكآبة. يعيد الاتصال بزائرته التى تُخبره أنها وصلت باب اللوق، يُخبرها بما عليها أن تقول وهى صاعدة للطابق الثانى. تضحك ساخرة وتقول:

ـ لا عليك لن أفضحك.

كأصدقاء التقوا. بدت ندى أجمل كثيراً مما ظن أحمد، وأكثر حشمة مما تخيلت زوجته. مُبتسمة دائما وهادئة وأنيقة. شربوا شاياً ساخناً أعدته نُهى التى بدت مُتفهمة نظرات كرم الواهة نحو ندى، والتى حدثتهم بقلب مفتوح عن الصحافة، واللغة الفرنسية، والشعر، والثقافة، والبلد كله، واستمعت منهم لشكاوى مُعتادة عن سوء أحوال الأطباء وقلة دخولهم واضطرارهم للعمل طوال اليوم لتلبية احتياجاتهم.

دقائق مرت وكرم صامت وعلى وجه ابتسامة رضا، يُفكر فى ندى بشكل مُختلف. إنّه يحبها ويرى فيها مستقبل أسرة هادئة، قادرة على معانقة طموحات التحقق والصعود فى مجتمع لا ينظر إلى الضعفاء والناعسين.

حكت ندى عن الكتاب الذى قرأته وكتبت عنه review لجريدتها ويحكى قصة عائلة محمد أوفقير وزير الدفاع والداخلية المغربى خلال السنوات الأولى من السبعينيات. كان أوفقير كُل شىء بالنسبة لملك المغرب، مستشاره، ومُخبره، وحاميه، وأداة بطشه، وقاتله السرى. وفى كل يوم كان يزداد أوفقير قرباً من سيده حتى أنّه ولاه عدة مسئوليات مجتمعة، كان من بينها القيادة العامة للجيش.

ومضى أوفقير يرفل فى النعيم هو وعائلته المكونة من زوجة وثلاث بنات وولدين حتى جرت محاولة انقلاب فاشلة، حيث أطلق الطيران الملكى نيرانه على طائرة الملك قبل أن تحُط فى المطار والنيران تشتعل فيها. تم اتهام أوفقير بمحاولة اغتيال الملك، لأن أى طائرة لا يمكنها أن تُقلع دون إذنه، واستدعى إلى القصر الملكى بحلته العسكرية، فذهب حاملاً كافة نياشينه العسكرية، وصدر بعدها بيان من القصر يفيد انتحاره بخمس رصاصات إحداها فى كبده وأخرى فى ظهره، ثُم تم التحفظ على الزوجة والأبناء الذى كان أصغرهم عمره شهور قليلة وتم اقتيادهم بعد ذلك إلى سجن فى الصحراء ظلوا فيه جميعاً ثمانية عشر عاما. وعلى مدى سنوات ظل السُجناء الستة يُخططون للهرب حتى نجحوا فى حفر نفق يُخرجهم خارج المُعسكر الذين سجنوا فيه، ثُم وصلوا لوكالات أنباء عالمية أذاعت قصتهم فقرر الملك الإفراج عنهم بعد ذلك.

استغرب كرم الحكاية فسأل:

- ومَن الذى كتب هذا الكتاب؟

ابتسمت ندى تقديراً لاهتمام الجالسين بحكايتها وقالت:

- كاتبة تونسية تكتب بالفرنسية اسمها ميشيل فيتوسى. استمعت ميشيل إلى القصة من مليكة ابنة الجنرال وكتبتها كرواية باللغة الفرنسية. على أى حال هو كتاب مُذهل لأنه يحكى كيف عاش أطفال صغار فى سجن بالصحراء لما يقارب العشرين عاماً. وأى شخص مهتم بتاريخ المغرب يعرف تماماً الدور الذى لعبه أوفقير فى توطيد حكم الملك الحسن الثانى.

تأفف الطبيبان استهجاناً، ومطَّ كرم شفتيه قائلاً:

ـ قصة هذا الجنرال تُذكرني بقصة لطيف باشا أحد خلصاء محمد على المُقربين وأحد القادة الذين دبروا مذبحة المماليك.

ـ قُتل أيضا؟

سألت ندى، فهزّ كرم رأسه متفقاً ثُم حكى:

ـ إنّ الجبرتى يحكى فى وقائع عام ١٢٢٨ هـ وهو ما يوافق عام ١٨١٣ أى بعد مذبحة المماليك بسنتين أن محمد على بعث ليُبشر السلطان العثمانى بانتصاراته على الوهابيين واختار لهذه المُهمة لطيف باش لأنّه أحد خلصائه، لكن من سوء حظه أنّه عندما وصل الاستانة كان السلطان مسرورا للغاية فأنعم عليه بعدة رُتب. وعندما عاد داخله الغرور وظن أنه على قدم المساواة مع محمد على فزاد عدد جنوده وقصوره وحريمه وهو ما سهّل مهمة الواشين الذين أوغروا صدر محمد على وأقنعوه بالتخلص منه. وبالفعل سافر محمد على إلى الحجاز وترك لمحمد لاظ أوغلى الكتخدا الخاص به مهمة قتل لطيف باشا. ويبدو أنّ لطيف شعر بالمؤامرة فاختبأ فى مخبأ إلى جوار بيته وظل عدة أيام حتى بعد أن دخل جنود الكتخدا بيته ونهبوه وسبوا حريمه.

ولم تمر أيام أخرى حتى أرشد عنه أحد خلصائه وقفز من سطح بيت إلى آخر فتتبعوه حتى أوقعوا به ومعه أحد حراسه وساقوهما إلى القلعة، وهناك دعا الكتخدا كبار رجال الدولة للاحتفال بموت الخائن لطيف باشا، وعقدت جلسة موسعة انتهت بالحكم بإعدامه، وأحضروا المشاعلى

فضرب عنقه، لكنه لم يمت فكرر الضرب عدة مرات، ثم قطعوا رأسه ورأس رفيقه وعلقوهما معا على باب زويلة.

ـ يا للبشاعة.

هتفت الدكتورة نُهى، قبل أن يضيف زوجها:

ـ كُلهم وحوش.

حكت لهم ندى عن الكتاب الذى تسعى إلى إصداره عن أساليب التعذيب فى مصر، لكنها لم تُكمل حتى اعترى وجه الدكتور أحمد ذهول غريب، ورانت نظرة ضيق على وجه زوجته لاحظها كرم، فسأله إن كان هُناك شىء أغضبه، لكنه فوجئ بوجه أحمد يزداد احمرارا ورأى كفه الايمن يُغطى وجهه لتبادر زوجته:

ـ الضغط مرتفع عند أحمد. أنا آسفة. استرح يا أحمد.

فهم كرم أنّ تلك علامة انهاء لقاء، فسأل ندى بصوت عالٍ إن كانت ترغب أن تُلقى نظرة على بيته، فوافقته، وسلّمت على الطبيبين، لتُعاين بفضول مكتوم شقة حبيبها المُحتمل، ثُم غادرت بعد ذلك وحيدة شاكرة عرض كرم بمصاحبتها حتى الشارع الضيق الذى يتفرع من ميدان عابدين الفسيح.

# (١٩)

حكت ندى لشقيقتها رباب عن مغامرة زيارتها إلى شقة كرم الأعزب. كانت تُحاول أن تكتشفه أكثر، لكن الزيارة لم تعن لها شيئاً. لا يوجد أثاث يمكن أن ينطق بذوق صاحبه، وحتى الدهان الزيتى الأقرب للون السماوى الذى يُغطى الجُدران لا يعنى لها شيئاً، خاصة وأنه عتيد. رائحة الحُزن تُغطى براويز قليلة لصور رُبما تُلخص حياة قاطن الشقة أحدها هو الأغرب لرجل يلف رأسه بعمامة بيضاء ثلاث لفات متتالية تحت طاقية من الصوف، وله وجه صافٍ رائق البياض، يلتحف بلحية سوداء تتناثر وسطها شعيرات قليلة بيضاء، وشارب يتصل باللحية بشعيرات ناعمة، وأسفل الجبهة العريضة عينان عميقتان لهما بؤبؤان خالصا السواد تحت حاجبين غزيرين. تتصور ندى أن ذلك البرواز هو الواصل بين كرم وبين التاريخ عشق حياته، فعبد الرحمن الجبرتى المأسور داخل البرواز هو أبو التاريخ المصرى الحديث، ولولا حكاياته ما علمنا ما فعل الأجداد مع الأوغاد من غزاة وحكام وجلادين وتجار بشر.

البرواز الثانى الذى لاقى اهتمام ندى يحوى صورة زفاف باللونين الأبيض والأسود قدرت أنها لوالدى كرم. لابد أن هذا الرجل الأسمر ذو الشعر المُجعد والأنف الأكثر بروزا هو سالم البرديسى، تلك العينان الزائغتان تُشبهان عينى كرم، لكن يبدو أنهما وحدهما اللتان ورثهما عن والده، فأمه أكثر تأثيراً خاصة بياضها الظاهر وقوامها الممشوق، وشعرها المُنسدل تحت طرحة الزفاف كحصان جامح. الطيبة بادية على كليهما، وأناقة الملبس طبيعية فى مثل هذه المُناسبة، لكن يبدو أنّ ذوق السبعينيات كان غريباً. ذلك البرواز هو الذكرى ووجع الوحدة الذى يسيطر على أستاذ التاريخ الرقيق.

فكرت ندى قليلاً وهى تُحادث شقيقتها أنها لو كانت تعرف كرم قبل حصوله على الماجيستير لطلبت منه تغيير كرافتته يوم مناقشة الرسالة. فى برواز آخر يقف كرم مُرتبكاً مُلتحفاً روباً أخضر فوق بذلة سوداء فوق قميص أصفر وكرافتة رمادية لا تُناسب الحفل. لو أنهى الدكتوراة ستُقدم نصائحها خالصة فيما يجب أن يرتديه.

غرفته صغيرة، لكنها كئيبة كأنّ الشمس لم تزرها منذ سنوات. رائحة دخان السجائر الكريهة هى سيدة الموقف، والمكتب مُكدس بمجلدات عديدة وأوراق متفرقة وصحف قديمة، وفوق زجاجه الذى لا تمسه مياه أو مُنظف منذ سنوات، ترقد مطفأة زجاجية تتراكم فيها جثث سجائر عديدة.

على سرير صغير، فى شقة واسعة تطُل شرفتها على شارع ١٧ بحى المقطم الهادئ تتمدد ندى مُعلنة إعجابها بكرم لشقيقتها الجادة التى تعتبر الزواج أمراً يحكمه العقل والنصيب، وأن العاطفة تولد بعد ذلك حسب المعاملة. قالت ندى:

ـ إنّه غريب جدا. لكنه رقيق وطيب وذكى. يبدو زئر نساء، لكن الخجل يعتريه فى بعض الأحيان كعذراء حالمة. هو حالة يا رباب، حالة مُلفتة تُثير الانتباه.

سألتها شقيقتها إن كان قد أبدى أى إعجاب مُباشر بها، فردت: كثيراً، لكنها تتذكر نظراته الوقحة فى أول لقاء فتنتابها رجفة خوف. عيناه تغيرت كثيرا فى اللقاءات الأخيرة، فالحُزن الذى كان مُستترا، يوشك أن يفيض.

ـ هل تعتقدين أنه يُحبك؟

سألت رباب المتمددة فى سرير موازٍ، فأجيبت:

ـ عيناه تقولان ذلك.

داعبت أصابع ندى خُصلة شعر على مفرقها الأيمن كمن تُعلن عن أنوثتها، وهى تقول:

ـ لا أعرف يا رباب. أنا مُعجبة به، لكنى خائفة. أتصور أننى لم أعرفه بعد كما ينبغى. أخشى أن أُكرر وجع الماضى.

ـ هل ستحكين لأُمك؟

ـ ليس الآن.

وغاص رأسها الصغير فى وسادة سميكة لها كيس مطبوع عليه أزهار برتقالية وحمراء تُماثل شراشف ناعمة تُغطى السريرين. ونامت وفى عينيها وجه كرم.

# (٢٠)

التاريخ يكتبه المنتصرون. والشعر يكتبه المغلوبون.

اعترف حسن السويسى لنفسه قبل كرم البرديسى وندى حسين بأنّ الأدب مرآة الحمقى والمهمشين والمساكين. مَن ينتصر لا يحتاج إليه، لأنّ الواقع ينصفه ويمنحه خوف الرعية وتقدير الحاشية.

ـ معك بعض الحق يا كرم.

هتفت ندى مؤيدة وجهة نظر كرم بأنّ الأدب يميل إلى الخيال ويسعى نحو ما لم يتحقق.

ـ معك كُل الحق يا كرم.

يكرر حسن ذو العقد الخامس والشعر الأبيض والثياب الرخيصة. عمرُه ضاع سُدى. لم يكتب ما يريد، ولم يجنى مالاً، ولم يصل لمرتبة المشاهير من الكُتاب وأنصاف المثقفين الذين حازوا رضا السلطة. لم يتزوج رُبما هرباً من إنشاء أسرة فى زمن قيمه مُزيفة ومبادئة مادية. لم يُحقق

ما حلم به طفلاً صغيراً من تملُك مجلة مُستقلة تتبنى المُبدعين، وتنشر الثقافة. لم يُصبح حتى زعيماً ثورياً للمطحونين والمُضطهدين من الناس، وغاية ما قنع به ذكريات حياة طيبة لأيام العمل فى مدينة الضباب.

كان مقهى «ريش» كعادته صاخباً مُزدحماً تتراص الشوارب والمساحيق على كراسيه فى مجموعات حلقية تتحاور بنهم. وحدهم الذين كانوا يُشكلون مثلثاً هادئاً يتناولون ما تيسر من مشروبات دافئة تُناسب لمسة البرد المسائية المُصاحبة لنهايات أكتوبر. ذلك الشهر الذى شهد أعظم حدث كونى فى ظن حسن السويسى وهو الثورة البلشفية عام ١٩١٧، وهو نفس الشهر الذى غادر فيه سالم البرديسى والد كرم قبل شهور من تخرج ابنه وتعيينه مُعيداً. أما ندى فلا يعنى لها الشهر سوى نصر أكتوبر الذى عبّرت فيه مصر الهزيمة القاسية التى تجرعتها من إسرائيل.

لا يعرف كرم وندى تاريخ هذا المقهى، لكن حسن سأل يوماً صاحبه ليخبره أنه يرجع لسنة ١٩١٤حيث أسسه خواجة نمساوى ثم باعه بعد عام لرجل فرنسى اشتهر مهموم بالفن والأدب اسمه هنرى بير وهو الذى أطلق عليه «ريش» بمعنى ثراء، وأداره عدة سنوات ثُم باعه لرجل يونانى. وكان المقهى محل التقاء الأفندية والمُتعلمين فى أوائل القرن العشرين، ثم استغله أعضاء التنظيم السرى ثورة ١٩١٩ لوضع مخططاتهم والاتفاق على عمليات الاغتيال ضد الإنجليز والمتعاونين معهم.

فى تلك الليلة التشرينية، اتفق الثلاثة على العمل بشكل فعّال لإخراج كتاب ندى حسين عن التعذيب مُحملا بشهادات ورصد توثيقى شامل ليكشف أساليب انتهاك حقوق الإنسان فى مطلع الألفية الثالثة.

جاء الاتفاق بعد ما فاجأ به كرم جليسيه بأنّ جاره الطبيب أحمد هواش قدم شهادة لم يكن يتوقعها بعد يومين من زيارة ندى له. قال كرم إنّه لاحظ ضيقاً شديداً اعترى جاره وزوجته بعد أن أخبرتهما ندى اعتزامها اعداد كتاب عن التعذيب فى مصر. فيما بعد زاره جاره وطلب منه ألا يغضب لتصرفه غير الطبيعى وقت زيارة ندى وادعائه المرض. حكى له الطبيب قصته مع الوجع الشرطى. قال أحمد:

ـ فور تخرجى عملت طبيباً مناوباً بغرفة العناية المُركزة بمستشفى الساحل. كانت الغرفة رغم تجهيزها لا تتسع لسبعة مرضى غالبا ما يقضون أيامهم الأخيرة، لذا فقد كان الموت زائراً مُعتاداً. لم يكن فرار الأرواح إلى بارئها مُخيفا فى ظل ذلك التكرار اليومى، وهو ما جعلنا نتعلم كيفية تلقين المريض الشهادتين وهو يلفظ أنفاسه فى هدوء كمَن يؤدى مُهمة اضافية بعيدا عن الطب. فى يومٍ ما كانت هُناك مريضة مصابة بالسرطان فى أجزاء متفرقة من جسدها، وكان اسمها سناء فرحات، وكُنا ننتظر وفاتها بين الحين والآخر. وعندما أنذرنا جهاز قياس الضغط بقرب الوفاة أمسكت بيدها ولقنتها الشهادتين كما تعودت، وأسلمت بالفعل روحها. وبعد ساعتين أخبرنا ابنها سعد فجاء مُسرعاً ومعه ثلاثة شبان. وسأل سعد عن حال والدته فطمأنته وأخبرته ألا يقلق، فقد ارتاحت ونطقت بالشهادتين قبل وفاتها، لكن ما جرى بعد ذلك كان أغرب مما توقعت. سقط الغضب أمطاراً وسمعت أصوات صراخ وضرب وزجاج يتهشم والدم ينهمر من جبهتى والشبان الثلاثة يضربوننى بقبضاتهم وأقدامهم، ثُمَّ تبينت كلمات فهمت منها أن السيدة سناء كانت مسيحية، وأن ما فعلته ـ بنظرهم ـ هو أننى كفّرتها قبل أن تموت. ولم أفعل شيئا سوى الفرار من غضب عارم.

ما حدث بعد ذلك هو ما يعنيك أنت وصديقتك الصحفية. فى الصباح التالى أُستدعيت إلى مكتب المدير ووجدت رجُلاً أنيقاً يجلس معه، ثُم صافحنى بهدوء، وقال لى إننا نريد أن نتحدث معك قليلاً. هل تشرفنا غدا؟ سألت: ما الموضوع؟ فقال لى إنّه من أمن الدولة وأنهم يريدون سؤالى عن أمور بعينها فيما يخُص المرحومة سناء فرحات. «شرفنا الليلة. أسأل على المُقدم أحمد حسن». رحبت، وذهبت بالفعل مساء إلى مبنى صغير قالوا لى إنه فرع لجهاز أمن الدولة بحى شبرا. أريتهم بطاقتى على الباب، وأخذوا هاتفى، ثُم قادنى أحد الأشخاص إلى الداخل وأجلسنى فى غرفة مكتب مُضيئة اضاءة خافتة. انتظرت دقائق ولم يأت أحد، ثم ساعة، وعندما حاولت القيام جاءنى مَن أخبرنى ألا أغادر. طال الوقت حتى زحف الفجر، وسمعت أصوات مكتومة، حتى أتى الشخص الذى حذرنى من المُغادرة وقال لى: الباشا يُريدك. لم آبه كثيراً وقمت من مقعدى مُشعلاً سيجارة ملل، ففوجئت بالرجل الذى كان هادئاً فور رؤيته ينقلب وحشاً عنيفاً ويشد كفاى خلف ظهرى ثُم يقيدهما معاً بسلسلة حديدية، وتطور الأمر فمزق بيديه قميصى ليحوله إلى غُمامة ربطها فوق عينى. صرخت غاضباً فأهدانى صفعة على قفاى دُرت معها لفات سريعة، ثُم غبت عن الوعى.

أفقت على وجع حاد يضرب جنبات رأسى، شعرت أنّ أثقالاً عظيمة تجذب رأسى لأسفل، ثُم اكتشفت أننى مُعلق من كاحلىّ، وشعرت أنّ الدم غادر رجلىّ، وبأننى عارى تماماً. صرخت كثيراً ولم يجبنى أحد، فحاولت أن أتعقل وأنا أهتف «جئت لأقابل المقدم أحمد حسن». «أنا الدكتور أحمد هواش إخصائى العناية المركزة». كررت كثيراً كلمات «سأموت»، «أنا مريض قلب» لكن شيئا لم يتغير، ومرت ساعات

لا أحصيها حتى شعرت بسائل لزج وساخن يتدفق فوق رأسى، وخمنت من رائحته أن أنفى تنزف دماً. سألتهم عما يريدون، فلم يجب أحد، ثُم أقسمت أننى محترم وطائع، فلم يختلف شيئاً، ثُم فقدت الوعى شاعراً بآلام حادة تضرب صدرى.

أفقت مرة أخرى لأجد نفسى جالساً على الأرض وصوت يصرُخ فى أن أتكلم، ثُم يسألنى عن علاقتى بالتنظيمات الاسلامية وإلى أيٍ منها أنتمى، ولمَن أقرأ، وفى أى جامع أُصلى. وعندما قُلت له إننى لا أصلى أصلا، قهقه واصفاً إياى بالخلية النائمة، وبأنّ قدراته المتميزة نجحت فى كشفها كما كشفت خلايا عديدة فيما مضى. قُلت له إننى أُدخن، ولم يسبق لى أن عرفت أحداً ينتمى لمثل هذه الجماعات. فقال لى إنّ ما فعلته مع السيدة التى امتنعت عن علاجها لأنها مسيحية هو الذى كشفك، فنفيت وحكيت له ما جرى تماما، لكنه بدا غير راضٍ، فأمر بإلقائى فى الحبس حتى أقر وأعترف.

الموضوع تكرر فى اليوم التالى، لكن تلك المرة استفز المُحقق الذى أنبأنى صوته بأنه مازال فى العشرينيات من عمره، قولى له بأننى انسان متفوق نجحت فى الثانوية بـ٩٨٪ بينما نجح هو بـ٦٠ أو ٧٠ ٪ ليدخلوه كُلية الشرطة، وقام بضربى بعصا غليظة على أماكن متفرقة من جسدى حتى غبت مرة أخرى عن الوعى.

بعد إفاقتى وجدتنى مُرتدياً لقميص جديد وبصرى مُتحرر وأجلس فى مكتب فخم، وأمامى رجل أربعينى يبدو أنيقا ومحترماً وقال لى: نحن آسفون جدا يا دكتور أحمد. ما جرى غير مقصود، وأنت انسان محترم. بكيت وقُلت له: هذه إهانة بالغة، لكنه كرر اعتذاره ببرود وأمر أحد

الواقفين ببابه أن يوصلنى إلى حيث أُريد. وخرجت، لكننى خرجت بقايا إنسان، مريض بالضغط، مُنعزل عن الحياة، مُنفتح على الحشيش ومُقبل على كل ما يُبعدك عن الواقع. وحتى بعد أن تزوجت لم أتغير.

مصمصت ندى شفتيها وقالت:

ـ حيوانات.

لكن تعليق حسن كان أقسى عندما زفر:

ـ بلد وسخة.

نظروا حولهم، فوجدوا الوجوه مبتسمة، والمحاورات لذيذة، والناس مُنشغلين بالشراب أو إطلاق النكات، بينما كانوا وحدهم المُنغمسين فى الوجع.

# (٢١)

قرأ كرم فى كتابه المُفضل «عجائب الآثار فى التراجم والأخبار» حكاية مصطفى بك دالى. كان الجبرتى ساخرا عظيما عندما رسم باستهزاء واستهانة أصحاب النفوذ من الكُبار.

«الكُبار». كم توجعه هذه الكلمة! هؤلاء الذين مازالوا يحكمون هذا البلد ويتحكمون فى خلقه. تراهم فى مُقدمة الصفوف يتقاسمون النفوذ والحظوة، يتملكون القصور والشاليهات، بينما العامة يسكنون أبنية ضيقة أشبه بسراديب المماليك. يقضون إجازاتهم فى باريس ولندن ونيويورك، بينما يبحث أغلب الموظفين عن «over time» ليضيفوا بضعة جنيهات إلى رواتبهم الهزيلة.

مُصطفى دالى كان أحد رجال محمد على المُقربين. واحدة من أذرع عديدة كان يبطش بها، فارس شُجاع، عظيم البنية، مهيب الطلعة، قادرعلى اثارة الخوف فى نفوس الجميع. وكان الرجل أكولاً لدرجة أنه كان يتغدّى كُل يوم بتيس كامل بمفرده، ثُم يتبعه بدورق من اللبن،

فكان كرشهُ يتدلى أمامه كبطيخة صيف. وعندما ينام كان خدمه وجواريه يسمعون له خواراً كخوار العجل.

وعلت أسهم مُصطفى دالى عند محمد على حتى أنّه ولاه كشوفية الشرقية، أى محافظة الشرقية فى وقتنا الحالى، فكان ممثلاً له فيها يجمع الضرائب باسمه، ويتابع الفلاحة، ويُشرف على الأمن العام، وينفّذ أوامر سيده داخل الإقليم، ويتصدّى للخارجين على الدولة، ويُراقب كُل مَن يذكر الباشا ورجاله بأى سوء. وكانت ثقة محمد على فى ذلك الرجل كبيرة، ومحبته له طاغية لأنّه شقيق زوجته التى كان يعشقها عشقاً غريباً.

وعندما هجم العربان على قُرى الشرقية ليسرقوا محاصيلها وماشيتها تصدى لهم مُصطفى دالى وقتل منهم العشرات، وعلق رؤوس ضحاياه على الأشجار ليكونوا عبرة لغيرهم، وسُر بذلك محمد على كثيراً وأنعم عليه كثيراً من العطايا.

وكان مصطفى دالى قد اعتاد قضاء شهر الصيف بالكامل فى الأسكندرية، خاصة أنّه لم يكن يُطيق حرارته أبداً. وفى أحد الأيام الحارة من سنة ١٢٣١ هجرية أحسّ الرجل بوعكة صحية، وكان يبدو أنّ قلبه لم يتحمل النهم الشديد فى الطعام فتوقف عن النبض. وعندما تأكد رجاله من موته بعثوا إلى محمد على ليُخبروه، وبالفعل اغتم الباشا غماً شديداً، وحاول إخفاء الخبر عن زوجته، لكنه تراجع عن إخبارها حتى لا تغضب. ولما كانت زوجة محمد على مُرتبطة ارتباطاً وثيقاً بشقيقها مصطفى دالى، فقد أصرّت إصراراً عظيماً على ضرورة إحضاره ودفنه بالقاهرة فى مدفنها الخاص الذى يضم رفات أسرتها. وقالت لمحمد على أنها لا تريد منه شيئا سوى إحضار المرحوم ليُدفن فى قبرها.

وهُنا كانت المشكلة عويصة، حيث كان السفر إلى الإسكندرية وحده يستغرق عدة أيام. ولم يستطع الرجل الذى يحكُم مصر ويرتعد من بطشه أمراء وقادة وأعيان أن يُقنع زوجته بصعوبة إحضار الجُثمان فى ظل القيظ الذى سيؤدى بلاشك إلى تحلُله وتعفنه.

واضطر الباشا أن يستدعى أحد خُلصائه وهو سليمان أغا السلحدار ويأمره بالسفر إلى الأسكندرية وإحضار جثمان صهره فى تابوت مهما كلفه ذلك من مشقة حتى يُدفن إلى جوار أسرة حرمه.

وكانت حاشية مصطفى دالى بك قد نظّمت له جنازة مهيبة بالإسكندرية سار فيها الأعيان والتجار وبعض الجنود، ثم حمله رجاله إلى منطقة المقابر، وقاموا بدفنه فيها، لذا فإنّ سليمان أغا اضطر خوفاً من عدم تنفيذ أوامر سيده أن يأمر بفتح المقبرة بعد أن استحضر فتوى تُجيز له ذلك. وبالفعل فُتحت المقبرة ليجدوا الجثمان فى حالة تعفُن شديد حتى أنّ كثير من الحاضرين أُغشى عليهم، وهم يضعون جُثة البك فى التابوت. ولم يجد المُكّلف بدا من تحّمل تلك الرائحة طيلة الرحلة التى استغرقت اثنى عشر يوماً. وعلى الطريق من الإسكندرية إلى القاهرة كانت الرائحة الكريهة تمُر على القُرى والنجوع فيستغيث الناس قرفاً واشمئزازاً ويصبون لعناتهم على حاملى التابوت. ووصل الجمع إلى القاهرة وتوجهوا على الفور إلى المقابر فوجدوا رجال الباشا كُلهم ينتظرونهم، لكن عندما بدأوا يتشممون رائحة الجيفة اختنقوا، ولم يتحمل أحد أن يقترب من الصندوق، وتظاهر بعض الأعيان والتُجار ورجال الدولة الذين ذهبوا لمُجاملة محمد على بالوعكة المفاجئة وجروا فراراً من سوء الرائحة.

وأحضر سليمان أغا حفارى المقابر المخضرمين، وطلب إليهم فتح

التابوت وانزال المرحوم إلى قبره، لكنّ أحداً لم يتمكن من فعل ذلك، وأغمى على كثير منهم، وانتهوا إلى ضرورة دفن الراحل وهو داخل التابوت، وبالفعل حملوه على مضض وهبطوا به إلى القبر وتركوه بسرعة ليُغلقوا الباب ويغادر الناس سريعاً سريعاً وكأنهم يفرون من التتار. وكان من الطريف أن يُعلق صاحب كرم، ومؤلف كتاب عجائب الآثارعلى ذلك قائلاً: «وحثوا عليه التراب، وليس هناك من يفتكر أو يعتبر».

# (٢٢)

الصينية الرئيسة بصحن جامعة القاهرة خضراء كملعب جولف تسُر الناظرين. أشجار الفيكس تُشكل مصدّات رياح لا تأتى فى مدينة لا تعرف الشتاء إلا أياماً معدودات. مجموعات من الطلبة والطالبات تحلقت حلقات صغيرة غير مُكتملة تُثرثر فى حكايات شتى، وعلى أطراف الصينية جلست فتيات وشباب يرتدون الجينز أزواجاً هائمين. بين هؤلاء قعد أمجد سامح يتهامس مع زميلته وحُب حياته غادة سالم.

يعرف أمجد أنّ الحُب هو السند الذى يجب لكل صاحب قضية أن يستند إليه. ربما يؤمن الشاب الذى توسط العقد الثالث أنّ الحياة هى ما يصنعها البشر، وأن الحاضر قبيح، لأن صانعيه قُبحاء. ما يمر بالوطن من تشرذم، وتفكك، وسوء توزيع للدخل، ووساطات، ومحسوبيات، وفساد مُنتج طبيعى لعصابة من الأدعياء الذين يحكمون بلا شرعية أو اختيار للمحكومين وإنما بسلطة الدولة البوليسية القاهرة.

يقول أمجد لغادة التى تؤمن بزعامة حبيبها وتوافقه الفكر أنّ مصر

يمكنها اللحاق بالأمم الكبرى لو أراد المصريون ذلك. دحر السُلطة وتحييد أجهزة الدولة لتُصبح خادمة للشعب لا للنظام هو الحل، وذلك لا يأتى دون فكر وحلقات نقاش ومعارض تبث الإرادة والوعى فى نفوس الطلبة. يقول أمجد لغادة التى تشاركه النحول واللون الأسمر والدخان أنّ المصريين يستحقون واقعاً أفضل. ما الذى يدفع العمال أن يهتفوا للرئيس فى كل عام يوم عيدهم «المنحة يا ريس» وكأنه يتفضل عليهم من إرث أبيه؟ ما الذى يُرغم الموظف أن يُضفى «الباشاوية» على ضباط وأمناء الشرطة ألقاباً للتفخيم والتعظيم، رغم أنّهم يحصلون على رواتبهم مما يخصم كضرائب من راتبه؟ ما الذى يجعل الناس تحترم الأغنياء حتى لو كانوا يوقنون أنّ كثيراً منهم فاسدين، بل ويعرفون كيف جمعوا أموالهم؟

يقول أمجد لغادة التى تمتلك أطول ضفيرة عرفتها جامعة القاهرة مُنذ نشأتها والتى كانت سبباً فى سهام من الحسد مُنى بها، ونظرات من الشهوة رمى بها بعض الأساتذة ذلك الشعر المجنون، إنه يُخطط للعمل فى الصحافة بعد التخرج ليكتب فاضحا ومقاوما لدولة البوليس.

ـ أنت تكرههم أكثر من اللازم.

تقول غادة وهى تُخرج من جيب بنطالها الجينز المُلتصق برجليها علبة سجائر «كينت» تناوله واحدة، فيبادر بإشعال الأخرى بين شفتيها. ويرد عليها:

ـ أنا لا أكرههم. أنا أحتقرهم.

ـ ليسوا جميعا، ابن خالتى ضابط مُحترم فى شرطة الكهرباء.

نفثَ خطاً طويلاً من دُخان سيجارته وهو يقول لها:

ـ أنت تعلمين أننى لا أقصد سوى أولئك المراقبين للنشاط السياسى. أنا أعنى المُخبرين الذين يتجسسون على أصحاب الرأى وأعضاء الأحزاب والشباب المُثقف. ألا يضايقك أننا لا نتحدث بحرية فى التليفون لأننا موقنون أنه مراقب؟ ألا يثير قرفك أنّ هُناك ضابط شرطة داخل مكان العلم يكتب تقارير عمَن يشاء من الطلبة ليسد خانات؟ ألا يُضجرك ذلك الشعور الدائم بأنك مُراقبة؟ ألا يوجعك أنهم يسكنون معنا رغماً عنا؟

ابتسمت غادة وهى تتحسس ضفيرتها المُنسابة خلف ظهرها وتقول:

ـ shit

ذكرها أحمد بمقولة أستاذ التاريخ الدكتور محمود مندورالذى زارته جلطة ماكرة نهاية العام الدراسى الماضى بأنّ المماليك مازالوا يحكمون، وبأنّ المذبحة الكُبرى التى أدارها محمد على قبل ١٩٠ سنة كان غرضها استبدال مماليك بآخرين، ثُم جرى نفس الأمر فى يوليو ١٩٥٢ لكن تبقى السمات واحدة. فساد مُقترن بقهر وإهدار للآدمية.

لمح أمجد وجهاً ماراً فيستئذنها دقائق ليقف قبالته ويهتف:

ـ حُسام. حمداً لله على السلامة. متى خرجت؟

احتضنه وقبله ليكتشف أنّه يراه لأول مرة دون لحية. ابتسم متفرساً فى وجهه الناحل فيلحظ نظرات انهزام قاتل فى عينيه السوداوين. كان حُسام يرتدى قميصاً أبيض فوق بنطال قصير لا يهبط بعد منكبيه.

أظهر حُسام اشمئزازاً مُفتعلاً من سيجارة أمجد المُنزرعة بين سبابته ووسطاه، فألقها أمجد ساحبا حُسام من يسراه قائلا له:

ـ ما بك يا حسام؟ أنت حُسام الحفنى الذى استحق زعامة التيار الدينى ثلاث سنوات. أنت حليفى فى المظاهرات المُشتركة، وخصمى فى الفكر المُتحرر. لكن قبل كُل هذا نحن زُملاء.

بوجه خشبى هجرته التعبيرات قال حسام:

ـ أنت لا تتخيل ما فعل هؤلاء الكفرة فينا. هُم لا يتعاملون معكم مثلنا. نحنُ بالنسبة لهم حيوانات تجارب. عُلقنا حتى نشفت دماؤنا، وصعقونا بالكهرباء حتى سببنا لهم دين الله. أهدروا كرامتنا وسلبونا أى بادرة حُب لهذا البلد.

ـ هوّن عليك.

بكى حُسام، ثُم مسح بكُم قميصه دموع حزينة، واستعاد وقاره، ثُم ترك زميله ومدّ خطاه وهو يقول:

ـ سلاماً يا أخ أمجد.

ثُم رمى نظرة احتقار لغادة الجالسة على رصيف الصينية الخضراء وتمتم وهو يُسرع الخُطى:

ـ هداك الله.

عاد أمجد لسيدة الضفائر التى بادرته سائلة:

ـ نفخوه؟

قال أمجد:

- واضح إنّهم عذبوه تعذيباً شديداً.

عادت لتسأل:

- لِمَ فى ظنك؟

- رُبما يعتقدون أنّه عضو بتنظيم جهادى مُسلّح. وربما هو بالفعل كذلك. لكن حتى لو كان إرهابيا، فمَن الذى أعطاهم الحق أن يُعذّبوه ويصعقوه لمدة أسبوعين؟

- لم أعرفه بدون ذقن.

- أه. واضح أنه انكسر.

وقف أمجد ماسحاً أتربة سكنت بنطاله، ومدّ كفه لها لتقف مُستندة إليها، وهو يقول لها:

- تعالِ نحضر مناقشة صبحى غريب للدكتوراة. تصورى هذه الألف المقوسة دائماً ستتحول إلى دال فى غمضة عين.

- مَن يُناقشه؟

- الدكتورعفت عزام حرامى الغسيل.

ضحكت فبدت أسنانها صفراء لا تسُر الناظرين. وسألته:

- كرم موجود؟

- أكيد.

وانصرفا مُسرعين إلى قاعة الكلية الكبرى، ليُخبرها أمجد فى الطريق أنّ كرم هذا نموذج فريد لأستاذ الجامعة المتفتح والذى كان من الممكن أن يُكرر المؤرخ التقدمى محمود مندور لولا تسلُّط عفت عزام على القسم.

# (٢٣)

بركة الفيل. هُنا كان يوجد ماء وظلال ولون أخضر جميل. قدما كرم تجُره نحو زيارة شقيقته التى لابد أن يراها كُلما زارته الحيرة واحتاج مشورة غالباً لا يعمل بها. اختفى الماء والجمال الخلاب الذى كان قبل عدة قرون محط اهتمام علية القوم. يعرف عاشق التاريخ جيداً أنّ هذه المنطقة كانت منحة من أحمد بن طولون لأحد أصدقائه الذى كان ضخم الجُثة حتى أطلق عليه الناس لقب «الفيل». قبل ذلك كان ماء النيل عندما يفيض يصُب بشائر خيره على بعض الأراضى المُتاخمة لواديه ليرمى الفلاحون الكسالى بذورهم انتظاراً لزرع لا يبذلون جُهداً فى الاسترزاق منه، وكانت البركة المُتاخمة للفسطاط تنتظر كُل صيف فيضان الخير الإلهى فى شوق مُتعطش، وامتنان وفى. ولما أُهديت البركة لصاحب السلطان أتخذها مُتنزها مُعتبراً اياها جنة الأرض التى حازها مُقابل إخلاصه وولائه. وبعد سنوات استولى أمراء المماليك على المُتنزه وبنوا قصورهم إلى جواره ناعمين بالروعة، وخالدين إلى الترف.

وكان أهل البلد ممنوعين من الاطلال على جِنان الحاشية المُزهرة التى طالما حلموا بظلالها فى أيام الصيف البائسة. لم يكُن أحد يجرؤ على الاقتراب من أسوار القصور التى اغتصبها الأُمراء وحفروا أسماءهم على أشجارها النضرة اقراراً لمبدأ «مَن يحكم يملك». وفى يوم ما قبل قرن ونصف زارها الخديوى عباس الأول فاعتبرها جديرة باحتضان قصراً فخماً من قصوره اجتهد أن يُلحق به حديقة غناء زاهية. وفى تطور طبيعى هُدم القصر وكثير من أشقائه فى ظل زحف السُكان إلى جوار المنطقة، ثُم قُسمت الأراضى تباعاً ومُنحت لمَن يدفع ليسكُنها أبناء البلد من التجار وأصحاب الثروات.

ماباالها انقلبت الآن إلى عُلب كبريت كريهة، وما بال القُبح أحاط بذراعيه تلك المبانى الأثرية المُتباعدة التى ظلت صامدة. هكذا تساءل دماغ كرم وهو يرمق مستشفى الحوض المرصود بنظرة إعجاب. يطول شارع قدرى مُنعرجا ليصُب فى شارع بورسعيد الذى نزعوا عنه اسم الخليج فى عهد عبد الناصر وبدلوا أسماء شوارع وأزقة الماضى زارعين مُنشآت جديدة بلا نسق معمارى. فى هذا المشفى كانت البغايا تحتشد كُل يوم زمن الاحتلال لتُجرى الكشف الطبى فى رضا وجرأة مُهتمين بسلامة زبائنهم.

تقطُن هُدى فى السيدة زينب فى شقة صغيرة إلى جوار مُستشفى الحوض المرصود والذى تحوّل لعلاج الأمراض الجلدية وصار مشهوراً بطوابير المرضى الباحثين عن علاج زهيد التكلُفة فى زمن صارت الصحة فيه حكراً على الأغنياء. ببذلته الغامقة وهندامه الأنيق يبدو غريباً فى حى تسكُنه العشوائية ويلفه البؤس. يصعد كرم سلالم مُتسخة مُستندا إلى درابزين

تشققت جُدرانه إلى الطابق الثالث من بناية قديمة شاخت بفعل الزمن ليطرُق باباص له شُراعة زُجاجية داكنة تبعث على الاكتئاب. يسمع صوت إسماعيل يس فى أحد أفلامه الذى يُرجح أنه «البوليس الحربى» عندما يسمع اسم «مجانص».

- كرم.

هتفت سيدة تبدو على مشارف الأربعين صفراء الوجه تُغطى شعرها بإيشارب بُنى يتدلى طرفاه على جلبابٍ أزرق فضفاض. تذكر أمه عندما لاحظ سمنتها التى تبدو بسبب جينى، وكيف ازدادت يوماً بعد الآخر حتى سقط القلب فجأة ميتاً.

احتضنته حانية كأنها لم تره مُذ خرجت من شقة عابدين عروس صغيرة إلى بيت زوجها المُدرس الذى لا تراه سوى سويعات ثلاث قبل النوم بعد انتهاء رحلته بين منازل تلاميذ الدروس الخصوصية.

- جميلٌ أن أراك.

كشرت عن غضبها من طول غيابه، فرد بتبريره التقليدى بانشغاله بالرسالة.

- أنت لا تعرفين كيف أقضى الساعات فى القراءة والاطلاع، لأنّ هذا العام هو الفرصة الأخيرة لى لاتمام الرسالة. كُنت على وشك المناقشة لولا الجلطة المُفاجئة التى أصابت المشرف على الرسالة.

جلس على أريكة واسعة تواجه الداخل إلى الصالة التى تُغطى حوائطها ستائر بيضاء وبراويز لصور قديمة لأقارب وأحباء للأسرة رحل بعضهم، وساعة حائط خشبية تُزينها حُلية ذهبية اللون. على اليمين مكتبة ضخمة لا تتناسب مع ضيق المساحة يتوسطها تليفزيون كبير يعرض فيلما قديماً.

أى مشهد فى هذا المكان لا يُثير الحُزن؟ مشهد البراويز القديمة الذى يضم صورتى والدهما ووالدتهما يُذكره بسنوات جميلة وعى خلالها معنى المحبة وذاق صنوف الحنان. ما أحزن الزمن الذى يمُر كقطار سريع يحمل معه نفوساً أحبتك ورعتك بإخلاص.

سألها عن سامى. زوجها الشهم الذى صار لها كُل شىء بعد أن فقدت والديها، وحُرمت الأولاد، وتركت الوظيفة بعد أن حملّت للمرة الأولى فى بداية الزواج. أحبها بنُبل وصك أذنيه صكاً عن نصائح أمه بضرورة الزواج. كان ومازال يؤمن أنّ العيب الخُلقى الذى يمنع رحم زوجته من الاحتفاظ بجنين أكثر من شهر ابتلاء من الله يجب الصبر عليه. يدور سامى كُل يوم عدا الجمعة الذى يقضيه مع أمه وإخوته على منازل طلبة الثانوية العامة ليُقدم لهم خُلاصة منهج الفلسفة مُقابل مصاريف توفر له خمسة أضعاف راتبه.

شهور طويلة لم يره، ولم يتصل به انشغالاً وانعزالاً، لأنه يرفض تلك الوصاية التى يُحاول فرضها عليه تجنباً لكلام الناس. «لا يصح أن تشرب وأبوك كان مشهوداً له بالتقوى والصلاح». قالها له فى آخر مرة زاره فى عابدين عندما كان ينصحه بزيارة أخته. كان كرم يحترمه ويُقدره ولكنه كان لا يقبل أى تدخُل فى شئونه ولو بالنصيحة. ربما كان ذلك سببا فى صناعة حاجز نفسى بينهما اتسع مع ندرة مروره على أخته مُذ بدأ العام.

تذكر كرم حين أتى سامى وأمه طالبين يد هُدى قبل أكثر من عشر سنوات. كان الحُزن يضفى غلائله على البنت الصغيرة بعد أن فُجعت فى رحيل الأم الطيبة، وفى تهميش الأب وظيفيا بسبب عدم الانصياع لنصائح زُملائه ببيع الوثائق والورق القديم الذى لا يهتم به أحد.

كان سامى يبحث عن بنت أسرة مُحترمة على قدر مقبول من الجمال، وأخبرته أمه أنها رأت فتاة جميلة تعمل فى مكتب البريد، وسألت عنها فعلمت أنّ أمها ماتت وأباها يعمل موظفا بالآثار وسمعته طيبة. يومها نصح كثيرون سالم البرديسى ألا يزوج ابنته لأنهم كأسرة فى حاجة إلى فتاة تعتنى بهم وتُعد لهم الطعام، لكن الرجل كعادته ترك الموضوع برُمته بين يدى ابنته لتختار وتُقرر، ولم يُفاجىء سالم ولا كرم بإعلانها قبول العريس بعد جلسة واحدة معه شعرت خلالها أنه طيب تماما مثل والدها.

- سامى بخير. لم يتغير أبداً يا كرم. نفس الطيبة والذوق الذى رأيته بهما يوم جاءنا خاطباً.

- صحيح. هو إنسان مُحترم.

ابتسمت ابتسامة نادرة وقالت:

- يكفى أنّه يتحملنى دون شكوى. والله ولا حتى نظرة لوم يا كرم.

اللحن الحزين سيُعزف مرة أخرى. انسه يا ابنة أمى. انسى ذلك ولو لمرة واحدة عندما أزورك. لم يقلها لكنها تخللت جوارحه. ربت براحته على كتفها وتمتم:

- لا عليك يا هُدى. كُل شىء له أوان. والطب يتقدم كل يوم، وسيمنحك الله خيراً.

عاد الحُزن يتسرب إلى قسمات وجهها رويداً، فتمتمت:

- الحمد لله على كُل شىء. والله يا كرم، سامى يحبك كثيراً ويقلق عليك.

- عارف.

ـ لا تغضب منه، هو يعتبرك أخاه الأصغر ويتمنى أن يراك أستاذاً كبيراً مثلما كان يحلم أبوك.

صمت كرم قليلاً ورمت عيناه نظرة امتنان إلى صورة والده المُعلقة على الحائط وقال:

ـ سأكون كما أراد. لا تقلقى علىّ.

رائحة المحشى زارت أنفه، فابتسم، وسألته عن آخر مرة أكل فيها طعاماً منزلياً، فأجاب بأنّه لا يذكر. قامت مُتثاقلة لتطفئ البوتاجاز، بينما تعلقت عيناه بمشهد اسماعيل يس وهو يُغنى غناء طفولياً على سرير يجلس عليه. من المطبخ جاءه صوتها:

ـ عشر دقائق سيكون الأكل جاهزاً.

تذكر هنية، أمه، نبع الحنان، والتى غابت فجأة. قام كرم متحمساً، ودخل المطبخ الصغير الذى لم يحتمل وجود أكثر من خزانة صغيرة وبوتاجاز، وثلاجة وقال لها:

ـ هُدى. أريد أن آأخذ رأيك فى أمر مهم.

ـ خير.

ـ ما رأيك أن أتزوج؟

لمعت عيناها وابتسمت:

ـ عظيم. خبر جميل. مَن؟

ـ سأحكى لك كُل شىء ونحن نأكل.

ـ اتفقنا.

# (٢٤)

سعيداً بترحيب شقيقته بقصة حُبه لندى، وممتناً لنصيحتها بضرورة إخبارها بذلك، سار الشاب الطويل الأسمر مزهواً فى طريقه للقاء حسن السويسى الذى تواعد معه على اللقاء فى مقهى السلام بميدان عابدين. كانت الساعة الرقمية البادية فى محموله والتى رحمته من الساعة الثقيلة التى أهداها له والده عند التحاقه بالجامعة، تشير إلى الثامنة مساء، حيث ذروة الخروج فى شوارع وسط المدينة، وازدحام الشباب على المقاهى الشعبية.

من بعيد لمحه بشعره الأبيض المنفوش، ووجهه النحيل ونارجيلته المعتادة، فابتسم ابتسامة محبة. صافحه مُقبلاً يميناً ويساراً ليجلسا متواجهين كصديقين حميمين. حسن السويسى ملجأه عندما تحتضنه الحيرة، ومستشاره فى أمور يتصور أنّها تمس حياته ومستقبله. فاجأه رده عندما أخبره بشعوره تجاه ندى، تلك التى ظهرت بحياته دون توقع.

ـ الزواج مشروع فاشل.

ـ لِمَ؟

سأله كرم وهو يُشعل سيجارة التقطتها أصابعه فى عصبية بادية.

ـ هموم أنت فى غنى عنها. قيود تُكبلك عن الانطلاق إلى هدفك فى بلد يستنشق الكراهية ويؤمن بالانتهازية. أنت لم تحب من قبل، والتجربة الأولى كثيراً ما تحمل خطايا التعجُل والتسرع. هل سألت نفسك إن كانت ندى تقبل العيش فى شقتك الصغيرة؟ هل لديك مُدخرات تكفى لدفع ثمن شبكة، وتجهيز شقة، والإنفاق على أسرة وبيت؟ هل أنت مُستعد أن تتنازل عن حريتك فى الشراب وفعل ما تريد وقتما تريد؟

بدا وجه كرم مُمتعضاً قليلاً وهو يقول:

ـ كُل الشباب يمرون بذلك، ويتركون وراءهم نزواتهم وجموحهم اختياراً لاستقرار حياتى طبيعى ولازم اسمه الأسرة.

زفر حسن خيطاً طويلاً من دُخان نارجيلته بتلذذ وقال:

ـ تذكر أسرتك التى خرجت منها. هل كنتم أسرة سعيدة فى ظل حاجات مُتكررة، ودخل قليل، وأزمات مُتكررة؟ الحياة عبث يا صديقى فى هذه البلاد.

زارته الذكريات ورأى وجه والده يُشجعه على الغوص فى التاريخ والاهتمام بالعلم، لكنه بدا مهموماً بأمور لم يكن يعلمها. لم يسأل نفسه يوماً مَن أين كان والده يشترى له كُتب التاريخ المُسلسلة كُل اسبوع ليُكدسها حوله. فى عيد ميلاده الخامس عشر تلقى كتاب «الكامل» لابن الاثير هدية عزيزة، وفى العام التالى كان على موعد مع المقريزى ليستمتع

بخططه، وعندما نجح فى الثانوية كان كتاب البداية والنهاية لابن كثير هدية نجاحه.

تذكر جيداً كيف قرأ تاريخ الأندلس مُبكرا قبل أن يتعرف على شذرات منه فى الجامعة، وكيف التهم مجموعات عبد الرحمن الرافعى صغيرا قبل أن يُشكل وجدانه رد فعل سلبى تجاهه باعتباره مؤرخاً له توجه وصاحب أغراض.

لم تكن شقيقته هُدى تهتم بشغل والده الشاغل فى اعادة قراءة كُل ما وصل إليه من تاريخ بأسس منطقية. كانت أكثر ميلاً لمُتابعة أغانى عبد الحليم حافظ، والذى لم يكن يحبه والده ويراه ظاهرة سياسية.

فى بيتهم الصغير عرف حُباً من نوع آخر نسج الزمن غزوله بين والديه اللذين لم تجمعهما قصة حُب، وإنما زواج تقليدى بحت، تحوّل بُحكم العشرة إلى علاقة اندماج تيقن من صحته بعد وفاة والدته، ورفض والده المُكرر الاقتران بغيرها، ثُم حُزنه الدائم الذى ألحقه بها خلال سنوات ثلاث.

قال لشيطانه إن حسن السويسى شيوعى مادى يستسخف الحُب فلا تُسايره. اسمع ولا تقبل، وكُن ديكتاتوراً فى قرارك. عشت سنوات طويلة وحيداً، مُنعزلاً، مسكوناً بالخوف، مزروعاً بالشك فى كُل مَن حولك.

- هى أفضل ما عشت يا حسن.

قالها مُغتاظاً وكأنه يُدافع عن وجوده. لكن صديقه الباسم منحه نظرة سخرية واندهاش وقال له:

- أنت تسألنى عن رأيى. اسمع رأى صلاح جاهين الفيلسوف الذى تعشقه صديقتك، إنه يقول فى بساطة:

«لو فى سلام فى الأرض وطمان وأمن

لو كان ما فيش ولا فقر أو خوف وجبن

لو يملك الانسان مصير كُل شىء

أنا كُنت أجيب للدنيا ميت الف ابن».

ـ أنا لم أقُل لك أننى سأنجب غداً. سأتزوج وأكمل رسالتى، ثُم سنُدبر حياتنا معاً.

ـ تأكد من مشاعرها أولاً. ثُم فكر وقرر.

بنفسه غير حسن حجر المعسل بآخر كان فى صينية نارجيلته مُتشوقاً للاحتراق ثُم أردف:

ـ بالمناسبة. لمَ لا ترُد على فاتن؟ حادثتنى بالأمس وقالت إنها كلمتك عدة مرات ولم تجب. I know that your mode dose n,t allow لكن من الذوق أن ترُد عليها.

ـ أنا مُنشغل يا صديقى. كتاب ندى عن التعذيب يجب أن تُنجزه، وأنا أساعدها بتحمس، ورسالتى ستخرُج قريباً إلى النور.

ـ كيف وأستاذك مريض؟

ـ لقد نصحنى البعض بتغييره. لا وقت لدىّ. إما أن أنتهى هذا العام أوأصطدم بلوائح وتعقيدات تؤخر أى ترقية. لقد ناقش زميلى الذى تخرج بعدى بثلاث سنوات ومازلت أقف عند لاشىء. لقد اتفقت مع رئيس القسم على توليه الإشراف على الرسالة وسأنتهى منها قريباً. قريباً جداً.

- لكنك قُلت من قبل أنّه جاهل وانتهازى وربما يُفاجأ بموضوعك ويطلب منك الحصول على موافقة الجهات الأمنية لنشر تلك الرسالة.

صمت كرم قليلاً، ثُم تابع:

- ليس لدىَ بديل آخر.

- إلى ماذا انتهيت؟

سأله حسن، وكأنّه يقرأ دماغه، فقال:

- أخطر تطور شهده نظام العسس من عهد المماليك إلى عهد محمد على أن يكون لك مُخبرون فى كُل مكان وهُم لا يعرفون أنهم مُخبرون. كُل معلومة يدونونها بُحب، ويُقدمونها بإخلاص، وهُم مُتيقنون أنّهم لا يفعلون. لقد جلب رُسل محمد على بعض العقاقير إلى مصر يتم اضافتها إلى القهوة فتصنع هلاوس لدى شاربيها ويبوحون بُكل شىء فى جلسات أشبه بالتنويم المغناطيسى وعندما يفيقون لا يتذكرون أى شىء. لقد وشى البعض بأصدقاء وإخوة وجيران، وهو ما أذهل رجال العسس وجعلهم يُعممون التجربة على كُل البلاد.

علا عينا حسن استغراباً وقال:

- هذا جنون. لم أقرأ عن ذلك أبداً.

- أنت يا صديقى لا تقرأ سوى الأشعار والروايات والقصص. هل انتهيت من روايتك؟

- مزقتها بعد أن أعدت قراءتها. الفنان دائماً يبحث عن الأفضل. هذا هو عذابنا الأبدى.

# (٢٥)

سُليمان الحلبى قاتل أم بطل؟ بدأ كرم البرديسى مُحاضرته مُحاولاً اثارة انتباه مجموعة من طلبة الفرقة الأولى بقسم التاريخ بكلية الآداب. هؤلاء الذين تربوا على تاريخ مُختصر مُبستر تُلى عليهم جبراً فى مناهج التعليم المدرسية. قال كرم وهو يتابع ببرود ردود أفعال شباب صامت حائر يبحث عن هوية:

ـ يحكى لنا الجبرتى حادث اغتيال كليبر الذى يُسميه سارى عسكر على يد سليمان الحلبى كنموذج لغدر غير مُبررمن شاب أهوج كان سبباً فى سقوط كثير من الأبرياء. كان سارى عسكر يسير مع كبير المهندسين الفرنسيين فى بستان داره بالأزبكية عندما دخل إليه شاب عربى قاصداً إليه. ويبدو أنّ ذلك كان مُتاحاً فى ظل سياسة الفرنسيين للتقرب من المصريين، لذا فقد تركه كليبر يقترب منه معتقداً أنّه صاحب حاجة وأنّ عليه قضاءها، ومدّ القاتل يده اليسرى كأنّه يرغب فى مصافحة سارى عسكر، وبالفعل صافحه القائد الفرنسى، الذى لم يعرف أنه سيقبض

على يده ويطعنه باليد الأخرى التى تحمل خنجراً صغيراً. جاءت الطعنة الأولى مفاجئة، لكن الثانية والثالثة ثم الرابعة لم تكن كذلك وسمع الحُراس صرخة مكتومة لكليبر وحاول كبير المهندسين الإمساك بسليمان لكنه تلقى طعنة جعلته لا يكمل محاولته.

وسريعاً جرى سليمان إلى السور وقفز منه، خلفه جرى جنود وحراس كليبر، واختفى تماماً عن الأنظار، لكن الحرس الفرنسى تابعوه مفتشين كل مكان ومنزل مجاور حتى وجدوه مُختبئا خلف حائط مُنهدم فى بستان. وقال الجبرتى إنّ ذلك القاتل كان شاباً شامى الملامح، وقد سألوه عن اسمه وعمره وبلده فوجدوه حلبيا اسمه سليمان، فسألوه عن مأواه فأخبرهم أنه يأوى ويبيت فى الجامع الأزهر، فسألوه عن معارفه وهل أخبر أحداً بعمله، وكم له فى مصر من الأيام والشهور، وعاقبوه حتى أخبرهم بحقيقة الحال. ودلّ سليمان على أربعة طلبة قال إنّه أخبرهم باعتزامه قتل سارى عسكر لكن الفرنسيين أطلقوا سراح واحد منهم تأكدوا أنّه لم يعلم بالأمر.

الغريب فيما حكاه الجبرتى انبهاره بعقد الفرنسيين محاكمة للقاتل وعدم التعجيل بقتله فور القبض عليه، وترتيب من يدافع عنه، وسؤالهم له إن كان مذنباً أم لا، وهو ما علّق عليه المؤرخ الكبير قائلاً: «بخلاف ما رأيناه بعد ذلك من أفعال أوباش العساكر الذين يدّعون الاسلام ويزعمون أنهم مجاهدون.»

علامات من الدهشة علت وجوه صافية لصبية اخضرت شواربهم وفتيات اهتممن بتلوين وجوههن تعويضاً عن ايشاربات أخفت جمال شعر بعضهن. طلب كرم من طلبته العودة إلى المصادر الفرنسية المُترجمة لمطابقة رواياتها برواية الجبرتى. لكن أحد الطلبة المُلتحين فاجأه بأنّ

ما ذكره الجبرتى تشوية لحقيقة البطل الحلبى مُستشهداً بكتاب حديث بعنوان «ودخلت الخيل الأزهر» لكاتب اسمه محمد جلال كشك، لكن كرم لم يلتفت كثيراً وقال للطالب:

ـ تعود أن تقرأ التاريخ وأنت خارج المشهد لا مع هؤلاء أو هؤلاء. عموماً أنا لا أعرف كشك هذا الذى تتحدث عنه.

ـ لقد كان كليبر هذا قائداً لحملة تحتل مصر يا دكتور.

قالها الفتى بغيظ، لكن كرم هزّ رأسه دون تعليق، وخرج مصحوباً بلعنات صاحب التعليق الذى رآها يوماً فى مُظاهرات تضامن مع القُدس.

فى الممر الطويل الواصل بين قاعات مستطيلة يُحشر فيها الطُلاب لتُصب فى آذانهم حكايات وسير لم يعايشوها، أوقفه صوت أمجد سامح الذى استمع لجانب من حواره مع زميله المُلتحى هامساً:

ـ الجبرتى الذى تحبه ليس الا واحدا من الاقطاعيين الذين رأوا كُل مُناضل أحمق، وكُل مُقاوم للسلطة أهوج.

ابتسم كرم ابتسامة تُليق بأستاذ مُخضرم، رغم ما لحق صديقه المُقرّب من هجوم، ورد فى برود اعتاده:

ـ التفسير الطبقى للتاريخ. أنت يا أمجد لا تتغير.

أجابه أمجد بابتسامة مُماثلة وسارا معا قبل أن يخبره أنه سينظم معرضاً الثلاثاء القادم عن تبعية الحُكام العرب للقوى الغربية. يعرف كرم تماماً معنى كلمة معرض التى نطقها أمجد، فهى عُبارة عن صفوف من اللوحات التى تحمل صوراً لزعماء وكتابات يتم عرضها على الأرض داخل الصينية

الرئيسة بالجامعة. لمح أمجد من بعيد الطالب حُسام الحفنى رائد أُسرة المنار الإسلامية، فسألعما لحق بذقنه فأجابه أمجد أنّه دخل المفرمة. أبدى استغرابه من التعبير فحكى له أمجد عن اعتقال حسام وتعرضه للتعذيب الشديد بعد أحداث ١١ سبتمبر، فلمعت فى ذهنه فكرة تسجيل شهادته لدى ندى لكنه صمت، وإستئذن تاركاً صديقه الطالب، تدفعه قدماه نحو غرفة بآخر الممر، ليُلقى السلام والتحية على الدكتور عفت عزام رئيس القسم الذى يبدو بشوشاً على غير المُعتاد.

الفرصة سانحة لتسجيل هدف. اخرج من حقيبته السوداء ملفاً ضخماً ووضعه على بُعد سنتيمترات من نظارة الرجُل الأصلع القابع على مكتب فخم. التقطت عينا الدكتور عفت الموضوع سريعاً عندما لمح اسمه كمشرف على مشروع رسالة بعنوان «تطور النظام الأمنى فى عهد محمد على». ابتسم مُبدياً الاهتمام، ومد أصابعه لتُقلّب صفحات الملف فى شغف، ثُم قال:

ـ هذا قرار موفق، الدكتور مندور شفاه الله سيطول غيابه ولا داعى أن تتأخر. يشرفنى الإشراف على هذا العمل. سأقرأه سريعاً وأعطيك مُلاحظاتى.

لا داعى لتمثيل الحُزن. أنت تكرهه أكثر مما تحب نفسك.

شكره كرم بامتنان مُصطنع قبل أن يسمع منه عن منحة جديدة لجامعة إلينوى قد يكون له نصيب فيها لو حازت رسالته القبول. فاجأه الدكتور عفت بقوله:

ـ نادر بك مُعجب جداً بشخصيتك والتفاف الطلبة حولك. قال لى إنّه سعيد أنّ هُناك أساتذة تاريخ بعقلية فذة مثلك.

همَّ كرم أن يسأل مَن هو نادر بك هذا، لكنه تذكر الرائد نادر عبد العليم فسكت. وواصل رئيسه قائلاً:

ـ الرجل واصل بشكل جيد، ولقد أنهى لى مشكوراً رخصة سلاح بتوصية بسيطة، وهو يخدم كُل الاساتذة بشكل عظيم. احرص على علاقتك به.

أجابه بالصمت فواصل الرجل كأنّه نسى شيئاً:

ـ بالمُناسبة كانت هُناك شكوى ضدك فى مجلس القسم من أحد الزملاء تقول إنّك تكتب مقالات تاريخية فى صحيفة خليجية وتتقاضى عليها أجراً، وهذا مُخالف للقانون، لكننى سويت الموضوع بهدوء وقُلت لهم نعتبر الشكوى كأن لم تكن لأننا نعرف جيداً ظروف الزملاء جميعاً.

لعب الغيظ أكروبات بقلب كرم. كُلهم يسترزقون من كُل جهة. كُتب تُباع للطلبة جبراص رغم أنّها لا تحمل سوى تُرهات ونقولات من كُتب قديمة، ودروس خصوصية يتسابقون عليها، وأسئلة امتحانات تُسرّب لأصحاب الحُظوة وأبناء الكُبار، ومقالات وتحليلات مدفوعة يكتبها الزُملاء فى صحف الحكومة تعُظم الحاكم وتُشبهه بالخلفاء الراشدين، وعضويات بلجان مُتخصصة لتزوير تاريخ مصر. فضلاًعن تقييمات لوثائق وأوراق قديمة يتنافسون على الذهاب إليها فى مزادات سرية يُنظمها المعلم نصحى إمبراطور الورق.

كرر الشُكرعلى مضض، ورنَّ هاتفه المحمول ليلمح اسم ندى مُتراقصاً على الشاشة، فإستئذن خارجاً. أخبرته ذات الصوت المُحبب أنها تعزمه اليوم على غداء بنقابة الصحفيين، فاسترد بعض حيويته وصفائه وغادر فرِحاً.

# (٢٦)

مبنى جميل معمارياً وجغرافياً يتصدر شارع عبد الخالق ثروت الذى يمتد واصلاً بين شارع رمسيس إلى شارع الجمهورية بوسط المدينة. خطوات حالمة قضاها كرم من محطة مترو جمال عبد الناصر إلى مبنى نقابة الصحفيين، حيث تنتظره ندى صاحبة أصفى قلب وأنقى روح عرفها مُنذ ودّع والديه. ضوضاء المدينة الصاخب وكلاكسات السيارات والوجوه العابرة منحته شعوراً بدفء المدينة رغم نسمات البرودة القاسية التى لا يحبها. أى مُغامرة مجنونة تلك التى يُقدم عليها بعد قناعة سبع سنوات بأنّ العزوبية قدر الباحثين عن النجاح! أى شهوة محمومة تدفعه للإقدام على عرض زواج كان يعتبره دائماً مشروع انتحار مُغلّفاً بوصايا الدين وأصول المُجتمع! أى أقدار غريبة تُقربه من فتاة ظهرت فجأة وتجعله أسيراً دائماً لعينين صافيتين وفمٍ باسم! أى أحلام غريبة تدفعه لمُقاومة الفساد المُلتف حول كُل ما يرى ويعايش مُنذ تخرّج فى الجامعة!

سيخُبرها بحُبه رغم نصيحة صديقه حسن بالتريث. سيُحادثها بصدق

عن كُل شيء. حياته، شُغله، أفكاره، حلمه، أسرته، هواجسه، كوابيسه، خطاياه. ستكون كتاباً مفتوحاً كما لم تكُن. ستُصفى قلبك يا كرم وتنطلق دون محاذير. ستفتح لها خزائن أسرارك كاملة. ستتخلى عن حيلك ونفاقك الاجتماعى وترقد عارياً تماماً. ستمنحها حق اكتشافك وقراءتك دون لف أو دوران. ستُجيبها عن كُل شيء وستُلقى عنك هم الصمت.

صعد مُتحمساً سلالم رخامية ناعمة، دالفاً من باب جانبى صغير، متوجهاً إلى مصعد مُقابل، مُنتظرا مجيئه. دق قلبه ـ على غير المُعتاد ـ والمصعد الصغير يُغلق بابه. لمح رسوما فرعونية على جُدران المصعد فتذكر أنّه باحث تاريخ لم يلتفت يوماً لقراءة قصص حُب الذين مضوا، واقتصرت اطلاعاته على التاريخ السياسى.

فتح الباب بعد لحظات ليجد صالة واسعة تتناثر بها موائد بسيطة وكراسى بلاستيكية تحتضنها فى حميمية بالغة، يجلس عليها رجال ونساء مُنشغلين بالثرثرة. لا يسمع شيئاً عندما يلمح فتاته فى ركُن بعيد تجلس وبين يديها كتاب. ابتسمت فجاوبها مُبدياً أسناناً صفراء طلاها النيكوتين عقداً من الزمن.

أنيقة كما رآها دائماً. بنطال أسود يلتصق برجلين ملفوفتين، ينسدل عليهما تى شيرت سماوى تحت جاكيت بديع كُحلى، ووجه جميل مُكتسٍ بالحُمرة، يكاد يشم المساحيق، وعينان رسم الكُحل حدودهما.

ـ كرم.

صوت ملائكى. دفقة حنان مُمتع. عصفور من الجنة يُزقزق فرحاً. لم يعرف حلاوة اسمه من قبل. مدّ يده لتلتقط دفئاً رقيقاً من أصابعها.

ـ مشغول عنى؟

ـ لا أستطيع.

لو قال الحق لأخبرها أنه مشغول بها.

غزاه الصمت، ويتبسم. لاحظت نظراته المُتفرسة فى عينيها. فسألته: مابك؟

أراح خده الأيمن على كفه، مُستنشقاً فى تلذذ عطرها المُفضل، وقال:

ـ أنت جميلة جدا.

ابتسمت أكثر، وهى تسأل:

ـ هذا غزل؟

ـ لا..

صمت قليلاً قبل أن يضيف:

ـ هذا حُب.

يأيُها الذين آمنوا بالحب أعلن القلب انتصاره. واصل يا كرم مجدك، فتلك لحظات لن تتكرر.

ـ أنا أُحبك يا ندى.

صمتت. فكرر:

ـ أُحبك بشدة. لم أكُن كذلك. لا أرى سواكِ. أراك كُل يوم. فى الجامعة، فى المحُاضرات، فى كُتب التاريخ القديمة التى أزورها، فى رسالتى وأبحاثى،

ومقالاتى. فى أحلامى وأنا نائم أو يقظ. أنت صرت كُل شيء. بالنسبة لى لا شيء سوى أنتِ. لم أعرف هذا الشعور من قبل لكن ما أُقسم عليه إننى أُحبك.

رقصت دموع الفرحة فى بؤبؤيها وقالت:

ـ وأنا يا كرم.

قطع النادل لحظتهما النادرة سائلاً عما يطلبون. بادرت ندى طالبة طبقين مشويات.

ـ mix gril

وتمتمت قائلة لكرم:

ـ انا عازماك. اتفقنا.

أؤمئ مُبتسماً وسألها:

ـ هل تتزوجيننى؟

صمتت قليلاً ولامست خُصلات من شعرها انزلقت من تحت إيشارب أزرق بديع:

ـ أفكر.

أخرج سجائره، فأعادتها إشارة من كف رقيقة تمدها أمامه قائلة:

ـ بعد الأكل.

حكت له كُل شيء. حياتها الأسرية الهادئة، أبويها العظيمين، شقيقتها الطيبة، جنونها بالشعر والكتابة، دراستها، شغفها بالأدب الفرنسى، شُغلها،

حُبها الأول، وصدمتها القاسية. أخبرته عن أنّها راهنت روحها على حُبه وكسبت الرهان. أسمعته قصيدة كتبتها عنه تقول كلماتها:

بالأمس ترك القمرُ سماءه

تبعته كل نجوم الكون

واحتلوا وجهك.

أحقاً أحبك؟

وهل مثل هذا سؤال؟؟

أُحبكِ حُباً

يَحبُّ المحبون أن يعرفوه.

ـ ما أجملها كلمات.

فتح لها كرم أبوابه ونوافذه لتدلف إلى عقله وروحه كحارس ليلي يُضيء بكشافه سراديب ظلام دامس.

كان ذلك يوماً تاريخياً لن ينساه كرم أبداً، وكانت تلك لحظات رائعة حفرت تفاصيلها فى ذاكرة ندى كيوم نجاحها بل أكثر.

# (٢٧)

فى مخدعه وحيداً مع الهواجس والجبرتى وكُتب التاريخ.

يكتب مقالاً للجريدة الخليجية التى اتفق مع ادارتها على إرسال مقالٍ كُل أسبوع مُقابل خمسمائة دولار. لا يتذكر كرم تماماً كيف تعرّف على مراسلها، لكنه يعتقد أن مُراسل بالجريدة ربما كان أحد معارف الدكتور محمود مندور استاذة العظيم واتصل به من خلاله.

لا يُطالع ما يكتبه بعد نشره، فالجريدة غالباً لا تدخل مصر منها سوى نُسخ معدودات، وما يهمه أولاً وأخيراً هى تلك المُكافأة المُجزية التى تفى بثمن سجائره وبيرته وملابسه الأنيقة وعطره الأصلى.

لايعلم ماذا عليه أن يفعل بعد أن يتزوج؟ من أين يُنفق لو تنازلت الجريدة عن خدماته؟ كيف يعيش ويتزوج ويُنجب براتب الجامعة الهزيل، وبقناعته وكبريائه المانع للسقوط فى بئر الدروس الخصوصية؟

يتذكر وجه ندى الملائكى الغارق فى النقاء وهى تُحدثه عن الحُب الذى يفتح أبواب النجاح. يتذكر تأكيدها له أنّ الزواج لا تكلفة له مادام الطرفان يعلمان جيدا من أين عليهما بدء الطريق وإلى ما ينتهى بهما. يتذكر فرحتها الراقصة فى عينيها عندما باح لها بُحبه. يتذكر ترحيبها بالزواج منه رسمياً بعد أن تنتهى من كتابها الصادم، وينتهى هو من رسالته المؤجلة. «سنؤجل الخطوبة الرسمية إلى الإجازة الصيفية. لكن عدنى ألا تلعب بذيلك». هكذا قالت له ضاحكة بعد أن طلب منها الزواج.

يكتب على حاسبه الآلى وأمامه هرم سجائر مُطفأة عن أحمد حلمى صاحب الموقف الشهير بالقاهرة تحت عنوان «سجين الوطنية» مقالا يقول فيه:

«لا يوجد مصرى لايعرف أحمد حلمى. من أقاصى الصعيد إلى كافة أنحاء الوجه البحرى يعرف الناس ذلك الميدان الشهير الذى تصطف فيه سيارات الأجرة المسافرة إلى كل المدن والمحافظات. فى هذا الموقف يتجمع المصريون باختلاف لهجاتهم وعاداتهم وأشكالهم منذ عشرات السنين دون أن يعلم أحد منهم من هو أحمد حلمى. حتى كثير من الصحفيين والمثقفين لا يعرفون من هو هذا الشخص الذى أطلقوا اسمه على الموقف الأكثر شهرة.

كان أحمد حلمى بطلا كبيرا خاض معارك جليلة وناضل نضالاً عظيماً من أجل مصر، وهو بالمناسبة صحفى من أوائل من سخروا أقلامهم مطالبين باستقلال مصر. ولد الرجل فى شهر فبراير عام ١٨٧٥ ميلادية فى حى الحسين بالقاهرة. والمُتاح عنه من معلومات يفيد أنه بدأ حياته العملية كاتباً فى دواوين الحكومة ثم تعلم اللغة الفرنسية، واتجه بعد

ذلك للعمل فى الصحافة فى جريدة اسمها «السلام» بالإسكندرية عام ١٩٠٠ ميلادية، ثم اتصل وقتها بجريدة أخرى باسم «الهوانم» وكتب فيها مقالات عديدة، إلا أنّ إصدار مصطفى كامل لصحيفته الشهيرة «اللواء» فى العام نفسه كان بمثابة نقطة انطلاقة لكثير من الكُتاب الوطنيين ليسارعوا للكتابة فيها، وبالفعل طلب أحمد حلمى العمل فى «اللواء» واتصل بمصطفى كامل واتفق معه على الكتابة فى الجريدة، ومنها بدأت مقالاته الوطنية الصاخبة. وكان أحمد حلمى واحدا ممن نقلوا قصة «دنشواى» إلى العالم، حيث سافر إلى البلدة الصغيرة ليرسم بقلمه صورة ضحايا المحاكمة الظالمة.

وبعد وفاة مصطفى كامل عام ١٩٠٨ ميلادية اختلف أحمد حلمى مع على فهمى مدير تحرير جريدة «اللواء» وتركها ليصدر جريدة جديدة باسم «القطر المصرى» يصُب منها غضبه على الاحتلال وجنوده. وفى مقالة شهيرة كتب «حلمى»: «إنّ مصر لم تستفد شيئاً من أسرة محمد على غير الشقاء والبلاء والظلم والضنك وضياع الحقوق.» وهو ما جعله عرضة للاتهام بالعيب فى الذات الخديوية، وتم بالفعل تقديمه للمحاكمة التى تأمر بتعطيل جريدته وسجنه. وفى السجن يكتب الرجل أول دراسة علمية عن حياة السجون فى عهد الاحتلال وكيفية مُعاناة المساجين بؤساً وقهراً.

وفى عام ١٩١٤ وبعد سلسلة من الملاحقات القضائية يصدر «حلمى» جريدة جديدة باسم «المشرق» ليطرح من خلالها أفكار الحرية والليبرالية والاستقلال. ويتعّرض الرجل بعد ذلك لخسائر مالية فادحة ويصدر جريدة زراعية باسم «الزراعة» عام ١٩١٩ لا تستمر كثيراً، ويتنقل من جريدة إلى

أخرى غير عابئ بمشاكل الحياة حتى يصيبه المرض والوهن ويلقى ربه فى يناير عام ١٩٣٦ بعد أن ترك آلاف المقالات الوطنية والاجتماعية وعشرات التلاميذ المخلصين وأبناء وأحفاد وطنيين وموهوبين منهم الفنان صلاح جاهين حفيده الذى ولد فى ديسمبر عام ١٩٣٠.»

أنهى كرم مقاله ويدوس علامة save باستخدام الـmouse الصغير الذى جعله أسرع فى الكتابة قبل أن يصُب زجاجة من مُدخراته من البيرة فى عدة أكواب زجاجية متتالية. هُنيهة ويشعر بالنمل أرتالاً تغزو جبهته، وثمة فأر صغير يجرى داخل دماغه. تثاقل رأسه رويداً رويداً، فلمح وجه الرائد نادرعبد العليم غاضباً على غير المُعتاد، وهو يشير بسبابته فى وجهه قائلا: يجب أن تتعاون معنا. مَن ليس معنا، فهو ضدنا.

# (٢٨)

سكاكين مُشهرة، وعيون قاسية ترمى شذراً من سجيل فى وجوه مَن يجابهها. لن تقدر على المواجهة وسينحِلون لحمك ويشوونه أمام عينيك ثم يمضغونه فى استمتاع وأنت تُبحلق فيهم غير مصدق ولا مستوعب ما يجرى. سيزرعون جنوحهم وغلهم بين أضلعك رايات وجع تسحب روحك رويدا حتى توقن بانهزامك. سيحفرون قبرك فى سرور وحبور مَن يُلقى عن كاهليه جوالا من الطوب حمله ومشى به ساعات طويلة.

ليس لك أن تعترض، ولا يمكن أن تقاوم فاستسلم بسرعة. اختر الراحة الأبدية قبل أن تُفرض عليك. استسلم لهم فلا ثمة أمل أو أى قدرة على المقاومة. اقفز إلى الموت، حيث ينتظرك أحباء أحبوك لنفسك وملئوا قلوبهم خوفاً عليك. اقفز إلى ذلك الرجل الصبوح الذى تتمثل وجهه على بسمة صافية رائقة تشع بالرضا والاطمئنان. اقفز إلى حيث تنتظرك ذات الرداء الأرجوانى التى لا تذكر منها سوى وجه أبيض مليح وعينين زرقاوين وجسد مُترهل مريض بالسمنة. كانت تهدهدك فى زمن

لم تكن فيه سوى قطعة لحم يابسة هدّها الضعف واستوطن فيها المرض. ودّع حبيبتك الصافية الباسمة دائما رغم هذا العذاب وتلك الأوجاع. أتحسب الساذجة أنّ بإمكانها المقاومة؟ أى مقاومة تدعو إليها وهى تختبئ فى عالم الشعر والخيال.

لا ترتعش. لماذا كل هذا الرعب من صبية لا يساوون فى دنيا العِلم جنيهاً. لم يقرأوا كتاباً ولم يذوقوا إبداعاً ولم تُنهك عقولهم فى التفكير فى بحث كالذى خطته يداك. مالك واقفاً أمامهم كالقط المبلول، أتخشاهم وهم أحق أن يخشوك؟

كبيرهم تكلم بصوتٍ حاول أن يبدو أجش. قال كلمات تمهيد لنهايتك، وأنت لا تذكرها الآن. ربما طلب منك ترديد الشهادتين، أو الاستعداد للقاء الله. أتعرفه؟ رُبما بشّرك بجنان عدن التى تجرى من تحتها الأنهار. لكن بأى حق تستحقها. لاناضلت ولا قاومت ولا أحسنت.

وجهه القاسى وملامحه الجامدة تُشبهه بأبى جعفر المنصور قاتل العظام والجبابرة الذى كان يسفح الدماء دون حساب. لم يقايضك أو حتى يُنذرك وإنما تلى عليك حكم الموت كمن يقرأ وصفة طعام فى مجلة نسائية. الموت هو نصيبك يا كرم. قُضى الأمر، لا استئناف ولا نقض ولا طعن ولا حتى مُفتى يقول رأيه.

خمسة أو يزيد لا يكاد أن يُحدد بالضبط، انهالت سكاكينهم فوق جسدك. لم تتحرك ولم تهرب واستسلمت كمن يهبط من القطار فى محطته الأخيرة. تصرخ، لكن لا صوت لك. كأنك فى صحراء خلت من الخلق سوى هؤلاء القتلة أو فى جوف جُبٍ عميق.

استيقظ كرم مفزوعاً على رنات هاتفه. المحمول الآن أصبح تليفوناً ومنبهاً وساعة. بنظرة وحيدة شعر بانزعاج التأخر عن موعد مُحاضرته. كانت الساعة تشير إلى العاشرة والنصف صباحاً، وهو ما كان يعنى أنّ أمامه أقل من نصف ساعة ليكون فى الجامعة. غسل وجهه سريعا دون صابون وصفف شعره إلى اليمين قليلاً، ثُم ابتلع قُرص fish oil بقليل من النسكافيه سريع التحضير، ولبس بذلة الأمس الزرقاء على قميص بُنى فاتح ورشّ عطر hugo boss وحمل حقيبته الجلدية، وسجائره ونظارته الشمسية وألقى نظرة عاجلة على وجهه فى المرآة ثُم غادر.

فى المترو المُزدحم كعادته تذكر أنّ اليوم هو الثلاثاء موعد المعرض الذى سينظمه الطالب أمجد سامح عن خنوع الحُكام العرب لدول الغرب. لابد أن يقف عنده ليشاهده بإمعان، فأمجد ـ رغم اختلافه فكرياً معه ـ نموذج مثالى لشاب يعرف كيف يقاوم القُبح، وهو على أى حال جرىء، ومثابر، ومثقف. فكر قليلاً فى أن يستعين به فى مشروع ندى عن التعذيب ليُقدم لها المُساعدة المُمكنة. حُسام الحفنى هو الآخر مصدر مُهم يمكن أن يُدلى بشهادته فى هذا الكتاب. سيكون مُهما أيضا الاستعانة بشهود ليسوا ضحايا مُباشرين، لكنهم رأوا وقائع موجعة فيها انتهاك لحقوق الإنسان.

كُل هذه الوجوه التى تُبحلق حولك فى بلاهة مُنتهكة الحقوق، مُعذبة الأرواح قبل الأبدان. أولئك الذين ولدوا فى البؤس، واعتادوا المُعاناة، والعذاب مُذ خطت أقدامهم على الأرض. هذا الرجل الكهل الذى يقف إلى جوار باب المترو يتمايل يميناً ويساراً فى عجلة من أمره حتى يصل شُغله سريعاً. ما بال الخوف يُغطيه كعباءة شتوية من رأسه حتى قدميه؟ وتلك السيدة السمينة التى تجلس على موضع يخُص ثلاثة رجال مجتمعين،

لمَ تُكشّر غضبا مُلقية شفتها السفلى كمطب صناعى؟ هل سمعت شتائم وأوصافاً شائنة من مرءوسيها وأنكرتها مُبتلعة الإهانة دون التفات؟ وذلك الرجل البادى أباً لعدة أولاد، هل هو حزين بسبب مصروفات لا يمكنه تدبيرها؟ وذلك العسكرى المرتعشة أصابعه كمن يحمل على وجهه جبال البحر الأحمر، ماذا يهمه؟ العبودية لزوجة الضابط وأبنائه أم الخوف من تصديره فى المُقدمة فى أى مواجهة مع مجرمين؟

صعد كرم مُغادراً فى طريقه المُعتاد حاملاً أفكاره وهواجسه ماداً خطواته نحو الصينية الرئيسة للجامعة. لم يجد شيئاً يدل على معرض، فعاين وجوه الواقفين بحثاً عن أمجد الذى وجده جالساً على الرصيف وإلى جواره مُهر مُلفت، اتضح له عندما دنا قليلاً أنها غادة سالم. صافحهما فى تودد وسأل أمجد عن المعرض الذى كان ينتوى عمله. فاجأه أمجد بأنهم منعوه قبل إقامته.

ـ شخص ما وشى بى إلى أمن الجامعة، فأمسكونى صباحاً عند الباب وفتشونى جيداً وأخذوا اللوحات والأقلام الفلوماستر والصور والمُلصقات، واحتجزونى ساعتين، ثُم تركونى.

قالها أمجد وملامح الضيق ترتسم على وجهه.

ـ خُذ بالك. كثير ممَن حولك مخبرون. يجب أن تحترس.

أجاب كرم رامياً بنظرة شك على وجه الفتاة ذات الشعر الثائر والبنطال الجينز المثقوب الجالسة إلى جوار أمجد.

ومضى إلى محاضرته.

# (٢٩)

صداع شديد دفعه لطرق باب جاره الطبيب. لمح عم صالح البواب ساحباً قدميه صاعداً بخفة. نُتطفلا كعادته بادره:

ـ الدكتور خرج. لمحته نازلا قبل ساعة.

الخامسة مساء. وقت ثقيل عادة ما يخلد فيه الطبيب الشاب إلى النوم، خاصة لو كان عنده نوبتجية عمل فى الليلة السابقة. رمى البواب ذا العينين اللامعتين بنظرة ارتياب، ثُم قرر النزول للصيدلية القريبة ليشترى إسبرين. ما باله يعرف كُل شىء. فلان نزل أو لم ينزل وكأنه وزير للأمن العام. عمله؟ ربما، لكن مُنذ متى والناس تؤدى أعمالها بضمير. لم تتجاوز قدماه درجات الطابق الثانى حتى رأى جاره المُستهدف صاعداً إليه.

ـ أين كُنت؟

سأله كرم باشاً. مدّ أحمد يمناه مُصافحاً وهو ينهج قليلاً، ثم أجاب:

- فى الصيدلية. تصور عندى حالة برد ومخزونى من الأدوية قارب النفاذ. لم أجد «بنادول» أو غيره.

ابتسم كرم عندما شعر بثقل جسم جاره وهو يصعد مُستنداً إليه وقال:

- باب النجار مخلوع. كُنت أبحث عن إسبرين. الصُداع يضرب رأسى.

- تعال. عندى.

دخلا بينما قرأ كرم نظرات تلصُص لعينى صالح الذى تباطأت خطواته صاعداً على السلم. ما باله ينظر بخُبث إليهما. إنّه جدير بلقب بصاص العقار المكشوف. لو أدرك زمن قايد نار أو ابراهيم إمام لقتل سحلاً لسذاجته.

دلفا إلى الداخل المُظلم، وداس أصبع أحمد نور الصالة. جلس كرم ويده تجس رأسه تألماً، وغاب أحمد قليلاً قبل أن يناوله قرص إسبرين وكوب ماء، ويسأله:

- هل تشرب قهوة يمنية محوجة؟

- نعم.

- دقائق وتكون جاهزة.

صُداع الملل والدُخان المُكثف الذى تتجرعه كُل يوم. نيكوتينك له الغُلبة فى شرايين جسدك. لا فيتامينات ولا معادن كافية لإنسان لا يأكل إلا وجبات جاهزة محدودة ويدخن علبتى سجائر، ويزدرد ستة فناجين قهوة كُل يوم. فضلاً عن زجاجة «استلا» كُل ليلة. حالة الخدر الكئيبة

لا تُناسب حياتك الجديدة بعد ندى. أنت فى حاجة لصحة أوفر، ويقظة أطول، وقدر من الاعتناء بنفسك.

تتثاءب مُتذكراً كيف اخترت طريق الشراب هروباً من فساد قمىء، وانتهازية قبيحة تراها كُل يوم حولك. تتذكر كيف سحبت أول نفس دُخان من سجائر والدك وأنت صغير، ثُم دفعك الحُزن المفاجىء لوفاة والدتك أن تتحول إلى مُدخن تقليدى يحتجز جُزءاً من مصروفه لشراء السجائر كُل يوم، حتى علم والدك من أحد أصدقائه فزاد مصروفك دون أن يؤنبك. كم كان جميلاً هذا الرجل الصامت كتمثال، المتأمل فيما حوله ككاميرا، المُهتم بالقراءة كغذاء دائم ما دام يتنفس. كان جداراً من الصُلب يستند إليه ظهرك عند تقلبات الزمن. يمنحك حُباً وعطفاً كنهر يتدفق ويمنح عطاءه دون حساب. يوم رحل فى ليلة صيفية صافية كان قد انتهى على التو من قراءة كتاب «الثورة العرابية» لصلاح عيسى، والذى وصفه بأنّه جُهد تحليلى رائع. كان المرض قد بدا فاضحا على وجهه المائل إلى السمرة، والذى ازداد اسمراراً بصورة غير طبيعية فى الأيام الاخيرة، وكانت عيناه زائغتين، تكادان تضيقان أكثر ولم يعد له اهتمام بتسريح شعره أو حلاقة ذقنه باتقان. هُزال واضح سيطر على جسده عدة أيام صاحبه فقدان شبه تام فى رغبة الأكل، ثُم تكرر نوبات دوار دفعت شقيقته وزوجها إحضار طبيب اكتفى بروشتة مقويات وفيتامينات وتحذير من الاستمرار فى التدخين. يومان فقط مرا على زيارة الطبيب وفى الثالث ذهب كرم إلى الجامعة بعد أن أطمأن على والده الذى كانت هُدى إلى جواره، وعندما عاد لاحظ كم من الوجوه القديمة وبعض الجيران

يربتون على ظهره مُطلقين العبارة الحزينة «شد حيلك». على سريره الخشبى المُطعّم بسلال من الفاكهة رآه مُتمدداً على ظهره والصفاء يكسى وجهه الذى كان شاحباً قبل ساعات.

دخل الطبيب الذى حولته ظروف غياب زوجته كثيراً إلى مُعد شاى وقهوة حاملاً كنكة صغيرة إلى جوار كوب زجاجى على صينية فضية مُستديرة، وصبها بحرص كى لا يتبدد وجه القهوة وقال لكرم:

ـ أريد أن أفتح عيادة.

استغرب كرم قول جاره ويرفع حاجباه مُندهشاً، قبل أنّ يستكمل أحمد قائلاً:

ـ العمل فى قصر العينى هزيل. تصور أن بدل العدوى عندنا ثلاثة جنيهات فى الشهر، وكثيرا ما يسقط أطباء العناية المُركزة بميكروبات مختلفة، ويضطر بعضهم إلى التحول مريضاً فى المُستشفى ويفاجأ بتحميل تكاليف علاجه عليه ليتم خصمها شهرياً من راتبه. هل تعرف كم يبلغ هذا الراتب؟

هزّ كرم رأسه نافيا، فأكمل مُحدثه:

ـ ٤٥٠ جنيهاً. تصور أنا أعمل ثلاثة أيام فى الأسبوع كُل يوم ١٢ ساعة بـ٤٥٠ جنيهاً. هذا الراتب عليك أن تأكل به وتلبس وتركب مواصلات، وتدُخن، وتتعالج، وتُحشش.

وانفجر ضاحكاً، فلاحت ابتسامة بسيطة على وجه كرم، الذى أشعل سيجارة، تبادل أنفاسها مع رشفات من القهوة. وقال ساخراً:

ـ لا عليك يا دكتور. افتح عيادة لو كان ذلك باستطاعتك. وبع ما لديك من علم. إلى متى ستظل مُضحياً من أجل الآخرين؟

ـ لا تسخر منى يا بروفيسور.

ـ لا والله أنا لا أسخر. أنا أتحدث بصدق. كُل إنسان يبيع ما لديه مُقابل مال أكثر. لمَ لا تفعل؟

موجات من الضيق تلاطمت فوق وجه أحمد الذى قال:

ـ وأنت ماذا تبيع يا رجل؟

لمعت فكرة فى رأس كرم، حرصت ملامح وجهه على كتمانها، وبدا باسماً فى برود ثُم أجاب:

ـ أبيع كلاماً يعتبره الناس علماً. رُبما محاضرات، رُبما دراسات، أو مقالات أو كُتب.

وقف أحمد فجأة وقال لضيفه:

ـ بمُناسبة الكُتب. عندى سبق جيد جداً لصديقتك التى تكتب كتاباً عن التعذيب.

ـ خير؟

بدا كرم مُهتماً. فاستطرد أحمد حاكياً:

ـ طبيب صديق لى شاء نصيبه أن يتقدم بعد تخُرجه للعمل فى مصلحة السجون طبقاً لإعلان منشور. عمل فترة فى مُستشفى ليمان طُرة، ثُم نُقل بعد ذلك ليعمل داخل سجن العقرب بعد أن حصل على مزايا مالية

جيدة. هُناك فوجئ أنّ مُهمته الكشف على مَن يتم تعذيبهم وتطبيبهم خلال فترات التحقيق، وأخبرنى أن جميع مَن يتعرضون للتعذيب هُم سجناء سياسيون مُعظمهم من المشتبه فى انتمائهم لجماعات إسلامية مُسلحة وهُناك أفراد مُتهمون بتشكيل تنظيمات شيعية، وآخرون ربما قلة مُتهمون بالفكر الشيوعى. المهم فقد سألنى إن كان يمكننى أن أوصل شكوى سرية إلى منظمة من المنظمات الدولية لحقوق الإنسان بخصوص شاب يعتقد أنّه سيموت قريباً من هول ما لاقى من التعذيب. قُلت له أننى أعرف شخص ما ينتوى كتابة كتاب عن الانتهاكات، فضحك وقال لى: أى كتاب هذا ومَن الذى يتحمل طباعته، وقال لى إن كان لدى طريقة لإيصالى شهادة بشأن تعذيب ذلك الشاب إلى المنظمات الدولية، فإنّه مُستعد لتقديمها مُشترطاً ألا يعرف أحد عن دوره أى شىء.

ابتسم كرم مُتذكراً وجه حبيبته المُشرق وحماسها لتوثيق جرائم التعذيب، فقال لأحمد:

ـ احضرها فورا. ثق تماما أن صديقك فى أمان. لا كلمة عنه، وسننشر الكتاب داخل مصر ويمكن أن نُرسل منه نُسخاً إلى منظمات حقوق الإنسان.

أنهى كوب القهوة، ودفن سيجارته فى منفضة كريستال، وهتف فرحاً:

ـ حبيبى يا دكتور.

# (٣٠)

فاتن أمامك. بجيدها المنحوت كمئذنة عثمانية تشُع بهاء وروعة. عيناها الناعستان تُخفى كثيراً من المشاعر الغامضة تجاه هذا العالم المتوحش الذى تمنحُه كرامتها وشرفها حتى تأكل وتشرب وتحيى كما الآخريات. فى الكافيتيريا الهادئة التى تطلّ على نيل الجيزة، والتى تحمل اسم «الحمام» تُقابل بنظرات عتاب عينيك المُعتذرتين. تُخبرها أنّك تغيرت وأنك لن تتورط فى خيانة مَن تُحب حُبا لم تعرفه روحك من قبل. تبتسم فى برود وهى ترسم لك باباً مفتوحاً يسمح بمرورك. الحياة صعبة، والضغوط عديدة، والعلاقة التى امتدت بين جسديكما كانت مُحددة الشروط وخاضعة لعقد غير مكتوب يرفع شعار «لا ضرار». هى تعلم ذلك تماماً، وتعيه، لكن شىء من المودة تكنه لك دفعها أن تُلح فى رؤيتك.

تحدث كرم فى سلاسة كمَن يُعيد مُناقشة التعاقد ويقول بملامح توحى بالصدق أنه قرر الاستقامة. قبل دقائق أخبرته ندى أنّها ستسافر فى مهمة عمل إلى الأقصر لثلاثة أيام لتغطية مهرجان سياحى تُنظمه

وزارة السياحة هُناك. ودّعها بكلمات محبة، وأخبرها أنّ لديه مُفاجأة سارة عندما تعود. استخلفته أن يُخبرها فاضطر إلى الإشارة إلى عثوره على شاهد جديد فى عملها التوثيقى الذى تنتوى انجازه.

فاتن قالت له فى امتنان إنّها تتمنى له كُل خير وسعادة، لكنها سألته إن كان قد حكى لحبيبته كُل شىء يخُصه، فأومأ برأسه.

قالت بنظرة ناصحة:

ـ المرأة تعفو عن كُل شىء عدا الكذب.

ـ والخيانة؟

ـ طبعا، لكن لا يوجد خائن يمكنه أن يصدُق.

أجابها كرم وسحب من الدُخان تخرُج من فيه:

ـ معك حق. الصراحة هى البداية لأى قصة حُب.

تذكر حاله قبل ندى، والعُزلة تنسُج خيوطاً كئيبة حول حياته فيندم على سنوات عابثة ضاعت دون حُب. عرف نساء كثيرات امتهنت تجارة الجسد، لكن فاتن كانت أطيبهن وأكثرهُن رضا. ثمة علاقة إنسانية ربطته بها رغم اتفاقهما المالى.

سألته فاتن عن تكاليف الزواج، فقال لها صادقاً:

ـ لم أُخطط لشىء بعد. ليس معى مُدخرات، وليس عندى سوى الشقة التى ورثتها عن أبى. رُبما أقترض أو أبيع الشقة، وأستأجر غيرها.

سرحت فاتن قليلاً كأنما تذكرت شيئاً ثم هتفت:

ـ لمَ تبيع الشقة أو تقترض؟ ألم تُخبرنى من قبل أنّ لديك وثيقة أثرية يُمكن أن تبيعها بعشرات الآلاف؟

استغرب كرم ذلك، وامتحن ذاته كيف أخبرها ومتى؟ وتذكر أنه دخل فى بعض الأحيان فى سُكر وربما يكون قد باح لها بشىء. سألها فى ضيق:

ـ متى أخبرتك بقصة الوثيقة؟

ـ فى ثانى مرة أزورك فيها، عندما قُلت لى إنّ أباك كان عالم آثار سابقاً وأنه ترك لك أوراقاً لمحمد على باشا يُمكن أن تبيعها لتُجار التُحف بمبالغ خيالية، وعندما سألتك لمَ لا تفعل، قُلت لى إنك تدخرها لوقت حاجة.

اللعنة على «استلا». كم شخصاً من المُمكن أن تكون قد بُحت له بخبيئتك وأنت غائب عن وعيك؟ اشكر لها تذكيرها لما انتويته من قبل. ما قيمة الأوراق إن لم تجلُب منفعة؟ لقد حفظت الوثيقة وحللتها وعرفت كُل ما فيها، وليس للورق المُهترئ أى فائدة سوى ذلك. اقتراح وجيه يا عزيزتى.

سيفكر فى بيعها. لديه صور ضوئية عديدة، وما فيها من معلومات لن يستخدمه أى مُشترى وثائق نادرة أو عاديات لن يهمه سوى الاقتناء. الدكتوراة قاربت الميلاد، وزواجه بندى سيكُلفه كثيراً ولا حل سوى إطلاق سراح العصفور السجين ببيته مُنذ أكثر من عشر سنوات.

مَن يشترى وثيقتك؟ يسأل نفسه وأمامه فاتن الرائعة. كم أنت حنونه يا فاتن. يتذكر زميله غريب صبحى الذى اقتنص الدكتوراة مُعتمداً على وثائق أطلعه عليها المعلم نصحى. ألم يكن ذلك التاجر المُخضرم راغباً فى

شرائها يوماً ما؟ ألم يعرض أموالاص عديدة على والدك الموظف البسيط سالم البرديسى نظيراً لها؟ ألم يسرقها والدك ليُخفيها فى بيتكم، ويبقى إلى جوارها دون أى فائدة تُجنى؟

انتشلته رنات هاتفه من دوامات تفكيره فيما لم يُفكر فيه من قبل، وأجاب ليجد جاره الودود الدكتور أحمد يُخبره أنّ الموضوع الذى حكاه له يسير بصورة طيبة. لقد وافق زميله على تقديم شهادة مكتوبة بخط يد مُعتقل يتعرّض للتعذيب لهم. الشرط الوحيد الذى طلبه ألا يكون له أى ذكر فى الكتاب، وأن تصل تلك الشهادة لمؤسسة أو مُنظمة حقوقية تُناهض التعذيب. «ستعدنى بذلك» يقول له مُحدثه، فيرُد بثقة: «طبعاً. طبعاً».

عاد لفاتن التى تطلب سيجارة، رُبما هى الأخيرة التى ستخرُج من علبته إليها. أخبرها أنه سيفكر فى بيع الوثيقة، مُجدداً ثقته فيها أنّها لا يمكن أن تبوح بشىء لأحد. أجابته بنظرة عتاب قائلة:

ـ عيب. أنت تعرف أننى لا يمكن أن أفشى سراً.

تذكر سوابقها، لم تكن يوماً مُبتزة أو ضاغطة. عرفها بسلام وصاحبها بسلام، وهاهما سيفترقان بسلام. تمتم فى همس:

ـ طبعاً. أعرفك يا فاتن.

سألها عن حالها، فأجابت بُحزنٍ صادق:

ـ كما العادة. يوم حُلو وآخر مُر. العمل موجع فى بعض الأحيان، لكن ليس لدى اختيار آخر. أعرف أنّ كثيرين يروننى رخيصة، لكننى لم أُرخص نفسى، وإنما الأيام والظروف.

تأملته بقسماته الهادئة، وبوجهه الصاحى وعينيه الجاذبتين وكأنها تودعه، قائلة:

ـ عش حياتك كما ينبغى. لا يصح إلا الصحيح. الزواج حُلم جميل، ومشروع استقرار حقيقى. الأسرة الطيبة هى كُل شىء. أن ترى عينين تحبهما هو أجمل شعور فى الوجود. كُل شىء ينتهى عدا اللحظات الصادقة.

شكُرها بمودة، فقامت مُستئذنة لتمنحه قُبلة وداع حقيقية مُتمنية له حياة هانئة.

# (٣١)

مشهد مألوف كثيراً ما يراه. جمع من الشباب يحتشدون أمام قُبة الجامعة يعلو هُتافهم سماء غائمة. وجوه مُشرقة يغلُبها الحماس تُضيء أملاً دائماً بالقدرة على الجهر بالرفض والدعوة إلى التغيير. رُبما تتغير الملامح من مُظاهرة طلابية لأخرى فمُظاهرات التيار الدينى غالباً ما تغلُبه اللُحى ويتكرر فيها النقاب، يوجد فصلاً واضح بين الإناث والذكور، بينما تتنوع وجوه وتعبيرات وملابس المُشاركين فى مُظاهرات التيارات المدنية خاصة اليسارية، وتقف البنات إلى جانب الشباب فى توحد يُؤكد أنّ المرأة شريك رئيسى فى العمل السياسى.

فى ذلك اليوم الغائم والذى يُنذر بمطر شتوى موسمى لا تعرفه القاهرة كثيراً رأى كرم جموع اللُحى تصطف فى صفوف متوازية تخطو بخطوات مُنتظمة ضاربة أسفلت ساحة الجامعة بصوت هادر يثير الفزع، خلفها صفوف من العباءات النسائية متنوعة اللون تتبعها فى صمت. النداء المُعتاد الذى يفتح نوافذ القلق فى ذهن كرم البرديسى والذى طالما

سمعه وهو طالب فى الجامعة أوائل التسعينيات هو «إسلامية إسلامية. لا شرقية ولا غربية». أى إسلامية تطلُبها الجموع الحاشدة كحل لما تشهده البلاد من فساد وُظُلم واستبداد؟ يفكر كرم وهو يلمح وجه حُسام الحفنى رائد أسرة المنار وقد عاد السواد إلى وجهه بفعل لحية نابتة كان قد محها قبل أسابيع فيما يتصوره هؤلاء الأنقياء من معانٍ لكلمة «إسلامية» فى شرق تسوقه ديكتاتويات ماكرة توظف الدين لخدمة عروشها. لقد كان التاريخ الإسلامى شاهداً على قهر وقمع الشعوب تحت لافتات «الخلافة وأولى الأمر». إنّه يعتبر أنّ المُشكلة لم تكُن يوماً فى الشعار المُستخدم من قِبل السُلطة لترسيخ وجودها، بقدر ما كان فى الأداء الفعلى لتلك السُلطة تجاه الشعوب المغلوبة على أمرها. باسم الاسلام قُتل كثير من الأبرياء، لأنهم خرجوا عن طاعة الخُلفاء الذين امتصوا ثروات الأمة عقوداً من الزمن وتوارثوا استعباد الناس. باسم السماء سُفحت الدماء وأُخرست كافة الأصوات المُخالفة أو المُختلفة مع توجهات السلاطين والولاة.

تذكركرم كيف حصل معاوية بن أبى سفيان على البيعة لإبنه يزيد، حيث أرسل يطلب رأي عماله، فقام أحدهم ويدعى يزيد بن المقفع وقال له: هذا. «فى إشارة إلى معاوية»، فإن هلك فهذا. «فى إشارة إلى يزيد.» فمن أبى فهذا «مشيراً إلى سيفه». فقال له معاوية: اجلس فإنك سيد الخطباء. يتذكر كرم كيف صارت البيعة مجرد إجراء شكلي أقرب إلى الاستفتاء الروتينى وكان القتل جزاء مَن يتخلف حتى أنّه فى واقعة الحرة الشهيرة قتل خلق عظيم بينهم عشرات الصحابة والتابعين وافتضت ألف عذراء. وكان قائد يزيد وقتها مسلم بن عقبة ـ يقتل من يقول «أبايعه على كتاب الله وسنة رسوله».

تذكر كرم ما حكاه الإمام جلال الدين السيوطى فى كتابه «تاريخ الخلفاء» من أنّ عبد الملك بن مروان الديكتاتور الأشهر فى الدولة الأموية كان عابداً متنسكاً يُقيم الليل والنهار ويصلى فى المسجد، ويوماً كان جالساً يقرأ القرآن فأخبروه بنبأ اختياره خليفة، فأغلق المصحف وقال «هذا آخر العهد بك. «ثُم استعمل بعد ذلك الحجاج بن يوسف الثقفى للقضاء على المعارضة السياسية والذى سيّر الجيوش وقتل الشيوخ وأهدر الدماء.

كما استرجعت خلايا مخه كيف كان الخليفة الوليد بن عبد الملك جباراً ظلوماً، وأضفى على نفسه هالة من القداسة حتى كان يستفسر في عجب: أيمكن للخليفة أن يحاسب؟ إلى أن جاء أخوه بأربعين شيخا يشهدون أنّ ما على الخليفة من حساب!!

يحكى السيوطى أيضاً عن الخليفة السفاح أول خلفاء الدولة العباسية الذى بدأ حكمه بإخراج جثث خلفاء بنى أمية وصلبها فى العراء ثم أحرقها، ودخل دمشق فأباح فيها القتل وجعل مسجدها اسطبلا لدوابه واقتاد نساء بنى أمية للسبى والذبح.

وفى مصر كان الحُكام المسلمون أنفسهم أكثر قسوة وظُلماً من غيرهم على الناس حتى أنّ عبد الرحمن الجبرتى يذكُر صراحة بعد خروج الفرنسيين من مصر أنّ الناس تمنوا عودة الإفرنج لهول ما رأوه من جنود العثمانيين. «وفى ثانى يوم أحضروا الجزارين وأمروهم بسلخ رءووس الأسرى ثم أحضروا جماعة من الإسكافية فحشوا الرؤوس تبنا ثُم خيطوها وطافوا بها فى الشوارع. لقد نزل الجُند العثمانيون إلى القاهرة وأكلوا الزروعات وخطفوا المواشى وفجروا بالنساء وافتضوا الأبكار ولاطوا بالغلمان، وهكذا يفعل المجاهدون حتى تمنى الناس مجيء الإفرنج». كانت كلمات المؤرخ

اليقظ محفورة فى ذهن كرم تتحدى هُتاف الطلبة الهادر «إسلامية إسلامية».

عبر كرم حشود الطلبة منكراً هديرهم موقناً أنّ العدل هو الأساس، وأنّ كافة لافتات الإسلام السياسى تقود الشعوب إلى شرعنة الطُغيان وكسر حقوق الأمة فى مُحاسبة حُكامها. لمح أمجد سامح وفتاته متفرجين على المُظاهرة فيصافحه وسأله عن سبب تظاهر طلبة التيار الدينى فابتسم قائلا:

ـ لا أعرف. رُبما استعراض قوة، ورُبما احتجاج على تزوير انتخابات اتحاد الطلبة، ورُبما إلهاء للشباب عن أمور أخرى.

استحسن فطنة الشاب الأسمر الذى يقف إلى جوار فتاته التى صارت لا تنفصل عنه داخل حرم الجامعة.

لمح وجه الرائد نادر عبد العليم بأناقته المُبهرة ماراً إلى جوارهم مُبتسماً فى برود. منحه نظرة استغراب وواصل طريقه نحو مبنى الكلية العتيق. صعد سلالم حجرية رُمادية مُتذكراً غرفة المُعيدين التى تستضيفه مُعلناً لنفسه قراره بسرعة الهروب منها إلى مكتب أساتذة قسم التاريخ مثلما فعل غريب صُبحى بعد مُناقشته رسالة الدُكتوراة. دلف فلاحظ نادر خلفه بذات الابتسامة مُلقياً تحية باردة ومادا يده ليصافحه.

نموذج جديد للبصاص. هكذا يحسبه وهو يتحدث إليه بُلطف مُباركاً على قراره بنقل الإشراف على الرسالة إلى الدكتور عفت عزام.

ـ شُكرا نادر بك.

قالها كرم وعيناه ترمى نظراتها تجاه المُظاهرة.

ـ أتمنى لك كُل توفيق ونجاح. أنت عقلية عظيمة ولك مُستقبل مُبهر.

استغرب كرم ذلك الذوق المُصطنع، فابتسم، ليواصل مُحدّثه:

ـ أنا آسف إن كُنت حسبتنى مُتطفلاً عليك عندما طلبت منك التعاون بخصوص الطلبة المُسيسين. أنا لم أقصد أى شىء فيه إهانة. فضلاً عن أننى لم أكُن أعرفك جيداً. أنت نموذج طيب، وأنا أتعلم منك.

ـ لا عليك يا نادر بك. أشكُر لُطفك.

ـ هل حددت موعداً لمُناقشة رسالتك؟

ردّ كرم:

ـ ليس بعد. أنتظر قرار مجلس القسم، لكن الدكتور عفت وعدنى أنّ ذلك سيكون قريباً.

ـ إن شاء الله خير.

سأل كرم بحميمية مرسومة:

ـ كيف عملك؟

ناوله نادر سيجارة وأشعلها له قبل أن يضع أخرى بين شفتيه ويقول:

ـ أنت تعلم أنّ ظروف عملنا صعبة، وها أنت ترى ما يحدث من مُظاهرات وأعمال شغب تؤثر على العملية التعليمية. لكن ثق تماماً أننا عند حُسن ظنك. عيوننا مفتوحة دائماً، وكُل الأمور تحت السيطرة.

هزّ كرم رأسه مُتأملاً مُظاهرة الطلبة وهو يقول:

ـ نعم. لكن لمَ يتظاهرون؟

أجابه نادر بابتسامة هادئة وهو يقول:

ـ إنّها تعليمات يا عزيزى. ألم تنصحنا من قبل بفكرة تصدير الفزع من هؤلاء. إننا نعرف بالمُظاهرة وننتظرها ونحميها لأنّ المطلوب أن يراها الناس.

انزعج كرم من كلمة «تنصحنا» فقطب حاجبيه.

صمت نادر قليلاً ثُم همس:

ـ طبعاً ليس الناس هُنا فى مصر، لكن الناس خارجها. لو طُبقت الديمقراطية لصار هؤلاء الارهابيون حُكاماً لهذا البلد، ولأصبح العالم مُجبراً أن يتعامل معهم ويخضع لأفكارهم الرافضة للتمدن والمُحرّضة على العُنف.

# (٣٢)

نظرة جديدة على وثيقة العسس، تُجدد له فكرة بيعها للحصول على مبلغ مالى يكون له عوناً فى الأيام القادمة. قرأ بعض سطورها قبل أن يُغادر إلى لقاء المعلم نصحى الذى حصل على هاتفه من غريب صبحى، مُتفقاً معه على لقاء عاجل لأمرٍ مهم.

«اعلم أعزّك الله ووطد بمكرك دعائم السُلطان، إن اخضاع العوام والدهماء وتوجيههم يحتاج إلى صبر وحكمة وعزيمة. الحكايات تُطلق بغرض تحبيب الأمة فى رجُلٍ ما أو تنفيرها من غيره بمقدار طاعة ذلك المرء لولى الأمر المطلوب طاعته. كُل رواية تؤلف فى مجلس خاص يضُم بصاصين قرائين اطلعوا على قصص الأغانى والسير وحفظوها وتعلموا منها. مَن نريد له سموا نحكى عنه قصص المرؤة والتقوى والبركة الغامرة التى يُخلفها فى أى مكان يحل به. ما يعجز عنه الناس يصدقونه وما يرونه فى أحلامهم يؤمنون بوقوعه، لذا فإنهم يُجلّون مَن تتحقق فيهم أحلامهم وأمانيهم. أما مَن نرى منه خطراً على البلاد والعباد، فيكفى نسج

الشائعات حول تهتُكه وفُحشه وهيامه بالغلمان، مع شهادات لمن يحكون عن زندقته وإلحاده وانكاره لملة الإسلام. وأعلم نصرك الله بفضل نبيه الكريم الذى أوصانا بإرضاء الأمراء أن المقاهى والحمامات والأسواق هى أفضل الأماكن لإطلاق الحكايات والشائعات، فيها تسرى القصص كنار الهشيم بأسرع مما نأمل.

الكراهية والمحبة هى وسيلتنا لتوجية الناس وإرشادهم إلى ما نبغيه لصون الأمن لهم. والكذب مُباح فى ديننا الحنيف إن كانت غايته منفعة العباد واستقرار البلاد، فلا يُضلك هوى أو يُصاحبك وهم أن ذلك سوء خُلق. والله الحافظ والراعى للأمة والسلطان.»

ابتسم واضعاً أوراقه الصفراء فى مظروف أبيض كبير، دسه فى حقيبته الصغيرة مُتمتماً بصوت مسموع:

ـ لا شىء تغير.

نظر لوجهه فى المرآة غامضاً هادئ القسمات تُزينه عينان جذابتان. ضبط رابطة العُنق الكُحلية التى تتوسط جاكت فحمى يُغطى قميصا أبيض، وارتدى حذاءه مُعجبا بأناقته قبل أن يُغادر إلى مدينة نصر. دقيقة ووقف له تاكسيا يبدو سائقه مُتعبا من تطواف النهار الذى قارب على الرحيل فركب قائلاً للسائق:

ـ مدينة نصر، شارع عباس العقاد.

بدا متوتراً من مُغامرته التى لم تخطُر له يوماً على بال. هل كان عليه أن يحفظ وثيقة والده التى اختلسها من شُغله ليُحافظ عليها من السرقة والبيع لتُجارلا يعنيهم توثيق تاريخ مصر ويهمهم الربح وحده؟

هل اضطراره إلى بيع تلك الوثيقة خيانة لأبيه؟ وهل هو يعرف الآن بما يصنع؟ يقولون إنّ الميت يعلم كُل شيء. إذن فوالده يعرف ما هو مُقبل عليه. رُبما يغفر له فعله بسبب الاحتياج. إن الحُب يقوده إلى الإحساس بمعنى الحياة التى لم يعرفها مُنعزلاً، مُنغمساً فى كُتب التاريخ المليئة بالأكاذيب والفضائح وفظائع الإنسان. رُبما كان ادخار والده لتلك الوثيقة لأنه يعلم أنّها قد تكون له عوناً فى يوم ما على تحقيق آمال شبه مُستحيلة، خاصة أنه لم يورثه شيئاً يّذكر. إنّ هدف الموظف البسيط الذى كان يعمل بُحب فى دار المحفوظات كان حماية تاريخ مصر ليستفيد منه المؤرخون فى مُقاربة الحقيقة، وهاهو قد فعل ذلك بعد أن وضع كامل ما باحت به تلك الوثيقة فى دراسة دكتوراة سيتعلم منها طلبة علم التاريخ فيما بعد. كُل كلمة ذكرتها الوثيقة كتبها وحللها واستقى منها نمط النظام البوليسى فى عهد محمد على، بل إنّها ستدخل ضمن كتاب توثيقى آخر عن التعذيب الشرطى تُعده فتاة جريئة نابهة ساقها القدر إليه فى وقت خواء حقيقى.

أنت لم تخُن والدك يا كرم. لم تخذله، إنما حققت ما كان يُريد واستثمرت الأوراق القديمة لخير الناس. إن القيمة الحقيقية ليست فى ذلك الورق القديم الذى يسكن حقيبتك، وإنما فى مضمونها وما تُبرهن عليه من واقع. يُحدثه شيطانه وهو يُشعل سيجارة مُستسلمة بإغراء لا يُقاوم.

كم يطلُب من المعلم نصحى نظير تلك الأوراق؟ عشرين ألفاً؟ قليل. رُبما خمسين ألفاً أو أكثر. وقع المُفاجأة على وجه التاجر المُخضرم الذى عرض شراء نفس الوثيقة قبل عقد من الزمن هو الذى سيُحدد سعرها. إن علا حاجباه دهشة وبرقت عيناه فإنّ السعر قد يرتفع إلى خمسين ألفاً،

وإن تظاهر باللامبالاة وعدم الاهتمام يُمكن أن يهبط الثمن إلى ثلاثين. رُبما أقل قليلاً، لكن الأفضل ترك الكلمة الأولى له. فكر فى شقيقته هُدى إن كان عليه أن يمنحها نصيباص من ثمن الأوراق أم لا. إنّها لا تعلم شيئاً عن وثيقة والده، لم تكن تهتم بالتاريخ ولا بغيره والأفضل ألا تعلم. هكذا فكر قبل أن يُقرر أن يشترى لها هدية قيمة.

«هذه الأوراق السرية هى التى كُنت تريدها، ورفض حارسها، فسعيت إلى شرائه، وناصبته العداء، ودسست ضده مَن أزاحه من طريقك.» ستقول للمعلم نصحى أنك على استعداد لبيعها، لأن الدولة لا تُقدر لها قيمة، ولا ينتفع بها أحد. ستجلس أمامه فى كبرياء، وستُخبره أنك كُنت تُراجع كرتونة قديمة من مُتعلقات والدك وعثرت على تلك الأوراق مُصادفة. ستقول له أيضا أنك إستاذ تاريخ وتعلم قيمة كنز مثل هذا.

ضوضاء القاهرة وقت الغروب تُغطى على صوت محموله الذى ينتبه ليرى اسم ندى مُتراقصاً على شاشته. يشتاق كثيراً لها ويرُد فرحاً، فتحكى له عن رحلتها الممتعة إلى الأقصر، وذلك الطقس الشتوى المُدهش بدفئه الذى يسود سماء المدينة الجنوبية. تسأله عن شُغله فيخبرها أنّه على ما يرام، وتوصيه خيراً برئته راجية له أن يُخفف تنفس النيكوتين الذى أضفى كآبته على وجهه. يعدها كاذبا ويخبرها أنه ينتظر وصولها بشوق صاخب.

سأله سائق التاكسى عن العنوان فقال له: آخر الشارع جوار مصر للطيران.

سألته ندى: أين أنت؟

أجابها بصوت هامس:

ـ مشوار مُهم. سأحكى لك عندما نلتقى. أراك على خير.

ـ أحبك.

ـ أنا أيضا.

أغلق هاتفه وهبط أمام عمارة حديثة ترتفع أعلى كثيرا من مبانى حى عابدين، حيث يقطن. قابله بواب أسمر يرتدى بنطالا من الجينز وجاكت جلد فسأله عن شركة نصحى تكس لاستيراد الملابس فأشار الرجل إلى السلم قائلا: الدور الأول. صعد سلالم رُخامية بيضاء مُتسائلا كيف قادته دماغه إلى الإقدام على هذا الفعل. ماذا لو فضحه الرجل، وقال لغريب صبحى والدكتور عزام إنّه يبيع تاريخ مصر؟ أمام ناظريه ابتسمت أضواء من النيون على لافتة كبيرة تحمل اسم الشركة التى يستخدمها الرجل كغطاء لتجارة التحف والأوراق والوثائق القديمة. من الباب المفتوح دلف لتستقبله فتاة حسناء ترتدى استرتش أسود يكشف التفاف وركيها، بينما يبدو جانبا من ثدييها مطلاً من قميص مزركش مفتوح أعلاه.

بابتسامة صافية باغتته:

ـ الدكتور كرم البرديسى؟

خرّك كرم رأسه بالإيجاب، فأضافت بنظرة تدلل:

ـ مستر نصحى ينتظرك. تفضل.

قادته السكرتيرة الحسناء عبر ممر مُضىء بشمعدانات مُبهرة إلى غرفة

واسعة تتوسطها طاولة بيضاوية تحتضنها مقاعد جلدية فخمة. سألته وابتسامتها لا تفارق وجهها كمحترفة استقبال عما يشرب، فطلب قهوة.

ـ مضبوط لو سمحتى.

انشغلت عيناه بلوحات مُبهرة تُغطى جدران القاعة توحى بأنّ صاحب المكان لديه حس فنى رفيع. وجه نوبى يطل من إحداها راميا نظرات غامضة تبث روعة واثارة، وكد وعزيمة تبثها لوحة أخرى لساقٍ يحمل قدراً من الفخار ويصُب شرابا فى أكواب مُزدهرة، وفزع يلوح من ثالثة لرجال أشداء يمتطون خيولاً راكضة. لو كان حسن السويسى موجود لقدّر قيمة كُل لوحة ولحدّد ببصيرته أسلوب صاحبها.

شرُد فى خيالات، وسرح فى مشاهد تاريخية قرأ عنها ولم يحياها عن أثرياء وتُجار وأعيان رضوا عن السلاطين فأرضوهم. أباريق من ذهب وفضة شربوا فيها نبيذا مُعتقا جُلب لهم خصيصاً من بلاد بعيدة، جوارٍ حسناوات يبدين زينتهن لمالكينهن مانحينهم مُتعاً شتى. قفاطين من حريروأبسطة كشميرية ناعمة، ولالئ من ياقوت ترسم جنان الأرض المُشتراة. نفوذ وهيبة واحترام من العامة لخُطى ثابتة لأولئك الناعمين برعاية وحماية أولى الأمر. لم يتغير شىء يا عبد الرحمن يا جبرتى. لم يتغير شىء.

أخرجه من شروده عودة الحسناء تحمل صينية ضيافته لتضعها أمامه، حيث اختطفت عيناه نظرة انبهار ببياض ما بين نهديها.

ـ ثوانٍ ومستر نصحى سيلتقيك.

شكرها ممتناً، وتذكر كيف سيحكى لحبيبته عن ذلك اللقاء. ماذا سيقول لها بشأن بيع وثيقته. لقد وعدها أن يُخبرها كُل شيء، لكنها قد تغضب لو عرفت بهذا الأمر. لكل وقت أذان. قال لنفسه قبل أن ينفتح باب أكورديون خلفه ليستمع إلى صوت غليظ يُرحب به فى حميمية:

ـ أهلاً أهلاً دكتور كرم. نورتنا.

رجل سبعينى تلمع صلعته البيضاء بين خُصلات ناعمة من الشعر الأسود الداكن وتبرُق عيناه الواسعتان بلونهما الأخضر فوق شارب رفيع مُهذّب بعناية. حُلته البُنية الناعمة تنفى عنه لقب «المعلم» الذى عُرف به، وتؤكد مُصطلح «مستر» الذى باحت به السكرتيرة الحسناء. يدان غليظتان صافحته فى حبور قبل أن تُشيرا عليه بالجلوس.

ـ أهلاً وسهلاً يا دكتور.

أعاد الترحيب. فشكره كرم.

ـ كيف حالك وكيف حال الدكتور عفت عزام؟

ـ بخير.

ـ وكيف حال قسم التاريخ وجميع الأساتذة؟

ـ على ما يرام.

يُشعل الرجل سيجاراً وهو يقول:

ـ هل تعرف يا دكتور. أنا متابع جيد لكل دراسات التاريخ الحديث، ومهتم بها بشكل خاص مُنذ أكثر من خمسين عاماً. أنا مُحب لتاريخ البلد ودائماً ما أساعد أى باحث مُتميز بقدر المُستطاع، لأننى هاوٍ للمُقتنيات القديمة والمخطوطات.

ادخل فى الموضوع. لا داعى للمقدمات. إنّه يُمهد لك الطريق.

نظر كرم بُعمق لعيني الرجُل الصريحتين وقال:

ـ أنا ابن سالم البرديسى. هل سمعت به؟

يُفاجئه المعلم نصحى قائلاً:

ـ أعرف ذلك. أعرف رغم أنك لا تشبهه. رحمه الله رحمة واسعة. كان رجُلاً طيباً وجميلاً، وكان يعرف التاريخ كأستاذ فى الجامعة رغم أنّه لم يتخرج فى جامعة. أبوك لن يُعوض.

استغرب كرم فسأله:

ـ هل تعرفه جيداً؟ كان موظفاً فى دار المحفوظات..

قاطعه نصحى مؤكداً أنّه يعرفه كصديق، وأنّه زارهم مراراً فى بيتهم فى عابدين.

تلجلج كرم قليلاً ويقول:

ـ لكن.

تصدمه مُقاطعة المعلم نصحى:

ـ لكن ماذا؟. لقد زرتكم وكُنت أنت صغير، وأعرف والدتك رحمها الله. وكانت لك أخت جميلة أظُن أنّ اسمها هُدى.

أه للموج المُتلاطم. كلامه كريح صرصرٍ عاتية. ألم يُعادى والدك لأنّه رفض بيع الوثائق له؟ ألم يدس عليه من شكوه ليتم نقله بعيداً عن عمله الحقيقى؟ ألم يُكبده حُزناً على حُزنه الذى أحاطه حتى قضى نحبه؟

رمقه بنظرة استفهام، فقال الرجل:

ـ اسمع يا دكتور. أبوك كان صديقاً عزيزاً، ولقد أحببته لأنه كان أفضل مَن يُقيّم الوثائق والمخطوطات القديمة. وكان أجمل ما فيه أنه دارس جيد للتاريخ، وكان أمله أن يراك أستاذاً كبيراً فيه، لذا كُنت أنتظر منك أى زيارة أو طلب لأننى مدين له بكثير مما أنا فيه الآن، وعندما أخبرتنى السكرتيرة بطلبك للقائى كُنت أسعد إنسان.

ـ لكن..

ـ مابك يا دكتور كرم؟ أنا أعرف الأصول. والدك اختلف معى فى سنواته الأخيرة فقط بسبب تاجر أفّاق اسمه حسين حمدان، ومع كُل ذلك فقد وقفت إلى جواره بعد رحيل والدتك وحاولت استعادة العلاقة، لكن القدر لم يُمهلنا. إننى واثق أنّ العمر لو امتد به قليلاً لكُنا تصافينا. إننى مدين له كما قُلت لك، ومازلت.

احمرَ وجه كرم وعلا صوته قائلاً:

ـ مُستحيل. أبى لم يكُن يعمل معك، بدليل هذه.

وامتدت يداه إلى الحقيبة، لتخُرج مظروفاً مفتوحاً سلمه للرجل الذى ارتسمت على وجهه ابتسامة باردة. بأصابعه التى زيّن أحدها خاتم ذهبى فحص المعلم نصحى الأوراق داخل المظروف وقلبها وكرر ابتسامته قائلا:

ـ نعم هذه وثيقة العسس. أعرفها جيداً.

حدقه كرم بنظرات مُتشككة قبل أن يسأله:

ـ ألم تعرض على أبى آلاف الجنيهات ليسرق تلك الوثيقة من شُغله ويُسلمها لك؟

أجاب الرجُل وعلامات الجدية ترتسم على وجهه:

ـ طبعا لا. مَن قال لك ذلك؟

صمت كرم كمَن أصابته صاعقة من السماء ليواصل مضيفه حاكياً:

ـ هل تعرف ما هو عملى الأساسى؟ أنا تاجر تحف ومُقتنيات مشاهير ووثائق ومخطوطات قديمة. هذه المهنة ورثتها عن والدى الذى كان خبيراً فى التُحف وخطابات الساسة والفنانين، والأوراق التى تحمل أختاماً حكومية قديمة وهى بالمُناسبة تجارة رائجة ومتداولة وليس لها علاقة بالآثار كما قد تظن. المُهم هُناك الكثير من التُجار فى هذا السوق وكُنا نحصل على الأوراق تحديداً من عدة مصادر أحدها ورثة شخصية مشهورة بعد رحيلها، أو الأوراق التى يتم اعدامها فى المصالح الحكومية كُل سنة كورق دشت، فضلاً عن أوراق مُعينة يعرضها الهواة أو جامعو النوادر. عندما مات والدى قدّس الله روحه، كُنت أعمل فى الاستيراد والتصدير ولم أكن أعرف عن تجارته سوى القليل، لذا فقد تعرضت للاحتيال من جانب كثيرين باعونى أوراقا ومخطوطات مُقلدة على أنها وثائق تاريخية، وهو ما دفعنى للبحث عن خبير يستطيع تمييز الوثائق الحقيقية من المُقلدة، حتى دلّنى أحد تُجار التُحف على والدك الذى كان يعرف تماماً كيف يُحدد أهمية كُل وثيقة وكُل ورقة وكل ختم لخديو أو سلطان أو ملك. تعارفنا وكان اتفاقه معى ألا يُقيّم إلا الوثائق والمخطوطات غير المُسجلة قبل أن أتورط بشرائها وعملنا معاً لأكثر من خمسة عشر عاماً، وبفضله صار لى اسم وصيت فى عالم الورق

القديم حتى ظهر حسين حمدان وأغرى والدك بألا يعمل معى لأنّ مكافأة التقييم مهما كانت هزيلة وأن يعمل معه بأسلوب آخر.

ـ ما هو؟

زفرَّ المعلم نصحى دُخان سيجاره فى فضاء الغرفة مواصلاً:

ـ كان حسين حمدان دخيلاً على سوق تجارة الورق، لكنه كان يمتاز عن جميع التُجار بعلاقات قوية ربطته بأمراء ومسئولين خليجيين. وكان بعض هؤلاء يطلبون أوراقاً بعينها سمعوا أو قرأوا عنها وعلموا إنها إما محفوظة فى متحف الفن الإسلامى أو فى دار المحفوظات والوثائق، وكانوا يعرضون فى تلك الوثائق مبالغ ضخمة، رُبما عشرات الآلاف من الدولارات، لذا فقد اتفق حسين حمدان مع والدك باعتباره خبيراً فى الوثائق على استعارة بعض الوثائق لمدة يومين أو ثلاثة وتقليدها تماما بورق أصفر قديم وبأقلام فحم بمساعدة خطاط يُجيد رسم ذات الخطوط ثُم يتم البيع للمشترين الأجانب. كانت مُهمة والدك اختلاس بعض المخطوطات أو الوثائق ليتم تقليدها ثُم إعادة النُسخ الأصلية مرة أخرى قبل أى جرد. فى ذلك الوقت وبتحريض من حسين حمدان ابتعد أبوك عن تقييم ما يصل إلىَّ من أوراق، لأنّه كان يربح أضعاف ما يأخذه منى. المُهم أن سوء حظ والدك أنه اختلس وثيقة «العسس» وقلدها، لكنّ اثنين من زملائه اكتشفا ذلك وأبلغا عنه، وهى بالمناسبة وثيقة شهيرة وسبق لمؤرخ فى عهد الخديو عباس حلمى أن اطلع عليها ونقل فقرات منها.

حطّت طيور الدهشة على رأس كرم قبل أن يسأل:

ـ وماذا جرى بعد ذلك؟

ـ تم نقل والدك إلى وظيفة أخرى بعيداً عن تخصصه، وأعاد الوثيقة الأصلية بعد أن نسخوا منها عدة نُسخ أعتقد أن هذه النسخة واحدة منها؟

ـ ماذا تقول؟ هل تُريد أن تقول هذه الأوراق مُقلدة؟

ـ طبعا يا دكتور. لقد تعلمت المهنة من والدك. إن اردت التأكد يُمكنك أن تُقرّب عود كبريت مُشتعل من الكلام المرسوم، ثُم المسه بأصابعك لو كان أصلياً ما خرج منها شيء، لأنّ الكتابة التى يمر عليها مائة عام تلتصق بالورق وتُصبح جزءاً منه.

ـ مُستحيل. هذا كلام غريب. أنت تقول لى ذلك حتى أتصور أنّ الوثيقة بلا سعر فتشتريها بثمن بخس.

ابتسم المعلم نصحى وهزّ رأسه نافياً:

ـ أنا لا أريدها أبداً. ثُم يُمكنك أن تتأكد مما أقول لو ذهبت إلى دار المحفوظات. هُناك يُمكنك أن تطّلع على الوثيقة الأصلية.

سأل كرم مرة أخرى:

ـ إذن لمَ احتفظ بها والدى ما دامت غير أصلية؟ لمَ لم يُعطها لحمدان هذا ويأخذ أموالاً كثيرة كما كان يفعل حسب قولك؟

ابتسم نصحى وقال:

ـ لأنّ حسين حمدان مات فجأة فى تلك الأثناء بأزمة قلبية، وهو ما دفع والدك للاكتئاب والانعزال لأنه فقد بائعاً جيداً، بعد أن فقد مكانه كأحد مفتشى مخازن الوثائق المطلوبة.

ـ أنا لا أصدق ما تقول.

ـ هذا حقك يا دكتور. عموما أنا مازلت مديناً لوالدك، ولو احتجت أى شىء. أنا تحت أمرك. لكن لا أستطيع أن أشترى منتجات حسين حمدان، لأننى لا أعمل فى المُزيف.

حمل كرم أوراقه وحقيبته وحُزن لم يكن يتوقعه وصافح فى برود مُغادراً.

# (٣٣)

ابتسمت هُدى فرحة لرؤية ندى. أخيراً سيتحقق مُناها ومُنى زوجها فى ارتباط كرم. ابنها الذى لم تُنجبه، وسندها الراسخ فى زمن اللاثبات. بعد أن وصلت ندى إلى القاهرة فاجأها كرم بدعوة شقيقته وزوجها لها على الغداء. وافقت دون تفكير مُعتبرة الاقتراب من أسرة كرم ضرورة لازمة لتتعرف عليه أكثر.

كان يوم الجمعة مُناسبا لندى وكرم اللذين يقضيانه مُرتاحين من الشُغل، كما كان مُناسباً لهُدى وزوجها سامى الذى يمتنع عن الدروس الخصوصية يوماً واحداً هو الجمعة مُستريحا من هم التحفيظ والتكرار لطلبة لا يفقهون أنّ الفلسفة تحرير للعقول، وإنما قوالب مصبوبة صبا عليهم إعادة سكبها على أوراق الامتحان.

كان وجه ندى الخالى من مساحيق يُنير جلستهم بصفائه وبياضه والابتسامة الرقيقة المزروعة فوق قسماته تُضفى على الحضور سرور هادئ. كانت ملابسها توحى بذوق رفيع مع بساطة أوروبية، وقدرة على

التنسيق الكامل بين الألوان، وعطرها يُنافس روائح الطعام الشهى من محشى وملوخية وفراخ مشوية والمُسيطرة على فضاء الشقة الصغيرة.

لاحظت ندى أنّ طعام هُدى شهى ولذيذ، ومُخالف لقواعدها الغذائية التى تُخاصم النشويات والدهون. أثنت على المذاق، راجية عدم الالحاح لازدراد ما يُحطم نظام الريجيم الذى تنتهجه. بدا سامى طيباً فى وقار وجدية ظاهرة، وهو يتحدث عن حماه الراحل الأستاذ سالم البرديسى الذى كان مثالاً فى الكرم ودماثة الخُلق. «لقد أحببت هُدى قبل أن أراها لأننى أحببت أباها وسيرته وسمعته الطيبة». هكذا قال سامى لندى على مائدة الطعام الصغيرة التى تكاد تنحشر فى أحدى غُرف شقته ببركة الفيل.

سألتها هُدى عن عملها وإن كان هُناك فرق بين الصحافة باللغة العربية واللغة الانجليزية، فتصححت ندى أن جريدتها باللغة الفرنسية وليست الانجليزية، وقالت إن هُناك فرقاً كبيراً يتمثل فى ميل الصحافة الأجنبية إلى الاختصار أكثر وعدم تكرار الآراء والاهتمام بنقل عبارات نصية على ألسنة شهود. وأضافت بأنّ رأى صاحب التقرير لا يظهر فى الصحافة الأجنبية وإنما هو مُجرد عارض لآراء وأفكار آخرين، بينما لا يضع أى صحفى فى الصحافة المصرية خطا فاصلاً بين رأيه وبين الواقع.

سألتها هُدى عن المُقطم والحياة هُناك فوق هذا الجبل الهادئ وإن كانت تشعر بالوحدة هُناك، فردت ندى بأنها اعتادت تلك الحياة، وأنّ هُناك كثيرين يُحبون الهدوء النسبى ويفضلونه على الضوضاء. أخبرتها هُدى أنها لم تكُن راضية أو متوافقة فى بداية زواجها مع حى بركة الفيل الذى يُمثل تكدُساً وازدحاماً، الا أنّها مع الوقت اعتادت عليه. تقول لها أيضا أنّ عابدين يُمثل حالة وسط بين الهدوء والصخب، لكن أبرز

ما يُميزه أنه قريب نسبياً من وسط المدينة، حيث يُمكن الخروج والفُسحة.

ابتسم كرم تعليقاً على حوارات هُدى وسامى مع ندى التى حكت له قبل قليل أنها أخبرت والديها بأنها مُرتبطة عاطفياً بأستاذ تاريخ فى جامعة القاهرة، وأنه ينتظر مُناقشة رسالة الدكتوراة حتى يتقدم بشكل رسمى.

ـ هذه صورة بابا الله يرحمه.

قالت هُدى وهى تقرأ نظرة ندى لبرواز يضُم صورة أبيض وأسود لرجُل ثلاثينى تشع عيناه بريقا وتكسو وجهه ابتسامة أمل.

ـ وهذه ماما. هنية. كانت سيدة رائعة بُكل ما تحمله معنى الكلمة. الله يرحمهما.

أضافت هُدى وهى تنقل عينيها إلى الصورة المُلاصقة. ثُم استفاضت ذكراً لسنوات الطفولة والصبا وكيف كان كرم مُختلفاً عن أقرانه، قاضياً مُعظم أوقاته فى القراءة، حتى أنه كان يحكى لها قصصاً مُرعبة لمؤامرات السلاطين والحُكام وخططهم للتخلص من بعضهم البعض.

ابتسمت ندى واستئذنت فى القيام لتغسل يديها.

ـ جميلة.

علقت هُدى على حُسن ندى هامسة فى أذن شقيقها وهو يغسل يديه. ثُم أضافت باسمة:

ـ ربنا يوفقك. والله يا كرم، سامى مبسوط جدا من الموضوع. إن شاء الله ربنا يتمم بخير.

ـ شُكرا هُدى.

اختلى بشقيقته جانباً، عندما قمت ندى لتغسل يديها، وسألها:

ـ هُدى. هل تتذكرين أحداً من زملاء أبيك؟

أجابته:

ـ لمَ؟

ـ هُناك رجل قابلنى صُدفة وقال لى انّه كان صاحب أبى وعرض مُساعدتى فى الرسالة لكننى لا أعرفه وأردت أن أسأل أى زُملاء لأبى عنه.

أبدت هُدى استغرابها وقالت له:

ـ أعرف رجلاً حضر يوم العزاء أظن أنّ اسمه الأستاذ حسن نعمان أو النعمانى، لكننى لم أحدثه أبدا، وأعتقد أنّ رقم هاتفه ضاع منى مُنذ سنين. لكن عموماً هو يسكن قريباً منا، وصالح البواب يعرف عنوانه.

صالح؟ مخزن الأسرار. دائماً يعرف كُل شىء.

ابتسم كرم ابتسامة رضا، وهو يلمح وجه ندى المُشرق يتهلل فرحاً لتجلس إلى كنبة الصالة وهى تقول:

ـ أجمل أكل أكلته فى حياتى. أنتِ عظيمة يا هُدى.

ردت هُدى الرد المُعتاد:

ـ أنت لم تأكلى.

ـ لا والله أكلك جميل جدا. ربنا يخليك.

ـ ألف هناء وشفاء.

خرج سامى من المطبخ حاملاً صينية الشاى ومُكرراً ترحيبه بندى وكرم مُتحدثاً بسعادة حقيقية عن فرحته بارتباطهما سائلا عن موعد الخطوبة، والزواج، بينما حُمرة الخجل تغزو وجه ندى الباسم التى تكتفى بنظرات مُستترة صوب كرم الذى لا يمكن لأحد أن يقرأ على ملامح وجهه أية تعبيرات واضحة.

# (٣٤)

رسموا معاً طريقهم. كرم سيمد لهم أذرعاً إلى مجتمع الطلبة، وحسن سيفتح لهم طاقة حكايات وشهادات توثيقية، وندى ستكتب وتسجل كل شيء. هكذا يواجهون التعذيب، بكتاب شامل فاضح يُعرّى انتهاكات رجال الأمن.

«كيف سننشر الكتاب»؟ فكروا، واتفقوا على طباعته فى مطبعة خاصة بالأرياف يمتلكها صديق قديم لحسن بمدينة السويس، على أن يوزعوا الكتاب بالبريد قبل أن يبيعوه بسعر رخيص لمكتبات سورالأزبكية. ستضع ندى اسمها على الكتاب، فهى وحدها ـ بُحكم عضويتها بنقابة الصحفيين ـ لديها حصانة بدرجة ما تكفل لها عدم التعرض لأذى حاد.

سلسلة من الشهادات أدلى بها ضباط شرطة سابقون، ومجرمون تائبون، وطلبة مشتبه في خطرهم سياسياً وأمنياً، وموظفون عملوا كمدنيين فى أقسام ومراكز شرطة. العمل بدأ بترشيحات قدمها حسن السويسى بناء على علاقات ربطته بأقارب وأصدقاء قدامى، ثُم شارك كرم بمن يعرفهم

فى الجامعة من طلبة وثقوا فيه ومنحوه محبة وصداقة باعتباره مُثقفاً كان على رأسهم أمجد سامح الطالب اليسارى، وندە فى الكُلية حسام الحفنى الحالم بدولة الخلافة وإقامة شرع الله.

أمجد سامح قدم شهادته مكتوبة عليه توقيعه مُركزاً على أول مرة يتم توقيفه حيث تعرّض لسيل من الشتائم بالأم ودفع من مُخبر نصف أمى لا يعرف عن الطلبة اليساريين سوى أنهم كفروا لا يؤمنون بالله ويحاربون الدين. كان أمجد فى السنة الأولى عندما مشى فى مُظاهرة تضامناً مع الشعب الفلسطينى، هتف خلالها بتهاون الحُكام العرب، وضعفهم، حتى خرج من باب الجامعة فاحتضنه مُخبر ضخم الجُثة وساقه إلى سيارة «بوكس» اقتادته إلى قسم الهرم، ومعه مجموعة طلبة عرف بعضهم وتعرّف على الآخرين.

التعذيب الذى لاقاه أمجد كان تعذيباً معنوياً يتمثل فى إهدار الكرامة. عندما ألقوا به وزملائه فى غرفة مُظلمة يغلبها رائحة البول وتعج بسفلة المُجرمين من لصوص وتجار مخدرات ومسجلين خطر أدرك قيمة المُثقف غير المُساير للنظام، وعندما تبول أحد المُحتجزين على رأسه، شعر بتفاهة الطلبة وبكراهية العامة لمن يسمون مُتعلمين. كان خلع سروال أحد زُملائه على يد شمام فى غير وعيه دليلاً على أنّ الدولة لا تُفرق بين مَن يتعاطى المُخدرات ومَن يتداول الأفكار والمواقف السياسية. شعر أمجد باحتقار رجال المباحث للكُتب والثقافة وسخريتهم من كتابات لينين وتروتسكى باعتبارها كتابات شيوعية تدعو إلى الالحاد، وتيقّن أنّ مُعظم هؤلاء يعتبرونه زنديقاً كافراً، رُبما بنفس القدر الذى يراه به الإسلاميون.

لمرة واحدة تلقى أمجد صفعة مُدوية على قفاه من مُخبر ضخم اعتاد أن يُنادى أى مُحتجز بلفظ لا يُطلق إلا على فتيات الليل، ولأنّ أمجد اعترض

أنّه ليس كذلك، فقد تلقى رداً قاسياً شعر بعدها بدناءة السلطة وجهل خُدامها.

حُسام الحفنى هو الآخر قدّم شهادته رغم تشككه الذى أبداه لأمجد سامح فى مدى صدق أو نزاهة صحفيةعلمانية تعمل فى جريدة موجهة إلى الكُفار وأعداء الإسلام. كانت حكاية حُسام قاسية لكنه عرضها فى سطور قليلة ركزت على أول مرة يتم اعتقاله من أمام المسجد الذى اعتاد أن يُصلى فيه الفجر والذى يُجاور بيته فى حى الزاوية الحمراء. شعر حُسام بذراعين كبيرين يُكتفانه من الخلف، قبل أن يسمع صوت تمزيق ملابسه لتتحول إلى عصابة تُربط بإحكام حول عينيه. لم ير حُسام شيئاً، لكنه سمع شتائم بالأم والأب وتلقى ضربات بعصى شعر بعده بالإنهاك حتى أنه صعد دون مُقاومة إلى سيارة ميكروباص كانت تقف إلى جوار المسجد. وعلى مدى عشر دقائق استغرقتها رحلة المعصوب ومعه أُناس لا يعرفهم حتى مكان الاحتجاز تعرّض لصفعات لا حصر لها. ولما عُرض حُسام على المُحقق الذى لم يره تلقى ضرباً مُبرحاً بعصا رفيعة على ظهره، ثُم سُئل عن تنظيمه ولما أجاب بأنّه مُتدين فقط، تلقى صفعة من المُحقق الذى صرخ فيه قائلاً: «مُتدين يا كافر»، ثُم طلب منهم تعليقه فخلعوا عنه ثيابه تماماً، ثُم علقوه كالذبيحة حتى فقد الوعى. ساعات طويلة اضطر فيها إلى الإقرار بانتمائه للجماعة السلفية حتى تركوه بعد أن وقع لهم على ذلك، لكن ما استغرب منه أنهم تركوه بعد أن ملأوا دفاترهم بتوقيعات لا حصر لها استجاب لها مُجبراً.

أخطر الشهادات تلك التى حملها خطاب من سجين بسجن العقرب استطاع أحد الأطباء تهريبه إلى الدكتور أحمد هواش والذى سلمه لكرم

وندى واعتبروه أحد أخطر الشهادات. عندما جلس كرم وندى وحسن السويسى وأحمد سامح يقرأونه فى مقهى ريش كان الحُزن خامسهم. قرأ كرم بصوت خفيض فى رُكنٍ قصى من المقهى المُزدحم:

«لم أعد أحتمل. وهنَ العظمُ منى، واشتعل الرأس شيباً رغم أن عُمرى لم يعبر بعد ضفة الثلاثين. نهارى وليلى سواء، سواد دائم. نسيت أشكال البشر والحيوان والجماد وبتُ مُقتنعاً أننى لم أر يوماً شيئاً فى حياتى. لا معنى للبصر فى ذلك الجُب العميق. أن تجهل أين أنت، ومع مَن، ولمَ يجرى لك ما يجرى، فأنت مدفوع حتماً نحو الجنون.

الوقت يسير مثل شيخ كسيح يستند إلى عكاز متهالك. الساعات والدقائق لحظات صارخة فى اللافضاء واللاوجود. الصمت عذاب لا يحتمل والوحدة غول ينهش الروح قطعة قطعة. النفس تتآكل كلوح معدنى ينخره الصدأ. هُنا تتعجل النهاية ويفرغ صبرك سريعاً كبقايا دماء تسرى فى شرايينك تُدلل على بقايا حياة. هُنا أنت لا معنى لك، ولا مدلول. أنت لا شىء... لا شىء تماما كما تفهمها. سراب خادع، صورة باهتة، مُجرد رقم لا اسم له ولا تاريخ ولا حتى حاضر أو مستقبل.

أنا الآن أعمى تماماً، لكنه عمى بغيض يتجاوز رؤية العين. ألا ترى بالبصر قد يُحتمل، لكن ألا ترى بالبصيرة، فمعناه أنك فقدت أى شعور بإنسانيتك. تاهت بوصلة مشاعرك واصطدمت بالضياع. لم يعد باستطاعتى أن أكره أو أحب، لا مشاعر على الاطلاق. موت الأحاسيس أقسى من موت الحواس، وهذا هو ما تمضى إليه فى هذا المكان.

كل يوم تغطس أكثر فى الظلام، الضياع، الهوان. أنت عبد، والعبودية

أن تنحنى دائماً للأرض، وأن تُطأطىء رأسك، وأن تستعين بالصمت الكامل، وتلتزم بالطاعة التامة.

عيناى أو ما كانتا عيناى مُعتقلتان تحت غمامة سوداء كريهة الرائحة مُنذ زمنٍ لا أعلمه. لم تعد يداى قادرتان على إزاحتها لأن محاولاتهما السابقة انتهت بخلع أظفار مِت خلالها مرات ومرات ودخلت جهنم وعرفت عذاب الهون. لايمكن لأصابعى أن تتحرك نحو وجهى لأنها شبه مشلولة فى هذا الاتجاه. الأصابع تتعلم الدرس سريعاً. لو لامست الغمامة لقاست ما لا تحتمل، لذا فهى تتشابك معاً إلى الأمام ولا يفكر أصبع واحد أن يرتفع قليلاً عن مستوى الصدر.»

ـ هذا وصف صادق لبعض ما يحدث فى ذلك السجن القصى.

علّق أحمد وهو يلمح أمارات الفزع ترتسم على وجه ندى الذى بدا طفولياً. استكمل كرم قراءة الشهادة بصوت أعلى قليلا:

«تجاوزت مُنذ أسابيع مرحلة آلام الجسد، وأنا الآن فى مرحلة آلام الروح. فى البدء تصرُخ وجعا عندما تُعلّق فى شباك عالٍ من قدميك ورأسك يتفجر ألماً وغلياناً. تُنقّط أنفك قطرات دم قانٍ تتصفى معه قطرة قطرة، ولا تلبث أن تنزف سيلاً ساخناً. تقترب النهاية فتأمل فى الراحة، لكن سرعان ما يتم تطبيبك لتعاد الكرة فتتعجل فرار الروح وتتمنى زيارة عاجلة لأزمة قلبية أو سكتة دماغية.»

تذكر كرم أنّ الأسلوب ذاته كان مُتبعاً مُنذ عهد المماليك، وأنّ وثيقة العسس التى لم يعرف إن كانت أصلية أو منسوخة تُشير إلى ذات الطريقة فى التعذيب. واصل كرم اكتشافاته وهو يُكمل القراءة:

«الإذلال عذاب آخر. تبدأ الإهانة بتعرية الجسد تماماً والسخرية من ضمور أعضاء ذكرية نتيجة الخوف والوجع. يُدفع المُحتجز إلى الأمام بركلة حذاء على المؤخرة، وتعبث عصى بعض الحرس فى فتحة الشرج مع سيل من التهكم والألفاظ النابية التى تنال من رجولة الرجل. أنت هُنا لا دليل على رجولتك سوى شعيرات قاسية تنغرس فى شقوق وجهك.

حصة الكهرباء ثابتة يومياً. متعاون أو غير متعاون لا فرق. كُتب عليك الصعق كما كُتب على الذين من قبلك. دقائق معدودات تصرخ فيها إلى الجدران طلباً للمغفرة. تلعق الأرض طلبا للرحمة ولا تجيبك سوى قهقات السادة. تبُح بكل شىء، ما تعرف وما تعتقد، وما تتوقع. تستحضر كل شىء كأنه أمامك. الوجوه والأشياء والأصوات وما مرّ على الخاطر. كُل شاردة تستدعيها ذاكرتك فتُقدمها عارية راجيا لحظة راحة. تسرد عُمرك لحظة لحظة وتتحول إلى مُسجل نسى معنى النسيان. الفم مفتوح دائماً يكُر ويثرثر بدون توقف. يحكى ثُم يحكى ثُم يحكى حتى يمل المُستمع فيطلق إشارة الاكتفاء صفعة على القفا.»

ـ هذا جنون.

قالت ندى، وعيناها تنثران غضباً لم يره كرم منها من قبل.

ـ أولاد....

نطق حسن نصف سُبة لم يكملها عندما تذكر وجود ندى معهم.

أكمل كرم:

«مُذ قُذف بى إلى هُنا وأنا طائع. أكثر مما كُنت أأمل. وشيت بصاحبى الذى قادنى للمسجد لأستمع لدرس الشيخ الياس. رصصت لهم دروس الشيخ كلمة كلمة عن الصحوة القادمة والأمة العظيمة التى ستولد مرة

أخرى. أمّنت على شكوكهم بأن لكل كلمة من كلمات الشيخ دلالة، فالفجر يعنى التفجير، وجهنم تعنى المباحث، والحج يعنى القتل، والهداية تعنى قلب نظام الحكم. قصصت عليهم ما طلبوه للتسلية عن تخيلى لوالدى وهو يضاجع أمى. أرضيت إلحاحهم فى سرد حكايات جنسية عن مشايخ الدعوة واحداً واحداً رسمتها من ذاكرة عرفت يوماص أفلام البورنو فى سنوات المراهقة.

اعترفت لهم بأننى إرهابى، قاتل، مُكفّر، ظلامى. أنا الخطر الوحيد، والفساد الأكبر. أنا مَن تريدونه أن يكون. معجوناً بالكراهية، منتفخاً بالحقد، مسكونا بالجهل. متآمر ضد عدالة دولتكم، وخائناً لسلطان وطنكم، ومعتد أثيم. وقعت على كل ما طلبوا التوقيع عليه وألصقت ابهامى بأوراق لا حصر لها دامغاً بصمتى على ما أرادوا.

أطعتهم طلباً للراحة، ورغبة فى الاستراحة، لكن وجع الضمير وعذاب الروح وآهات وصرخات كثيرة أسمعها فى الليل والنهار تجلدنى وتصعقنى من الداخل حتى صرت لا إنساناً ولا حتى حيواناً.

عودتى للإنسانية هى أن أكتب، لذا فقد وافقت طبيب السجن فى أن أدوّن ما جرى بعد أن دسّ فى لفافة جرح يدى قلماً وورقة. قال لى الرجل أكتب ما يجرى، وأنا أعرف طريق نقلها إلى منظمة دولية لحقوق الانسان. كتبت دون أن أرفع العصابة عن عينى ما يحدث فى هذا المكان الخالى من إله.»

ـ هذه الشهادة وحدها تحتاج رواية.

قال حسن الذى بدا مُنزعجاً بشدة مما سمع.

ـ لا تقلقوا، سنضرب ضربتنا قريباً.

علّق كرم الذى بدا مُتحمساً بشدة لسرعة إصدار الكتاب.

# (٣٥)

صالح اسم على غير مُسمى. دائماً يرقب الداخل والخارج كعين مُتطفلة ترصُد كُل شيء. لا يحبه كرم ولا يتوقع أن يفعل، لكن احتياجه له دفعه أن يسأله بحميمية مُصطنعة عن صحته، وحال أولاده. يعرف كثيراً مما لا يعرفه الجيران عن بعضهم البعض، ولديه شبكة صلات واسعة باعتباره أحد قُدامى البوابين فى منطقة عابدين. منحه كرم ابتسامة رضا وسيجارة ميريت مالبث أن زرعها بين شفتيه قبل أن يسأله إن كان يذكر رجلاً يُدعى حسن النعمانى كان زميلاً لوالده. ابتسم صالح الذى استعذب خروج كرم عن كبريائه واحتياجه له فنفث دُخانه وكرر فى حيرة زائفة وكأنه يتذكر:

ـ حسن النُعمانى.. حسن النعمانى. حسن يا صالح. حسن. حسن.

ـ ها

صاح به كرم مُحاولاً تذكيره، ثُم مدّ سيجارة أخرى وضعها صالح خلف أُذنه، وقال:

- نعم يا باشا. عم حسن. رجل طويل وأسمر. أعرفه. إنّه يسكن فى شارع بورسعيد.

- أين بالضبط؟

- البيت المواجه لمحل التوحيد والنور على ما أتذكر، وهو عموماً يجلس كُل مساء ليلعب الطاولة على مقهى السلام آخر الشارع.

- كيف أصل إليه؟

سأل كرم، فتلقى إجابة سريعة اعتبرها صالح بديهية بأنّ عليه أن يسأل صاحب المقهى، فهو بالتأكيد يعرفه. سحب رجليه صاعدا إلى بيته ليرتاح قليلا بعد أن أكل بقايا فرخة مشوية باتت فى ثلاجته. أزعجه رنين محموله ليجد اتصالاً من مجهول، استفزه للرد سريعا ليجده نادر عبد العليم. المباحثى المُزعج الذى لا يريد أن ينساه. لم يُعطه رقمه من قبل، لكنه يبدو من السهل لرجل أمن أن يحصل عليه. بدا صوت نادر مُبشراً عندما أكد تحديد مجلس الكُلية مُنتصف إبريل موعدا لمُناقشة رسالة الدكتوراة الخاصة به، وأنّه علم بالخبر فأحب أن يُبشره به سريعاً، مُختتما حديثه بأنّه يستحق كُل خير. شكره كرم فى برود ثُم أغلق السماعة مُندهشاً من اللطف البالغ الذى يُبديه ضابط الأمن الشاب تجاهه.

ماذا لو علم عن مؤامرتك مع ندى وحسن السويسى لتوثيق جرائم التعذيب؟ هل سيظل لطيفا كما هو الآن؟ وكيف يعرف هذا الرجل أسرار الكُلية قبل الجميع؟ بل كيف يُخبره بموعد مُناقشة الرسالة قبل أن يُخبره المشرف نفسه؟

دلق كرم قليلاً من البيرة فى جوفه، ثُم حمل هاتفه وسجائره وغادر

نحو مقهى السلام. رنّ هاتفه مرة أخرى لكنه لم يلتفت للمُتصل وضغط على زر silent مُستكملاً طريقه نحو المقهى الشعبى الذى طالما احتوى مجلسه مع صديقه حسن. سحب كُرسياً وجلس، ثُم استدعى النادل وسأله عن الأستاذ حسن، فأشار إلى رجل مُسن يجلس داخل المقهى يُدخن الشيشة فى تلذذ. قام إليه وجلس إلى يمينه مُحاولاً تذكيره، فرأى الرجل يُحدّق فيه بتركيز شديد. سأله:

ـ الأستاذ حسن؟

لمعت عينان ذابلتان لرجل أسمر يتجاوز السبعين ويرتدى جاكت صوف أخضر وكوفية صفراء فوق قميص أبيض.

ـ نعم. أنا حسن.

سأله مرة أخرى:

ـ هل تذكر سالم البرديسى؟

أمعن الرجل النظر إلى وجه كرم للحظات قبل أن ينطق:

ـ كُنت أقول أننّى أعرفك أو رأيتك من قبل، لابد أنّك ابنه. نعم يا بُنى أذكر سالم البرديسى. كان أخاً وزميلاً عزيزاً. الله يرحمه.

ـ كُنت معه فى دار المحفوظات؟

ـ نعم تزاملنا هُناك ما يقرب من ثلاثين عاماً، لكن لماذا تسأل؟

سرح كرم قليلاً، لكنه عاود شارحاً بوضوح قصة لقائه بالمعلم نصحى، وروايته حول اختلاس والده للوثائق النادرة لتقليدها وبيعها للعرب.

ـ أنت لابد كُنت تعرف ما يجرى. أين الحقيقة؟

لم يُجب الرجل المُسن، وواصل سحب دُخان الشيشة، ثم قال:

ـ الله يرحم والدك.

امتعض كرم وكرر محاولته طالباً الحقيقة. لكن الرجل ابتسم وقال لكرم:

ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾. صدق الله العظيم.

لم ييأس كرم واقترب أكثر من أُذن الرجل وقال له:

ـ أرجوك. ساعدنى. أريد أن أعرف الحقيقة. هل كان أبى يفعل ما يقوله المعلم نصحى؟

تراجع حسن النعمانى قليلاً إلى الوراء، ثم قال فى هدوء:

ـ لنفترض أنّه كان يفعل ذلك. ماذا يسوءك. إنّه لم يكُن سارقاً ولا مُرتشياً، وإنما يستعير وثائق ليرسم مثلها، وهذا لم يحدُث إلا مرات قليلة.

ـ ولماذا تم إيقافه عن العمل ثُم نقله إلى قسم الحركة قبل سنوات قليلة من خروجه إلى المعاش؟

ـ سوء حظ لا أكثر ولا أقل.

أخرج كرم بحركة عصبية سجائره ليُشعل إحداها ثُم قال:

ـ يا أُستاذ حسن. ترك لى أبى وثيقة اسمها وثيقة العسس تتحدث عن الأسلوب الأمنى الذى تتبعه رجال محمد على باشا. هل هذه الوثيقة حقيقية؟

ابتسم حسن النعمانى ثُم قال:

لا أظن. سأحكى لك كُل شىء. قُل لى. ماذا تشرب أولا؟ قهوة؟

ثُم نادى بصوتٍ عالٍ:

ـ قهوة يا عادل.

حكى له أن أباه كان يهوى اخراج بعض الوثائق وقراءتها ليتعرف على أمور خاصة فى التاريخ كان يحب استكشافها. لم يكن أحد من العاملين يهتم بما يهتم به سالم البرديسى، لأنّ أحداً لم يكن لديه علمه وذكاؤه. ومرة أو مرتان أخذ سالم معه إلى البيت وثائق ثُم أعادها فى اليوم التالى حتى رأى أحد التُجار أنهم يمكن أن يستنسخوا نُسخا من بعض الوثائق النادرة ليبيعوها لهواة المخطوطات من العرب والأجانب باعتبارها وثائق أصلية، وبالفعل اتفقوا على ذلك، حتى وقعت فى يده وثيقة «العسس» والتى طلب شراؤها أكثر من زبون بأسعار مُرتفعة، لذا تم نسخ عدة نُسخ منها بعضها تسلمها التُجار بالفعل، لكن سوء الحظ أن لجنة من مُفتشى هيئة الكتاب زارت دار المحفوظات فجأة وأجرت جرداً واكتشفت غياب الوثيقة. وعندما حققوا مع سالم أخبرهم أنه كان يقرأ تلك الوثيقة لأنه يُعد دراسة عن أنظمة الأمن فى القرن التاسع عشر، ثُم أعادها فى اليوم التالى، وبالطبع لم يقبل بذلك مُدير المصلحة الذى أوقفه عن العمل، ونقله إلى وظيفة أخرى. المُهم أن جردا آخرا جرى بعد ذلك بعامين واكتشفت لجنة الجرد أن النُسخة الموجودة فى المصلحة نسخة مُقلدة، ولم يعرف أحد إن كان سالم هو الذى بدّل الوثيقة الأصلية أم أحدا بعده.

وواصل الرجل بأنّه شخصياً سأل سالم بعد نقله بعيداً عن المخطوطات إن كان قد بدّل النُسخة الأصلية أم لا فكان يرد الاتهام إلى زملائه، مؤكداً أنه من المُحال أن يبيع تاريخ مصر.

- رحم الله والدك.

هزّ الرجل السبعينى رأسه حُزناً بعد أن أجج أمواج الحيرة فى رأس كرم.

# (٣٦)

نصف الحقيقة تساوى لا شيء. أن تعرف ضرورة لكى تفعل، ومادمت لا تعرف فإنّك بالقطع لن تفعل، وإذا فعلت فتلك الافعال مُجرد ضربات عشوائية أشبه بمن يطارد بعوضة فى غرفة حالكة الظلام. ما دام الخطاب قُد فُتح وما دام الستار قد اهترأ بفعل الزمن فليس أقل من كشف المخبوء تماما. تماماً حتى ترتاح.

حثّ الخُطى صاعداً زقاقاً ضيقاً يعلو بشكل حلزونى بين بنايات قديمة، مُتهالكة يغلب على رائيها توقع الفقر والبؤس داخلها. يعرف طريقه جيداً نحو دار المحفوظات يسار ميدان القلعة الذى عُرف قديما باسم الرميلة، يمضى حاسباً كُل خطوة كفعل ضرورة للوصول إلى الحقيقة. حقيقة والدك. هل خان المواطن الذى تصوره دائماً نبيلاً ونزيهاً مهنته؟ وهل كان يبيع تاريخ مصر؟ وإن لم تكُن الوثيقة التى احتفى بها سنوات طوالاً أصلية، فأين هى الوثيقة الاصلية؟

كانت مُقلتاه تُعيدان قراءة خطاب رئيس قسم التاريخ بجامعة القاهرة إلى مدير دار المحفوظات بتسهيل مُهمة كرم سالم المدرس المُساعد بالقسم فى مُراجعة بعض الوثائق التى تخُص فترة محمد على باشا. تذكر كيف استغرب الدكتور عفت عزام من طلبه كتابة خطاب لدار المحفوظات لتيسير اطلاعه على بعض الوثائق لزوم اتمام الرسالة.

ـ المفترض طبقا للأوراق التى قدمتها لى أنّ رسالتك تامة وأننا حددنا موعد المُناقشة بعد ثلاثة أشهر.

هكذا قال، لكن صاحب العينين الزائغتين حيرة أجابه بأنّ الرسالة انتهت بالفعل، لكنه يُريد مُراجعة نصوص أخرى تحسبا لأسئلة يتوقعها من جانب لجنة المُناقشة. كرر الدكتور عفت عزام تحفظه قائلاً:

ـ لا أسئلة ولا غيره. أنا رئيس اللجنة وأضمن لك مُناقشة هادئة.

ردّ كرم بأنّه يثق فى ذلك تماماً، لكنه يُريد أن يُطمئن قلبه ويستعيد ثقته بنفسه، فوافقه رئيسه بعد إلحاحٍ.

أحجار سور القلعة تشهد بقسوة العلاقة بين الناس وأهل الحُكم على مدى عقود امتدت لأكثر من ثمانية. ذلك الجزء الظاهر من السور يعود لزمن صلاح الدين الايوبى، الذى يكن له كرم كراهية شديدة ويعتبره مثالاً واضحاً على تزوير التاريخ. هل من الممكن أن نغفر لقاتل أو طاغية سفحه للدماء لأنّه حقق نصراً ما؟ أى انتصار للأمم وشعوبها مسحوقة تحت سياط الجبابرة والمُتسلطين. هكذا فكر وهو يتذكر كيف أمر صلاح الدين ابنه أن يقتل الفقيه السهروردى لأنّه ما ناظر أحداً إلا غلبه.

الآن صار الرجل رمزاً. بعد سقوط القدس فى أيدى الصهاينة كان

لابد من استدعاء جبار من جبابرة التاريخ للتغنى بأمجاده وفتوحاته والالتفاف حول اسمه لتكرار حرب التحرير. فعلها عبد الناصر فى مصر وأنفق من ميزانية الحكومة على فيلم سينمائى لتمجيد صلاح الدين، ثُم فعل ذلك صدام حسين فى العراق مُسميا أسلحته وفرقه العسكرية باسم السلطان الذى استولى على الحُكم قهراً بعد وفاة سيده نور الدين محمود. دائماً يغفر التاريخ للقتلة والسفاحين. دائماً ما يفعل.

لمح محموله يرن وعلى الشاشة يظهر اسم «رأفت» الذى لا يتذكره. رُبما كان أحد الطلبة الذى انسحب وجوده من كهف ذاكرته. لا يرد كعادته عندما يكون مُقبلاً على عمل يعتبره مصيرياً. كثيرون ينخلعون من الذاكرة بسبب الغياب، وعدم الأهمية.

واصل تقدمه فى صباح هادئ يميل إلى البرودة التى يكرهها كرم كراهيته للنوم مُبكراً. مسّت ندى عصب ذاكرته مُتذكراً حماسها ونقاءها وحُبها الذى يشعر بانسحابه من فؤاده رويداً بعد أن فقد مكافأة مُجزية كان يُمنى نفسه بها من المعلم نصحى نظير وثيقته. لاحت بوابة الدار المُدججة بسور القلعة والتى حملت لافتة قديمة مُتربة مكتوباً عليها «وزارة المالية ـ دار المحفوظات». استغرب بشدة تبعية الدار لوزارة المالية، لكنه واصل غير عابئ لأى جهة تتبع. هذه الدار أحد انجازات محمد على الذى يكرهه كرم رغم ما شاد وما ترك ولولاه ولولا راغب أفندى الذى ترأس أول «دفتر خانة» عام ١٨٢٨ م ما توثقت كثير من حوادث الماضى وسير السابقين.

دلُف إلى ممر مُعتم ليسأله رجل يجلس على مقعد خشبى يذكره بصالح البواب عما يريد فسأل فى تعالٍ عن المدير، فتلقى الجواب الممرور الذى

اعتاده حُجاب أبواب الموظفين الكُبار إن كان هُناك موعد، فأخرج خطاب رئيس القسم. إستئذنه الرجل ممسكاً بالخطاب وغاب لحظات خرج بعدها داعياً كرم إلى الدخول إلى مكتب مدير المكان.

قاعة متوسطة لا توحى جدرانها بأى فخامة أو عراقة، تنفتح أمامه ليتذكر غرفته الضيقة بجامعة القاهرة. دلف مُحيا رجلاً خمسينياً أصلع يرتدى بذلة كانت موضة العالمين قبل ثورة التصحيح، رحب به فى كلمات آلية، ثُم عبر عن رغبته فى مساعدته إلا أنه قطع الطريق تماما وهو يقول: ليس لدينا وثائق. كُل ما لدينا هو دفاتر مواليد ووفيات من عام ١٨٣٨ وحتى ثورة يوليو ولدينا دفاتر جرد الأراضى والعقارات وكُلها تبدأ بعد عام ١٩٠٠ ميلادية، وحتى الوقائع الرسمية المُتاحة لدينا تبدأ بعام ١٨٨٥. ليس عندنا من عصر محمد على وثائق أو مخطوطات. لقد نُقلت جميع الوثائق والمخطوطات إلى دار الوثائق والكتب على كورنيش النيل، وبعض المخطوطات نُقلت إلى مخازن متحف الفن الإسلامى.

ـ هل أنت مُتأكد أنّه لا يوجد...

ـ نعم يا أستاذ. أنا أعمل هُنا مُنذ سنوات. لقد نقلنا كُل وثيقة ومخطوطة.

فكر كرم قليلاً، وحاول استثمار الزيارة فسأل الرجل:

ـ هل تعرف حضرتك موظفاً كان يعمل هُنا منذ عشر سنوات اسمه سالم البرديسى.

صمُت الرجل قليلاً وكأنّه يحاول التذكر، لكنّه أجاب:

ـ للأسف لا أذكر. أهلاً وسهلاً.

قام مُغادراً.

طريق مسدود. لا شيء يبدو واضحاً. إن كان أبوك قد باع الوثيقة الأصلية فلابد أنّ ثمن ذلك كان كبيراً جداً، ليس مُجرد مبلغ يكُافيء جُهد تزوير وثيقة، وإنما ثروة طائلة. لكن أين هى؟ وإن لم يكن أبوك قد باعها، فلم اختفت الوثيقة الأصلية حسب شهادة حسن النعمانى؟ ألا يُحتمل أن يكون تأكيد نصحى بأنّ الوثيقة التى معك غير أصلية محض كذب؟ لكنك جربت بنفسك اختبار تسخين حروف الوثيقة ووجدتها قابلة للمحو؟

صخب المدينة القاسية كتلك الزنازين التى تراصت فى ذلك الموقع من القلعة لتشهد كم كان البصاصون بلا قلوب وهُم يصنعون الأوجاع لضحاياهم.

# (٣٧)

الحادية عشرة مساء فى غرفة كرم، حيث يجلس وحيداً تاركاً صديقه الأثير عبد الرحمن الجبرتى وحيداً على الحائط، سجيناً لبروازه الخشبى.

يكتب فى غرفته التى غطّت أسطح أثاثها الأتربة. يكتب فى صمت ودُخان سجائره يرسم فى فضاء الغُرفة حلقات غير مُنتظمة. يكتب فى هدوء وبرود، مُتذكراً نقاء والده الذى لا يمكن أن يتصوره لصاص للتاريخ، مُتاجراً بما أؤتمن عليه.

لم يصل لشىء ترتاح معه نفسيته، وتهدأ إليه روحه الباحثة عن يقين فى واقع كُل ما فيه نسبى. مثله مثل التاريخ الذى يتحول فيه كثير من الخونة والانتهازيين إلى أبطال، وينقلب فيه كثير من الشُرفاء إلى خونة. مَن يُصدق ومَن يُكذّب بين هؤلاء الذين سماهم البعض مؤرخين وقدموا لنا حكايات لا دليل عليها عن شجاعة وصلاح البعض، وظُلم وزندقة الآخرين؟ ما الدليل أن ما نُقل حدوثه حدث بالفعل؟ ولِمَ لا تكون نصف المُدونات أكاذيب أو قصص خيالية، تماما كالقصص التى يكتبها حسن

السويسى لنفسه ويُلقى بها بين تلال من الورق والكُتب التى تتكدس فى غرفته كدليل على كونه مُقف؟

الوقت يُهدر دون سبب. مات أبوك وغادر، وتزوجت أُختك، وتُركت وحيداً وصار عليك أن تهتم بنفسك. لا يفيدك شىء إن كانت وثيقة العسس حقيقية أم مُزيفة، أصلية أم تقليداً ما دام المُشترى الوحيد المُحتمل حكم بتزييفها ورفض شراؤها. كذلك لن يفيدك معرفة مصير الوثيقة الأصلية وهل هى بالفعل فى دار الوثائق أم اختفت تماماً؟ لا طائل من بحث فى سراديب الماضى، ولا فائدة تُرجى من ذلك العبث. انشغل بما هو حق لك أن تنشغل به. رسالتك التى تنتظر الصياغة، وكتاب ندى الذى يُشعرك أنك ساهمت فى فعل صلاح حقيقى. أتراها ستفضح هذه الممارسات السادية التى تجرى كفيروس دائم فى شرايين رجال الشرطة، لا بهدف حماية أمن المُجتمع وأمانه وإنما لكفالة التأمين الحقيقى لنظام الحُكم، وقمع كُل من لا يُسبح بحمده. إنها النفوس ذاتها التى تتغير ملامحها وأسماؤها وصفاتها عبر التاريخ، لكنّ أفعالها كما هى. فى عهود الدولة الأموية كان التعذيب لا يتجاوز الجلد بسياط أو خيزرانات رفيعة، ثُم عرف الكى بالنار فيما بعد واستحدثت عقوبات قطع الآذان والألسنة. وعرف الناس بعد ذلك الخازوق الذى كان يُدق فى دُبر المُتهمين ببطء ليُقطع المصارين واحداً وراء الآخر حتى ينزف الضحية دمه قطرة قطرة بعد أن يبوح بُكل ما يعلم دون جُهد أملاً فى موتٍ سريع ينقذه من العذاب.

كتب مقالاً تاريخياً مدفوعاً على جهاز حاسبه الآلى وأعاد قراءته بصوتٍ عالٍ كمتمرن على قراءة اللغة العربية بشكل صحيح. انسابت كلماته الجافة التى تخلو غالباً من بلاغة أو أوصاف يعتبرها خروجا على منهجية التاريخ ليسمعها:

«حسن طوبار هو شيخ المنزلة الذى رفض الاستسلام أمام الحملة الفرنسية. ظل الرجل يقاتل فى صبر ومحبة وحوله عدد من الصيادين والفدائيين.

كان «طوبار» واسع الثروة والنفوذ، محبوباً من سكان إقليمه من الصيادين،. وكان في حالة من الرواج كفيلة بأن تقعده عن اتخاذ أي موقف يمكن أن يهدد ثروته، إذ كان يمتلك أسطول صيد قدّرته بعض المصادر الفرنسية بنحو خمسة آلاف مركب، وعدداً لا بأس به من مصانع نسج القطن، والمتاجر، ومساحات شاسعة من الأراضي الزراعية، لكنه أبى إلا المخاطرة والمغامرة.

وكان ـ كما يذكر الجبرتى ـ يذهب بنفسه إلى البلاد والقرى يحرّض أهلها على الحرب، ويطمئن على وسائل الدفاع لديهم، ويجهز من ماله الخاص الأسطول البحري الذي حارب الفرنسيين في البحيرة، وأوشك على إخراجهم من دمياط.

حاول الفرنسيون التخلص منه، لكنهم لم يستطيعوا لمكانته عند قومه، فأرادوا أن يستميلوه إليهم، فأرسل إليه الجنرال فيال ـ الذي عُيِّنَ حاكماً على دمياط ـ سيفاً مذهباً ولم يشأ أن ينحيه عن منصبه، لكن حسن طوبار قابل ذلك بالسخرية الشديدة، إذ كان حسه الوطني أهم عنده من غواية الهدايا. وظل الرجل ثائراً يشعل يدور بنفسه بين دمياط والمنزلة والمنصورة يستحث الناس على مقاتلة الفرنسيس. وفي ١٦ سبتمبر سنة ١٧٩٨ قاد طوبار حربا قاسية على الفرنسيين واشترك فيها أهالي البلاد المجاورة، ونتيجة لحرج مركز الفرنسيين في دمياط اضطر نابليون إلى إرسال الجنرال أندريوس ليعاون الجنرال فيال في توطيد سلطان الفرنسيين في

تلك الجهات. وتقدم الفرنسيون في ٢٠ سبتمبر للاستيلاء على مدينة الشعراء، وبالرغم من استيلاء الفرنسيين عليها فإن الثورة تفاقمت في البلاد الواقعة بين المنصورة ودمياط، وتعددت حوادث مهاجمة الثوار للسفن الفرنسية المقلة للجنود في النيل.

وأدرك نابليون أنّ طوبار لن يخضع إلا بالحرب، وأنّه لن يكون له سلطان على بلاد هذه المنطقة، ولن تنتهي مقاومة أهلها وثوراتهم على جنوده إلا بالقضاء عليه، فأمر قائد الحملة الفرنسية بتجهيز حملتين كبيرتين نجح بالفعل بهما أن يدخل المنزلة في ٦ أكتوبر ١٧٩٨، الا أن طوبار كان قد غادرها ومعه معظم أهلها إلى غزة.

وهناك لم يكف عن المقاومة، فقد استأنف نشاطه من جديد، وكوَّن جيشاً وأسطولاً من خمسين قطعة لكي يبحروا به إلى دمياط لمباغتة العدو. وبالرغم من أنّ الظروف لم تمكن طوبار من إتمام هذه الحملة، فإنّ رعب الفرنسيين منها جعل نابليون يسمح له بالعودة إلى مصر بشرط أن يبقى ابن الشيخ حسن تحت أيدى الفرنسيين في القاهرة، ويعود حسن طوبار إلى دمياط. ولولا خطفة الموت الذى داهم طوبار فى يوليو عام ١٨٠٠ لاستمر مقاتلا صلبا للغزاة، ولم يكن غريباً أن تنشر جريدة «كورييه ديلجيت «نبأ وفاته.»

زر وحيد ضغط عليه كرم ليُرسل مقاله إلى حيث يُرسم على ماكيت مُلحق ثقافى لإحدى الصحف الخليجية. حكايات لها ثمن تكفل له استكفاء احتياجات لا يُمكن لراتبه المحدود من الجامعة أن يُلبيها.

فكر فى ندى ووجهها الطفولى وحماسها الناعم وجمالها الأخاذ، ثُم تذكر أنّ عليها تدبر أمر الزواج فى الصيف القادم بعد أن يُضيف حرف

الدال إلى اسمه قبل أن يتقدم بفقره وشقته القديمة إلى طبيب الأسنان المُثقف الذى تعتبره ابنته أعظم أب فى الوجود.

حفل الخطوبة سيكون محدوداً، وسيقتصر على شقيقته وزوجها وأسرة ندى ورُبما صديقه الأقرب حسن السويسى، أما حفل الزفاف، فقد يتسع ليدعو فيه جاره الطيب أحمد هواش وزوجته، وزملائه فى الجامعة، وعلى رأسهم رئيس القسم الدكتور عفت عزام، ورُبما أحمد سامح وخطيبته وإن كان حضورهما سيسبب حرجا لآخرين قد يحضرون. هل سيدعو الرائد نادر عبد العليم؟ لا يدرى بشكل قاطع لكن من الأفضل نسيان هذا الرجل الذى يتطفل على كُل شىء ويطرح نفسه كصديق جبراً.

لكلِ أوان. لا تتعجل. نِم هادئاً فالغد ستذهب مع ندى إلى معرض الكتاب.

وغرس سيجارته فى منفضة كريستالية ورثها عن والده، وأطفأ نور الغرفة، وأرخى ظهره على سرير كبير يُصفّر كُلما غاص جسدٌ فوقه. ونام رويداً رويداً.

# (٣٨)

عبرت ندى شارع شريف إلى حيث يقف مُنتظراً إلى جوار مبنى وزارة الأوقاف. نظارة شمس جميلة تُغطى وجهها الصغير، ومنها يفوح عطرها الياسمينى المُتناسق مع دريل بُرتقالى تحت ايشارب مُزدهر بورود جميلة. استقلا تاكسياً إلى أرض المعارض، حيث اتفقا على الذهاب معاً. ندى للتوسق وشراء الكُتب والروايات والدواوين الأحدث، وكرم لحضور ندوة عن السرقات الأدبية يشارك فيها صديقه أمجد سامح.

سألته ندى عن سرحانه، فتمتم مُبتسماً: لاشىء. إرهاق.

سرحت ندى بعينيها العميقتين فى وجهه الشاحب، مُتجاهلة نظرات تلصص يرمقها بها السائق ذو اللحية البيضاء فى مرآة كبيرة نسبيا تتوسط الباربارىز الأمامى. أرسلت نظرات محبة مُختلطة بحيرة وخوف إلى ذلك الجالس على يسارها ببذلة سوداء تراها غير مُناسبة لخروج نهارى. أعادت الابتسام وهى تضغط على كف كرم هامسة:

- ماذا تُخبئ أيها الثعلب المكار؟ ألم أقل لك من قبل إننى أحمل الدكتوراة فى قراءة الوجوه؟ عيناك تُريدان أن تبوحا بسر، لكنها مُترددة.

انتبه كرم مُستعذباً أصابعها الرقيقة النائمة فوق راحته مانحا إياها نظرة طمأنة قبل أن يقول لها:

- سأحكى لك كُل شىء.

ابتسمت قليلاً وقالت وعيناها تتكلمان الكلام ذاته:

- أنت مهموم بمصاريف الزواج. تسأل نفسك من أين سأُشترى شبكة لندى، ثُم كيف سنؤسس البيت، وهل ستقبل ندى الزواج فى عابدين؟

ابتسم قائلاً:

- بعض من هذا يدور فى رأسى، لكن هُناك موضوعاً آخر يشغلنى سأحكيه لك بعد الندوة.

هزّت رأسها مُرحبة، وظلت أصابعها تُعانق يدُه غير عابئة بسهام زجر أطلقها سائق التاكسى من مُقلتيه. الطريق هادئ فى مثل هذا التوقيت من النهار، حيث يبدأ كثير من الموظفين أعمالهم، وتخلو الشوارع من التكدُس المُعتاد مُدللة أن هذه المدينة من المُمكن أن تشعر بجمالها كُلما قبع الناس فى بيوتهم ومكاتبهم بعيدا عن شوارعها.

وصلا فى زمنٍ قياسى، ودخلا معاً ويداهما مُتشابكتين كحبيبين. لم يُدخن مُنذ خرج، لأن التصاق يُمناه بيُسرى ندى دفعه ألا يمد يديه إلى علبة سجائره. الزوار محدودون فى هذه الساعة من النهار، لكن السمة

البارزة أنّ مُعظم هؤلاء من الشباب. رُبما كان هُناك أربعينيون وخمسينيون يتجولون ذهاباً وإياباً، لكنهم لا يقربون خيام الندوات.

دلفا إلى خيمة المقهى الثقافى، ليجدا عنواناً لافتاً عن التأثيرات المُتبادلة بين الشرق والغرب فى دراسات التاريخ. كيف غيّروا عنوان الندوة؟ لقد كانت مُخصصة عن السرقات الأدبية. سأل ندى فهزت رأسها مُستغربة.

جلسا معاً وسط حضور ضعيف يقتصر على بنطالين من الجينز وخمارين ناعمين وشعر مُتدلى لفتاة تبدو غريبة بين الحاضرين. التمعت صلعة الدكتور عفت عزام المُحاضر الرئيس وإلى جواره شاب يبدو موظفاً فى وزارة الثقافة. انطلقت الندوة بذلك الجمهور المتواضع وتجول كرم بعينيه باحثاً عن أمجد سامح فلم يجده، فكرر البحث ليكتشف أن ذات الشعر المُتدلى هى غادة رفيقة أمجد. اقترب منها سائلاً عن صديقه؟ فأجابته نافيةً معرفتها ومُؤكدةً أن هاتفه مُغلق. تحدث الدكتور عفت باستفاضة وبخيلاء وصال وجال دون مُعقب، ثُم حيا بيديه كرم وصديقته، قبل أن تُصفق أيادى الحضور امتناناً وتقديراً. صافح الدكتور عفت عزام كرم وندى شاكرا حضورهما، ثُم ابتسم مُباركا لكرم على رسالته المُذهلة، ومؤكدا سعادته بتلميذ نجيب بدا يصعد بثبات إلى مصاف الأساتذة.

على مقهى مُلاصق فى الهواء الطلق جلسا كرم وندى مُندهشين. طلبت ندى نسكافيه، بينما سأل كرم النادل فنجانا من القهوة المضبوط. لمست أصابع ندى خُصلة مُنسدلة من إيشاربها الملفوف حول رأسها خالعة نظارة الشمس ماركة الـ«RAY BAN» لتقول:

ـ لم أفهم شيئاً من كلام دكتورك سوى أنّ التاريخ نسبى.

- هو لم يقُل شيئاً. كُنت أنتظر حضور أمجد سامح الذى أخبرنى أنه سيكشف سرقة كتاب الدكتور عفت الأخير عن محمد على من كتاب لمستشرق أوروبى.

استغربت ندى وسألت:

- لمَ لم يأت؟

مطّ كرم شفتيه، وألقمهما سيجارة سحب منها نفساً عميقاً وقال:

- لا أعرف. خطيبته غادة موجودة، لكنه لم يأت. المهم.

- نعم المُهم.

- حكايتى مع الوثيقة.

- كُلى آذان صاغية.

وحكى لها فكرته التى ولدت فجأة بإمكانية بيع وثيقة «العسس» مادام علمها قد حازه وسجله فى رسالة الدكتوراة، ثُم لقاءه بالمعلم نصحى، وما حكاه عن والده، ثُم لقائه بزميل والده وجزمه بأنّ الوثيقة الأصلية اختفت حتى من مؤسسات الدولة.

سألته ندى عما يدفعه لذلك. إنّها لم تطلب شيئاً وزواجهما يُمكن الاتفاق عليه بهدوء فى ضوء المُتاح، فهى لم تطلب شبكة، ووالداها مُقتنعان بأنّ التوافق أهم من الماديات وأنّه يمكن اتمام الخطبة خلال شهور قليلة، ثُم التخطيط للزواج تباعا. أما قصة والده فاعترفت أنها غريبة، لكنها لا تُقلل من أبيه الذى مازال الناس يعرفون سمعته الطيبة، كما يكفيه أنّه علمه ورباه هو وشقيقته بشكل مُحترم. واعتبرت أن تسجيل

الوثيقة وما بها من معلومات فى رسالة الدكتوراة الخاصة به، والاستعانة بها فى كتابه عن التعذيب، يعنى أنّ أباه قدم للعلم وللوطن خدمة جليلة باحتفاظه بهذه الوثيقة أو بالنسخة المُقلدة منها.

حواجز من الهم انهارت أمام كرم الذى منح رفيقته نظرات شكر ورضا. حدثته عن الكتاب الذى أنهت كتابته كمخطوطة وقرأت له الفهرس ليكون حسب الترتيب: مُقدمة تتحدث عن ظاهرة التعذيب فى التاريخ الإنسانى وحرمته فى الأديان السماوية الثلاثة، ثم يتحدث الفصل الأول عن جحيم المباحثيين مُناقشا أسباب خوف الناس من رجال الشرطة وتطور العلاقة من التوقير إلى النفور. ثُم يستعرض الفصل الثانى أساليب استنطاق المُتهمين بشكل عام فى التاريخ القديم والحديث مع استعراض نماذج لذلك فى دول مثل الصين، كوريا الشمالية، وإيران، وبعض البلدان الافريقية. أما الفصل الثالث وهو أطول الفصول، فيُقدم استعراضاً للقضية فى مصر طارحا شهادات من ضحايا تعرضوا للتعذيب بألوان شتى، فضلاً عن مُشاهدين ومراقبين يُدلون بما يعرفون عن مدى رضا مؤسسات الدولة عن ذلك المنهج كأسلوب ردع للمناوئين. بعد ذلك يستعرض الفصل الرابع تقارير حقوق الإنسان العالمية والمحلية عن استخدام العنف والقوة فى انتزاع الاعترافات فى مصر، مع مقارنتها بنصوص القانون والدستور.

هزّ كرم رأسه موافقاً وعيناه تقدما شهادة فخر لذلك الوجه الصبوح الدافق بحماس قلما شعر به عند فتيات ونساء عرفهن. أخبرها أنّ حسن سيحمل المخطوطة إلى مطبعة قديمة فى السويس ليطبع ثلاثة آلاف نُسخة، وأنّه سيقوم بنقلها مع أقمشة مستوردة إلى القاهرة، قبل أن تُخزن

فى شقة كرم ويتم ارسالها بالبريد إلى كُل الصحفيين والمسئولين ورؤساء الأحزاب وأعضاء البرلمان ومنظمات حقوق الإنسان.

أخرجهما من الحديث اتصال مُفاجئ يهزّ جهاز الاريكسون المستريح فوق طاولة بدائية ليجد كرم اسم أمجد مُتراقصا على الشاشة. أخبره أنه انتظره ولم يأت، ثُم صمت قليلاً، قبل أن يُغلق الهاتف ويقول لندى:

ـ قُلت له مراراً أن يأخذ حذره من تلك الفتاة التى تُرافقه كظله، لكن يبدو أنّه لا يريد أن يُصدق.

ـ ما الموضوع؟

سألت ندى. فابتسم وشفط قليلاً من القهوة، ثُم قال فى ثقة:

ـ لقد قبضوا عليه أمام معرض الكتاب ومعه مُلخص بحث عن سرقة الدكتور عفت عزام لكتابه الأخير من كاتب يُدعى لورانس، واستجوبوه وأخروه عن الندوة حتى انتهت، والواضح أنّ أحداً لا يعلم بما كان ينتويه سوى غادة، تلك الفتاة التى يحبها ويجلس معها فى الجامعة، والمؤكد أنها تتجسس عليه.

ـ ليس شرطاً.

تنطق ندى، لكنه يُقاطعها:

ـ هكذا كان يظُن. لكن أنا شخصيا مُقتنع تماماً بأنّها غير جديرة بثقته.

تنظر ندى فى ساعتها، وتسأله:

ـ لصالح مَن تتجسس عليه؟

ـ رُبما للأمن أو رُبما لإدارة الجامعة أو الدكتور عفت نفسه. الجميع سواء يا عزيزتى. كثير من البصاصين ينتشرون بيننا، رُبما لا نشعر بهم إلا بعد فوات الأوان.

تنظُرمرة أخرى فى ساعة يدها، وتدعوه للقيام لشراء بعض الروايات والكُتب الجديدة فيوافقها ويمضيان معاً.

# (٣٩)

محمود مندور أستاذ الجامعة النبيل الذى احتضن كرم فور تعيينه مُعيداً يجلس على كُرسى مُتحرك فى صالون مُذهب بشقة فخيمة بحى المنيل مُنتظرا قدوم تلميذه الشاب الذى اتصل للتو بزوجته طالباً الزيارة. منذ شهور طويلة داهمت جلطة مُفاجئة دماغ مُحلل الأزمات الفائتة لتُفقده النُطق والحركة ومعهما التدريس والطلبة والمُحبين للتاريخ. رُبما كان ينتظر زيارات أسبق من ذلك الطالب المُجتهد الذى شجعه ووقف إلى جواره وصبّ فى رأسه قواعد استبعاد الشهادات وعلم قبول ورد المؤرخين المُعاصرين والقدامى على السواء. يسمع الجرس فيفرح مُبديا نظرات فرح تفتح معها زوجته الباب ليطل شاب طويل أنيق يحمل حقيبة سوداء. بادرته السيدة الخمسينية التى لم تُغادر بقايا الجمال وجهها قائلة:

ـ أُستاذ كرم؟

أومأ فى أدب، فسارعت:

ـ تفضل.

نفس الوجه الهادئ والعينين الزائغتين، رُبما نحل جسده كثيراً، لكن مَن يعرف الدكتور محمود مندور يستطيع أن يقرأ حاله من تلك العينين اللتين تُشعان حُزناً. انحنى كرم على رأسه مُقبلاً، فضُم جليس الكُرسى المُتحرك رأس كرم فى حنان أبوى لتنهمر دمعة ساخنة على وجهه. أصدر الدكتور محمود مندور همهمات غير مفهومة، فمسحت زوجته على شعر رأسه بيُمناها قائلة:

ـ إنّه حزين لأنّك لم تسأل عليه.

أبدى كرم أسفاً مُبرراً بمُناقشات الرسالة وكثافة المُحاضرات، وبادر بتقبيل رأس أستاذه مرة ثانية وهو يقول:

ـ تقبل عُذرى يا دكتور. مجلس الكُلية كان سيوقفنى لو لم أنته من الرسالة الآن، وجئت أعرض عليك مُلخصاً لها.

هزّ الدكتور محمود رأسه موافقا، وطلبت زوجته من كرم أن يقرأ بصوت عالى بعد أنّ إستئذنت لإعداد شاى.

تدفقت الكلمات من فم كرم فى بُطء وكأنّه يمنح مُستمعه مساحة من الوقت لاستيعاب كُل كلمة والتركيز فى معانيها ودلالاتها:

ـ البصاص هو مرادف الشُرطى فى زمن محمد على، وهو ضابط متوسط يُدير مجموعة من المُخبرين الصغار الذين تتنوع مهامهم بين نقل الحكايات، والتعرف على توجهات الناس، وكشف أسرارهم، وتحليل توجهاتهم، وبث الشائعات بينهم، والتشنيع على خصوم الحُكم. كان البصاص فى كثير من الأحيان يعتمد بشكل رئيس على رجال يعملون تحت إمرته قبل أن يقوم

محمد على ورجاله وعلى رأسهم الكتخُدا محمد بدفع البصاصين لتجنيد قوائم مُختلفة من عامة الشعب وخاصتهم لنقل أخبار وأسرار صادقة دون أن يشعر أيُهم بأنّه يخون مَن تتم مراقبته. كان البعض يتم إقناعهم بوجود خطر ما على الدين والعباد يستلزم فتش وكشف ما تستتر من أمور، بينما كان البعض الآخر يقوم بنقل الحكايات دون شعور إما تحت تأثير مُخدرات مُعينة كالأفيون والحشيش أو تحت تأثير التنويم المغناطيسى. هُناك آخرون كانت تتم السيطرة عليهم للعمل كبصاصين بعد أن يتم تهديدهم بالاعتداء الجنسى عليهم أو على زوجاتهم وشقيقاتهم.

هزّ الدكتور محمود رأسه لأسفل علامة على رضاه، فى الوقت الذى دخلت فيه زوجته حاملة صينية فضية عليها كوب شاى إلى جانب كوب ماء سارع كرم بدلقها فى جوفه، ثُم واصل:

ـ فى تلك الأثناء استحدث البصاصون نُظماً لإجبار المُستجوبين على الاعتراف تضمنت التركيز على التعذيب المعنوى أكثر من البدنى من خلال اهدار الكرامة والشرف أو الوصم بالزندقة والشذوذ، وهو ما حقق نتائج مُذهلة.

بدا الاهتمام على الوجه الصامت، وارتعشت عينه اليُمنى عدة مرات، قبل أن تقول زوجته:

ـ إنّه يسألك عن مراجعك فى ذلك الشأن.

ابتسم كرم مُعجباً بجسور التفاهم المُمتدة بين الأستاذ وزوجته الصابرة إلى جواره فى تلك المحنة القاسية، وسرد عدداً من الكُتب والمخطوطات

الشهيرة وبعض الكُتب المُترجمة، فضلا عن عدد من الوثائق والتى على رأسها وثيقة «العسس».

همهم الدكتور محمود مندور عند سماعه الكلمة، وأغمض عينيه مراراً مُلقياً نظراته على المكتبة الفاصلة بين الصالون والسفرة، فنظرت الزوجة بتركيز إلى وجه كرم، ثُم طلبت منه أن يُراجع المكتبة، لأنّ زوجها يُشير عليه بذلك، فوقف مُتجها إليها، وعسّ بنظره على مُجلدات يحفظها تماما بدءا من «الكامل» لابن الأثير و«النجوم الزاهرة» لابن تغرى بردى، وحتى تاريخ المسلمين فى الأندلس لمحمد عبد الله عنان.

اقترب أكثر وبدأت يداه تقليب الكُتب المرصوصة حتى وجد بغيته وبغية مضيفه مُجلداً رفيعاً يبدو أنّه تم تجليده حديثاً، وفتح الصفحة الأولى حتى فوجئ بأنها ذات الوثيقة الموجودة لديه. اندهش وسأل الزوجة:

ـ من أين جاء الدكتور بهذه المخطوطة النادرة؟

ابتسمت الزوجة ونظرت لزوجها باعجاب، ثُم أمسكت بالمُجلد الصغير وقلبت فيه قليلاً ثم قالت:

ـ إنّها نُسخة مطبوعة حديثاً.

قلبت السيدة التى تبدو مُتفهمة كثير من عمل زوجها الصفحات فى تريث مُضيفة:

ـ ومطبوعة فى مطابع الشرطة عام ١٩٩٥. ألم أقل إنّها حديثة؟ أعتقد أن هُناك نُسخاً أخرى منها لأنه ليس من الحكمة طباعة نُسخة أو نُسختين فقط.

ازدادت القضية غموضاً وتعقيداً. كيف لا يعلم الدكتور عفت عزام بوجود هذه الوثيقة مطبوعة؟ وضمن مطبوعات الشُرطة؟ هل تُرى كانت مقصورة على رجال الشُرطة، أم تولت وزارة الداخلية توزيعها على كثير من الباحثين وأساتذة التاريخ؟ ولو كان ذلك صحيحا لم لم يرد لها أى ذكر فى أى كتاب جامعى؟

الحيرة تولّد حيرة. هل يعنى ذلك أنّ الوثيقة السرية ليست سرية؟ وأن الداخلية كانت على علم بها؟ لكن لماذا طبعتها؟ ومن أين أحضرتها؟

هكذا فكر كرم وهو يقارب السقوط على الأرض كمَن شرب صندوقاً كاملاً من البيرة. لحظات صمت طويلة اكتفى فيها بالنظر بين وجه أستاذه ووجه زوجته والمُجلد الصغير.

ـ هل من الممكن أن تسأليه من أين أتى بهذا المُجلد؟

تساءل كرم فأجابت المرآة:

ـ أنا لا أتذكر، لكن رُبما من أخى.

ـ أخوكِ؟

ـ نعم، كان يعمل ضابطاً بالداخلية، لكنه تقاعد منذ عامين.

لمعت عينا كرم ثُم طلب مُحادثته، وألحّ فى ذلك حتى اتصلت الزوجة بشقيقها وتبادلت معه السلام والعتاب حتى أخبرته أن أحد تلاميذ الدكتور يريد أن يسأله عن مُجلد صغير بعنوان العسس.

ـ هذا موضوع كبير يحتاج جلسة.

هكذا قال لها شقيقها الذى نادته رمزى، طالبا منها أن تُعطى رقمه للسائل حتى يُحددا جلسة دردشة حول الوثيقة.

اغتبط كرم وشكر الله أنّ عودته لأستاذه المريض فتحت له نافذة لمعرفة سر الورق الأصفر الذى يُقلق باله مُنذ شهور. ثُم قام من كُرسيه، وهو لا يكاد يُصدق، و قلّب المُجلد الصغير يميناً ويساراً مرة أخرى ليجد النص مُطابقا تماما لما لديه، فاستأذن فى استعارته، ورضت الزوجة، فانحنى على رأس أستاذه مُقبّلاً، ثُم مضى واعدا بزيارات أُخرى.

# (٤٠)

يحمل نادر عينى ثعلب وقلب أسد ووجه فنان، وهو يسير كقائد عسكرى بُخطى تنضح ثباتاً وثقة، وفى يديه ورق محبوس بين دفتى دفتر. صاعدا على سلالم كُلية الآداب الحجرية التى لم يتم تجديدها مُنذ مُظاهرات الطلبة عام ١٩٧٢ طلباً لكسر حالة اللاسلم واللا حرب.

دلف صاحب الخُطى الواثقة إلى حُجرة المُعيدين الصغيرة المفتوحة على يمين الممر الممتد بطول مبنى الكُلية ليُلقى صباحاً خيرياً على كرم الجالس فى وضع انكفاء على أوراق بيضاء مملوءة كتابات لا تكاد تُرى بخط صغير مُنمّق. تصافحا فى ترحاب ورسم وجه نادر ابتسامة باردة اعتادها، وهو يسحب كُرسياً خشبياً ليجلس قبالة كرم.

ـ يا دكتور. دماغك عبقرى. رُقيت اليوم.

تعجب كرم قليلاً، فواصل نادر:

ـ أعدت خطة شاملة لمنح الطلبة الإخوان والجهاديين فرصة أوسع

للتظاهر وتنظيم فعّاليات أكبر ليعرف العالم أنّهم خطرعلى الحضارة والتقدم، ويقتنع بأن فتح نوافذ الحريات والسماح بالديمقراطية سيدفع هؤلاء الإرهابيين إلى الصفوف الأولى. والواضح أنّهم استحسنوا الخطة وعرضوها على قيادات الوزارة التى اعتبرتها اجتهاد فكرى جيد من ضابط شاب.

سرح كرم قليلاً ومطّ شفتيه قبل أن يرد:

ـ لكن هذه بديهيات. هذه الفكرة مطروحة فى كثير من دول العالم ولا أعتقد أنها جديدة.

لم يكمل كرم عبارته، لأنّ نادر قاطعه بحماس:

ـ لا تقل هذا. أنت مُشكلتك أنّك متواضع بشكل كبير، لكن أنا أعرف قصتك كاملة، وأحرص أنّ أتعلم منك كثيراً.

«قصتى» أية قصة يُرددها هذا البصاص المُتأنق؟ فكر كرم قليلاً قبل أن يسأله مُبدياً الجدية:

ـ أية قصة يا نادر بك. أنا نفسى لا أعرف قصتى. لا أعرف كثيراً عن نفسى. على العموم ألف مبروك. ستُصبح مُقدماً أليس كذلك؟

ـ لا ما زالت رائداً. لكن سأعمل مُنتدباً لجهاز أمن الدولة.

ـ أنا أتصور أنّ عملك الحالى تابع لأمن الدولة.

رد نادر:

ـ لا لكننا نتعاون معهم فى معلومات أو ما شابه ذلك.

- تمام. مبروك لك.

ابتسامة مُعتادة ترتسم على وجه نادر الذى سأل كرم قائلاً:

- كيف حال الدكتور محمود مندور؟ زيارتك الأخيرة له كانت مُهمة، هذا الرجل قيمة علمية وفكرية عظيمة. والله لو قُلت لى قبل أن تزوره، لجئت معك.

- هو بخير، لكنه لا يتكلم.

- ربنا يشفيه.

تعرفون كُل شىء. لا يهم. الكلام فى التفاهات أجدى مع هؤلاء.

رمق كرم رزمة الورق فى يمين نادر ورماه بسؤال ساخر:

- وما تلك بيمينك يا باشا؟

باسماً اجاب:

- محضر لصديقك المُشاغب أمجد سامح.

هزّ كرم رأسه مُستفهماً، فواصل الضابط:

- تصور كان فى وضع غير لائق مع فتاة بالأمس وأمسك به موظف وهو يُقبلها، لذا قمنا باستدعاء والدها وهو رجل أعمال مُحترم وصفّينا الموضوع معه لكن لن أرحم صاحبك هذا، لأنه قليل الأدب. تصور يا دكتور فى كُل مكان يشتمنى ويتهمنى بالفشل وكأننى عدو له.

- من هى هذه الفتاة؟ غادة؟

- نعم غادة. بنت لا علاقة لها بأى شىء وأبوها صاحب شركات

ـسرة فى البورصة وعضو فى الحزب الوطنى، لكن واضح أنه يُدللها كثيراً.

اشتعل رأس كرم مُتذكراً مُساندة أحمد له ولندى فى مشروع الكتاب فتساءل فى اهتمام:

ـ وأمجد. ماذا سيحدث له؟

ـ سيُحرم من دخول الامتحانات ويبقى عاماً آخراً؟

أشعل كرم سيجارة ومنح مُحدثه أختها وابتسم قائلاً:

ـ هل تريد رأيى؟

ـ نعم.

ـ حرمانه من الامتحانات مطلبه. هو يريد ذلك. وفى تصورى فإن بقاؤه فى الجامعة خدمة له، لو كنت مكانكم لتدخلت لانجاحه حتى لو لم يدخل امتحانات حتى يتخرج ويغادر الجامعة وتستريح من قلقه ومشاكله.

التمعت عينا نادر ببريق غريب، وهتف:

ـ والله فكرة. أنت عبقرى. سأرفع تقريراً بذلك للوزارة حتى نبحث إمكانية انجاحه. وجوده هُنا ضد مصلحة الأمن. معك كُل حق.

وبحركة مفاجئة مزّق نادر الأوراق فى يديه وألقى بها فى سلة المُهملات قائلا:

ـ وهذا المحضر لا لزوم له. كيف لا أفكر بهذه الطريقة. واضح أنّ

دراستك للعسس والشرطة فى زمن المماليك ومحمد على أكسبتك خبرات رهيبة. والله يا دكتور أنا مُشتاق لرسالتك اكثر مما تتصور.

ابتسما فى رضا. نادر اغتبط لوجاهة الفكرة، وكرم تصوّر أنه دفع ضرراً عن صديق عزيز، وغادر نادر مودعا ليستغرق كرم فى بحار من التفكير العشوائى. كيف اعتبر ذلك الشرطى فكرة تافهة حلاً عبقرياً؟ وهل مستوى الأجهزة الأمنية مُتدنى إلى حيث إنهم لا يعرفون ما ينبغى أن يفعلوه؟ هل هُم يفتحون الأبواب بشكل أكبر للأخوان ولجماعات السلفيين كى يُقنعوا الغرب أنّ مزيداً من الديمقراطية يشكل خطراً على مصالحه؟ هل هذا هو التوجه الأمثل لتأجيل الحريات إلى آجال بعيدة؟ هل هُم كما يقول صديقه الصعلوك حسن السويسى مجموعة من الأغبياء لا يمتهنون سوى التعذيب وليس فى جعبتهم وسائل جمع معلومات سوى عن طريق الترغيب والترهيب؟ أى مؤسسات تلك؟ وأى دولة هذه؟ رحم الله محمد على باشا. رغم دمويته كان داهية، ورغم ظُلمه كان ذكيا، وحتى الجبرتى كارهه اللدود كتب عنه العبارة الشهيرة التى مازال يحفظها ويرددها كثير من دارسى التاريخ، والتى تقول:

«وكان للباشا مندوحة لم تكن لغيره من ملوك هذه الأزمان، فلو وفقه الله لشىء من العدالة على ما فيه من العزم والرياسة والتدبير لكان أعجوبة زمانه وفريد أوانه.»

# (٤١)

عيناها راجعت الملف المُجلد بغلاف شفاف من البلاستيك والذى قدمه لها هذا الخمسينى ذو الثياب الشبابية والذقن نصف النابت والذى يُذكرها دائما بالممثل القديم عبد الوارث عسر. كانت ندى بسحنتها الجادة وخصلاتها الهاربة من إيشارب أرزق ملفوف جالسة إلى يسار حسن السويسى على مقعدين جميلين فى مقهى ريش بوسط المدينة ينتظران معاً قدوم ثالثهما كرم البرديسى فى تنظيم غير مُسمى.

طلب حسن من النادل ذى الزى الأبيض الذى يميز عاملى المقهى الشهير بيرة باردة قبل أنّ يشرح لندى تفاصيل طباعة كتابها قائلاً:

ـ فى حى الأربعين بالسويس توجد مطبعة الكرامة وصاحبها رجل ممن حاربوا فى أكتوبر ١٩٧٣ اسمه الحاج غزال وهو بالمناسبة غير الكابتن غزال أحد رموز المقاومة عندما دخل اليهود إلى السويس. هذا الرجل لديه ماكينة طباعة نصف حديثة ستقوم بطباعة الكتاب خلال أسبوع واحد من تسلمه. فى صباح الغد سأسافر إلى هُناك ومعى هذا الملف

وأبقى فى السويس حتى يتم الانتهاء منه تماماً حتى أضمن ألا تتسرب أى نسخة.

- وبعد ذلك؟

سألت ندى.

أجاب حسن:

- بعد ذلك سنحضر الكتاب فى سيارة نقل بضائع تخُص تاجر أقمشة وسأقوم بتخزينه فى مخزن مُلحق بمحلاته فى منطقة الدراسة وسنقوم بالسحب منه مائة نسخة فى مائة حتى يتم التوزيع كما نريد تماماً.

سألته ندى:

- هل هذا التاجر يعرف الموضوع؟

- ليس تماماً. لكنه ثقة.

أبدت ندى غضبا تظهر ملامحه على وجهها ذى النغزتين البارزتين وقالت:

- لكنّ كرم قال لنا ينبغى ألا نوسع دائرة العارفين حتى لا ينكشف الموضوع ويتم إحباطه قبل أن ننجح فى نشر الكتاب.

صب حسن زجاجة البيرة المُثلجة التى وضعها النادل أمامه فى كوب زجاجى وهو يقول:

- لا تقلقى يا ندى. هذا الرجل صديقى منذ ربع قرن ولا يمكن أن يخوننى أبدا. لا تنسى أننى خبير فى عمليات الطباعة السرية وهذا الرجل

تحديداً ساعدنى كثيراً فى اخفاء منشورات سياسية كُنت أقوم بطباعتها.

فغرت ندى فاهها مُندهشة وتساءلت:

ـ متى كان هذا؟

ـ أيام السادات.

ثُم أكمل قائلاً:

ـ لا تقلقى يا ندى. هؤلاء أكسل وأغبى من أن ينتبهوا. ألم يُقتل السادات وهو يحتفل بالنصر وسط رجاله؟

هزّت رأسها موافقة، ورمت نظرة استفسار عن الوقت على شاشة تليفونها المحمول الاصغر كثيراً من تليفونه، بينما كان حسن يداعب بخياله براويز خشبية مُعلقة على جدران المقهى لتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ وأم كلثوم.

لم يطل الانتظار. دخل كرم من باب المقهى بوجه شاحب حاملاً حقيبة جلدية سوداء وفى فمه سيجارة تتناسب مع الشحوب الذى يرتدى ملامحه.

ـ مساء الخير.

مد كرم كفه ليصافح اليد الرقيقة المُمتدة، ثُم يد صديقه الذى طبع قبلتين على خديه قائلاً:

ـ اجلس.

رمى كرم جسده المُتعب على الكرسى أمامهما وهو يسأل حسن:

ـ ما الأخبار يا رفيق؟

رمته ندى بنظرة محبة مُمتزجة بنظرة إعجاب وهى تُتابع حسن يقول:

ـ تمت المُراجعة. وأرى النص جيداً واللغة بسيطة وسلسة والوقائع مُسجلة بشكل مُنظم وممتاز. كُل شىء كما نريد.

أمنّت ندى على كلام حسن مُتمتمة:

ـ الأستاذ حسن سيسافر غداً إلى السويس وسيطبع الكتاب هُناك.

ـ تمام.

يأردف كرم مُلقياً نظرات شك تجاه صديقه قبل أن يقول:

ـ عندى أخبار مُقلقة. قبل قليل كان معى الدكتور أحمد هواش جارى الذى تعرفونه، وأخبرنى أنّ الطبيب الذى يعمل فى سجن العقرب والذى قدّم لنا شهادة أحد ضحايا التعذيب نُقل إلى المنيا، وهو يشُك أنّ أمره انكشف لأن التوقيت ليس توقيت نقل.

بدأت علامات الدهشة تغزو وجه ندى رويداً فبدا شاحباً نفس شحوب وجه كرم، بينما دلق حسن آخر ما تبقى فى زجاجة البيرة الواقفة أمامه فى كوبه ورشف منها رشفات لامبالية ثم قال:

ـ لا انكشف أمره ولا يحزنون. أولاً نحن لا نعرف اسمه ولا نعرف شكله وليس لدينا حتى دليل إن كان موجوداً أم لا.

ـ نعم؟

تساءل كرم فى استغراب، فرد حسن قائلاً:

ـ القصة غريبة بُرمتها. نحن دائرة صغيرة ومُغلقة، ومن المُستحيل

أن يكون موضوع الكتاب تم كشفه، وأقرب استنتاج أن يكون جارك الطبيب مُدلساً وتكون القصة كُلها مُختلقة، وأن يكون هو الذى كتب شهادة الضحية وهو تحت تأثير الحشيش الذى يتعاطاه.

ـ حسن.

قاطعه كرم بصوت خفيض مُستكملاً:

ـ هواش ليس لديه سبب لاختلاق الموضوع. كما أنّه أعطانا شهادة الضحية فى خطاب مكتوب بخط آخر غير خطه، وأنا شخصيا أعرف خط هواش جيدا. إنه خط ركيك مثل جميع الأطباء.

تبادتل ندى نظرات الرهبة مع الاثنين قالت بتريث:

ـ الموضوع لا يقلق يا كرم. رُبما تم النقل بالمصادفة. أعتقد أنّ أمرنا لو تم كشفه لقبض علينا جميعا.

ـ بأى تهمة؟

سأل حسن السويسى الذى رسم ابتسامة هدوء على وجهه النحيل، فردت ندى قائلة:

ـ تشويه سمعة الوطن.

عقد حسن يديه قائلا:

ـ لا أظن.

ثُم أردف:

ـ على العموم الموضوع يسير بشكل طبيعى. وفى الصباح سنبدأ العمل.

سأله كرم إن كان واثقاً من صاحب المطبعة التى سيطبع فيها الكتاب فردَّ قائلاً:

ـ كما أثق فيك أنت.

طلب كرم شاياً ولمح حسن نظرات حوار سرى بين جليسيه فقام مُتعللاً بأن هُناك مهرجان أفلام اسبانية سيتم عرضها فى المركز الثقافى عليه متابعته قبل أن يسافر فى الغد. خلت المائدة المربعة لجليسين تتوه مُقلتاهما فى خدر لذيذ، وتتشابك أصابع عشرين فى عناق مُمتع يُكرر لحظات نادرة لم يعرفاها.

هو الحُب سيدهما وصديقهما المُشترك. معه بنيا قصوراً من الأحلام وأسسا دولة من الجمال ورسما لوحة شديدة الإبهار تتحدى قُبح الواقع وسخائف البشر المُحيطين.

سألته ندى فى صفاء:

ـ وماذا بعد؟

ثُم كررت:

ـ ماذا سيحدث بعد أن يصدر الكتاب يا كرم؟ هل سيتم استدعائى؟

مطَّ كرم شفتيه قائلاً:

ـ لا أعرف، لكن لا أظن أنّ أحداً يمكنه أن يفعل لك شيئاً. إننى أتصور أن نشر الكتاب هو صك الحماية لك. فى التاريخ هُناك حكايات كثيرة عن المُجاهرين بنقد السلطة، لكن معظمها تؤكد أنهم فى أمان أكبر من أولئك المُنتقدين فى السر. تصورى مثلاً أنّ محمد على بجبروته

وطغيانه لم يجرؤ أن يعدم أو يسجن عمر مكرم خوفاً من غضب الناس، واكتفى بنفيه بعد ان ضاق ذرعا بانتقاداته.

ابتسمت ندى سائلة:

ـ ما هى أخبار أمجد سامح؟

ـ كما هو. يعتبر الجامعة ملعبه فى السياسة والحب ولا يهتم بالدراسة قيد أنملة.

ـ وغادة؟

ـ من المؤسف أنّه مازال يثق فيها ثقة عمياء. تصّورى بعد ما حدث فى المعرض يظن أنّها بعيدة تماماً عن الوشاية به. أنت تعرفين يا ندى: الحب أعمى.

امتصت قليلاً من عصير البُرتقال الموضوع أمامها فى كوب كبير وهى تقول:

ـ لا يا كرم. ليس دائماً.

# (٤٢)

الدقى، شارع الثورة المُتفرع من شارع البطل أحمد عبد العزيز، البناية الثالثة على اليمين. دق الجرس مرة، ثُم أخرى، وقبل أن تمتد سبابته للمرة الثالثة انفتح الباب عن باب آخر. كان ورائه كهل ضخم تتقاذف من عينيه نظرات الشك والخوف. سأل فى ثبات:

- مَن؟

- كرم البرديسى، عندى موعد مع سيادة اللواء رمزى.

تفحصه الرجل شبه الناعس من أعلى لأسفل، وحرص على التأكد من بطاقته الشخصية، ثُم أفسح له الطريق ليدلف إلى صالة فسيحة يتوسطها صالون ضخم مُبطن بالقطيفة الزرقاء، ومدهون باللون الذهبى. على الحائط صورة ضخمة فى برواز لرجل أبيض وسيم له شارب مُنمّق تُشبه عيناه بلونهما الأزرق عينى حرم الدكتور محمود مندور، كأكبر دليل على وجود سمات مُشتركة بين الأشقاء. تذكر لقاءه الأخير بأُستاذه ومصادفته

لوثيقة «العسس» مطبوعة فى مطابع الشرطة بين كُتب التاريخ المُستكينة فى مكتبة الرجل العالم. منح السيدة التى حددت له الموعد مع شقيقها ليستوضح تفاصيل طباعة تلك الوثيقة وكيفية وصولها للوزارة تحية شُكر غير مُعلنة، فلولاها لتوقف عن السير خلف حقيقة ما خلف له أبوه من أوراق صفراء مُثيرة.

ـ دقيقة واحدة، سيكون الباشا حاضراً.

انتهى زمن الباشاوية مُنذ استولى ضباط الجيش على الحُكم. ألغى عبد الناصر الألقاب، لكنه أعاد زرعها بممارسات القهر والقمع فى نفوس صغار المُستخدمين فصارت لقباً لصيقاً بضباط وأمناء الشُرطة. من هُنا تلتمع ذاكرة كرم بنصوص كتاب غير أكاديمى، أثّر فيه بشدة للدكتور حسين مؤنس والذى عنوّنه بـ«باشاوات وسوبر باشاوات». عندما قرأه فى مكتبة الكُلية قبل سنوات لمس السُخرية المُرة من قرار إلغاء الألقاب الذى كان مُجرد شعار من شعارات المرحلة الثورية.

صوت ترحيب بدا رقيقا سمعه لا يتناسب مع صفة اللواء المعروف بها صاحب البيت. تابعته خطوات هادئة لقدمين لا تظهر تفاصيلهما تحت روب من الصوف بُنى اللون، نظارتان سميكتان تُغطيان عينيه البحريتين، وقسمات وجهه الناعمة تعكس استرخاء ما بعد المعاش. مد يداً بيضاء غليظة يُزينها خاتم فضى ليُصافح كرم الذى وقف ممتنا للقاء. دعاه اللواء للجلوس، وسأله عما يشرب فطلب قهوة، ثُم إستئذنه فى التدخين فسمح له الرجل بأدب جم.

دخل كرم فى الموضوع مُباشرة مُخرجاً كُتيباً صغيراً مطبوعاً يعرفه الرجل فور أن وقعت عيناه عليه، وقال فى هدوء:

ـ نعم. أنت تسأل عن هذه الوثيقة التاريخية التى رأيتها فى مكتبة الدكتور محمود.

هزّ كرم رأسه موافقاً قبل أن يسأل:

ـ أريد أن أعرف كيف وصلت إلى الداخلية، ولِمَ تم طبعها؟

ابتسم الرجل المُسن فى هدوء وقال:

ـ هل لى أن أسألك لِمَ تسأل؟ لِمَ تُكلف نفسك وتأتى خصيصاً إلى رجل خرج من الخدمة وتركته زوجته إلى دار الحق، وبقى وحيداً بعد أن سافر ابنه الوحيد إلى الخليج ليعمل؟

تردد كرم فى الإجابة وبدا مُتلعثماً، لكن اللواء السابق استكمل:

ـ أنا سأخبرك يا كرم يا برديسى. كُل شىء. لكن اشرب أولا قهوتك.

وقعت عين كرم على شهادة تقدير من رئيس الجمهورية مُعلقة فى برواز جانبى على يسار الجالس فى الصالون. تسارعت دقات قلبه وارتعشت يُمناه وهى تُطفئ سيجارته قبل انتصافها مُتوقعا مفاجآت جديدة. كانت ملامح الرجل يقابله لأول مرة مألوفة لديه وشعر أنه يعرفه جيدا، وسيطر عليه إحساس طاغ بأنّه كان ينتظر قدومه. تلك العينان تُخبئان حكايات تخُص أناساً عديدين رحل بعضهم ومازال آخرون ينعمون بالحياة.

ما عرفه كرم أنّ سيادة اللواء كان على رأس جهاز أمنى كبير وأنّه كان يوماً ما أحد المطلوبين على قوائم الجماعات الإرهابية لاغتيالهم. كانت حرم أستاذه تتحدث بتقدير زائد عن شقيقها الذى خدم البلد كُل عُمره وانتهى به الحال وحيداً بعد خروجه من الخدمة.

تعلقت عينا كرم بوجه الرجل المُبتسم بلا سبب مُنتظراً أن يحكى، مُترقباً حقيقة الوثيقة، التى تُصاحبه مُذ رحل أبوه. فتح الرجل فمه فى هدوء لتحفر كُل كلمة طريقها فى دماغه:

ـ الموضوع ببساطة أنّ هذه الوثيقة كانت محفوظة فى دار الوثائق ولم نكن ندرى عنها شيئا، وكان والدك رحمه الله من الخبراء النوابغ فى مجال الوثائق الأثرية، ويبدو أنه شعر بأهمية هذه الوثيقة تحديداً، وعلم أنّ هُناك مُحاولات لسرقتها واستبدالها بوثائق مُقلدة، فتقدم إلى مديرية الأمن ببلاغ، تم تحويله إلينا فى جهاز أمن الدولة. وعندما تأكدنا من أهمية الوثيقة حاولنا استلامها، لكنّ الإجراءات البيروقراطية منعت ذلك باعتبار أنّ الوثيقة أثرية، فقررنا استبدالها ب بنُسخة مُقلدة، وطلبنا من والدك التعاون معنا فى ذلك، وبالفعل كان الرجل وطنيا وجلب لنا الوثيقة، ويبدو أن والدك نسخ عدة نُسخ من الوثيقة ليُسكت تُجاراً مُعينين كانوا يتنافسون عليها. واكتشف بعض موظفى دار الوثائق استبدال الوثيقة وسعوا فى فضح والدك، لكننا صفينا الموضوع تقديراً لخدمته.

صمُت قليلاً كأنما يستجمع ذكرياته ثم سأل:

ـ قل لى يا كرم.. هل عندك نُسخة من الوثيقة؟

هزّ كرم رأسه، فيواصل المُتحدث:

ـ واضح أنّك تعرف ما فى الوثيقة من كشف لأساليب جمع المعلومات عن الشرطة قديما وقد رأينا أنّ طباعتها أمر مُهم كناحية تثقيفية لضباط أمن الدولة المُحترفين حتى يقارنوا بين النُظم الحديثة والقديمة ويعرفوا كيف يتجنبون جمع المعلومات عن طريق التعذيب. أنت لا تعرف أنهم

مُدربون على طُرق حديثة أكثر تطوراً، لكن على العموم فإنّ هُناك جوانب فى الوثيقة مُهمة خاصة ما يخُص تجنيد المُخبرين واستجواب المُتهمين وكيفية الإيقاع بهم من خلال أسئلة عديدة مُتشابهة. وبالفعل طبعنا عدداً محدوداً وكانت النسخة التى بين يديك من نصيبى، وقد أهديتها إلى أستاذك الدكتورمحمود قبل عامين لأنّه أخبرنى أنّه يُجرى دراسات حول تاريخ العسس.

امتلات عينا كرم بالغيظ وهو يقول:

ـ لكن يا سيادة اللواء، والدى مات محصورا باتهام كيدى بعد أن تم نقله من مكان عمله المُعتاد إلى قسم مُتابعة السيارات و..

لم يُكمل فقد أوقفته اشارة كف مرفوعة من اللواء رمزى الذى قال:

ـ لا يا كرم. كان لابد من كتمان الأمر وتسويته ونحن صفينا الموضوع، وقدرنا لوالدك خدماته ورددنا له الجميل، وها أنت أمامى الآن فى الطريق الذى رسمه وتمناه لك.

ـ ماذا تقصد سيادتك؟

سأل كرم فى ارتباك، فاجابه مُضيفه:

ـ كان لوالدك مطلب واحد ووحيد هو أن يتم تعيينك مُعيداً فى الكُلية لتُحقق حلمه فى دراسة التاريخ، وكان من حُسن الحظ أنّ صهرى أستاذ فى قسم التاريخ بالجامعة وهو ما سهّل علينا المُهمة ونجحنا فى تحسين نتائجك خلال الدراسة.

صمُت قليلاً ثُم واصل:

ـ والعظيم يا بُنى أنك نفسك ساعدتنا لأنك كُنت مُتفوقاً دائماً وحتى عندما لم تكُن هُناك حاجة لتعيينات جديدة فى القسم، تدخلنا وضغطنا ونجحنا فى تعيينك. إننا لا نتحدث عما فعلنا لأننا فعلناه ارضاء لله وحده، ولولا قدومك وسؤالك ما كُنت عرفت شيئاً. لكن ما أستطيع أن أقوله أن ضميرى أنا شخصياً مُستريح لأننا رددنا الجميل لوالدك. رحمه الله رحمة واسعة.

كمَن نذر صوماً سكت. لا يستطع استيعاب الحكاية. ما فيه نعمة من جهاز الأمن، وأستاذيته ومكانته من صناعتهم. أبوه كان بصاصاً. رُبما لكنه بصاص وطنى. لم يكتب تقارير أمنية فى زملائه، ولم يعمل لخدمة وزير أو مسئول، وإنما خشى على كنز مُهم من السرقة فقدمه لمَن يظُن أنهم سيستفيدون منه. هكذا فكر وهو يقف على قدمين لا تكادان تحملانه ناسياً كيف صافح صاحب البيت، وكيف جرّ قدميه هابطاً، ثُم كيف سار عليهما لأكثر من نصف ساعة حتى وصل إلى جامعة القاهرة والتى بدت قُبتها الكبيرة تضحك فى سرور.

# (٤٣)

على سلالم البناية القديمة التى يقطنها صعد كرم مُتثاقلاً، بعد أن ألقى التحية عـلى صالح البواب المُتكورعلى حصـيرة بلاستيكية مُمزقة بصحن المدخـل. كان يبـدو متكلفاً وهو يقـف تأدباً لكرم ذى الوجه الشـاحب والتنفس المسـموع، حاملا حقيبته السـوداء الصغـيرة. سأله عن الحال، فأجاب إجابته المُعتادة: تمام يا باشا.

ليس فى هذه البناية المُتهالكة سوى خمس شُقق إحداها ورثها عن والده، والمُقابلة يقطنها هواش وزوجته، وفوقها شقة لأرملة عجوز نادرا ما يزورها أبناؤها، تُقابلها شقة أخرى شبه مُغلقة لتاجر من الصعيد يأتى كُل شهر يوما أو اثنين، وفى الطابق الأسفل شقة أخرى لسيدة قاربت التسعين قيل عنها إنّها لم تتزوج أبدا.

تذكر كيف كان البيت مُفعما بالحياة قبل خمسة عشر عاماً عندما كان هُناك أطفال آخرون وجيران طيبون، وبواب عنده ضمير. تذكر شقيقته وهى تشترى له غزل البنات، حيث كانا يعتبرانه اختراعاً مُذهلاً. شاهد

اصطفاف الصبية ليلة رمضان لتعليق الفانوس النُحاسى بين بيته والبيت المُقابل له. استرجع كيف كان يختبئ فى بئر السلم وهُم أطفال يلعبون عسكر وحرامية. كُل هذه السنوات مرت، وكبُرت هُدى وتزوجت، وغادرته أمه هنية، ثُم والده سالم، وظلّت الجُدران صامدة رغم تشققها، وزحفت العشوائية على حى عابدين الجميل.

طرق باب جاره الطبيب غير موقن إن كان موجوداً أم لا. كانت الساعة تشير إلى السابعة وهو توقيت خروج الزوجة الطبيبة فى نوبتجية المساء. انتظر كثيرا كالعادة حتى فتح جاره، الذى رماه بنظرة غضب سائلاً:

ـ خير؟

الحشيش والخدر يلعبان برأسه ولسانه. رمقه بنظرة استفهام، فقال كرم:

ـ مساء الخير يا دكتور.

ـ أهلاً.

ماله يبدو مُتهكماً؟ سأل كرم نفسه قبل أن يجيبه أحمد هواش قائلاً:

ـ على فكرة زميلى طبيب السجن تم تحويله إلى التحقيق بتهمة كشف أسرار العمل والإساءة إلى مكان عمله، وغالباً سيتعرض لخراب بيته وضياع مُستقبله.

ـ لِمَ؟

سأل كرم فى تعجب فأجابه جاره بنفس السؤال:

- لِمَ؟ لأنكم فتشتم سره.

يجهل كثيرون كيف تغلى الدماء فى الرأس لأنهم لم يعرفوها، لكنّ كرم عرف ذلك حتى احمّر وجهه وانفجر مُنكرا على جاره أن يشُك فى حفظهم هو ورفيقيه للسر.

- نحن لسنا خونة يا دكتور. ندى ليس عليها شك واحد وحسن إنسان لا ينتظر من الدُنيا شيئاً حتى يكشف سر صاحبك. من المُحتمل أن يكون الشخص الذى كان ضحية التعذيب هو الذى وشى به طلباً للرحمة أو الراحة، ورُبما صديقك يا دكتور يخدعنا معاً، ورُبما أنت يا دكتور أحمد الذى تخدعنا وأن تكون القصة كُلها مُختلقة.

بدا أحمد مُنزعجاً وأردف «تصبح على خير يا كرم» مُغلقاً بابه فى وجه جاره الذى كست ابتسامة ساخرة وجهه الشاحب. غرس مُفتاحه فى ثُقب بابه وشعر أنّ التكة الوحيدة لفتحه كان ينبغى أن تكون تكتين. لم يكترث كثيراً ودخل إلى الثلاجة ليلتقط واحدة «استلا» يشرب بعضها مُتذكراً مُفاجأة اللواء رمزى التى صدمته صباحا، ثُم تذكر لقائه بأستاذه الدكتور عفت فى الجامعة ومحادثتهما حول ترتيبات جلسة مُناقشة الرسالة والتى اقترب موعدها. فكر أنّ عليه دعوة والدى ندى لحضور المُناقشة وعدم الاكتفاء بوجودها. ستكون الخطوة التالية فى تصوره تقدمه رسمياً للزواج بها. توقع أن يكون والدها مُتفهماً لظروفه، مُستحسناً لوضعه الاجتماعى، ومُرحبا باختيار ابنته كما قالت له. ستكون هُدى أيضا حاضرة ورُبما زوجها الذى لا نادراً ما يتفرغ من دروسه الخصوصية التى يستكمل بها دخله البسيط. حسن هو الآخر يجب أن يكون حاضراً. لقد نسيه فى زحمة اليوم.

أخرج هاتفه المحمول ليتصل به وهو يسكب بعض البيرة المُثلجة فى جوفه. فاجأه صوته حزيناً بأنّه تحت البيت، وأنّه سيصعد إليه. استغرب عودته السريعة من السويس وعدم بقائه وسأله فأخبره بأنّه على السلالام صاعداً إليه. فتح لوجه مُتعب وشعر مُجعد وعينين زائغتين، وصافحه سائلاً عما به، فقال:

ـ كبسة.

صفتعه الكلمة، فواصل حسن:

ـ بعد أن بدأنا طباعة الملزمة الأولى من الكتاب وجدنا سيارة بوكس أمام المطبعة، ونزل منها ضابط ومعه ثلاثة مُخبرين وسألوا العمال عن الحاج غزال، وخرجنا أنا وهو إليه فقال إن هُناك حُكم تهرب ضريبى وجمركى قديماً خاصاً بالمطبعة وأنه مُضطر للتحفظ عليها، ثُم قام المُخبرون بحمل كافة المطبوعات ومن بينها الجزء الذى طبعناه، وذهبنا معهم إلى القسم، وهُناك اتضح بالفعل أن هناك حكماً قديماً يخص المطبعة، ولم يتحدث معنا أى شخص بخصوص الكتاب رغم أن عنوانه كان واضحا أمام الضباط. حاولت أن أحضر مُحامياً لكن ضباط بالقسم يعرفون الرجل طلبوا منه العودة دون قلق، لكن بالطبع لم تعد معنا المطبوعات المُتحفظ عليها.

ـ غريبة.

بدا كرم متوتراً وهو يُشعل سيجارة جديدة رغم أنّ واحدة مازالت مُشتعلة فى منفضة السجائر، وسأل فى قلق:

ـ هل يعنى ذلك أنّ الموضوع تم كشفه؟

ابتسم حسن ابتسامة سخرية وهو يقول:

- لا يا دكتور. يا أستاذ تاريخ العسس لم يتم كشفه.

ثُم بصوت بدا مُرتفعاً:

- طبعاً يا كرم. واضح أنّ جارك الدكتور وشى بنا جميعاً.

سرح كرم قليلاً، ثُم نفث دُخاناً واعترض قائلا:

- لكنه لا يعرف شيئاً عن موضوع المطبعة، ولا يعرف اسم صاحبها. ثُم ما الذى يدفعه أن يفعل ذلك؟

- هل مِن المُمكن أن يكون صديقك الطالب؟

- أمجد سامح. لا مُستحيل، وهو كذلك لا يعرف تفاصيل التنفيذ. وحتى غادة صديقته بعيدة عنا ولا أتصور أنّه يحكى لها تفاصيل ما يتحدث به مع أصدقائه.

نظر كرم بشك إلى وجه صديقه، لكنه صمت مُستبعداً خاطراً ألم به. ووقف فجاة قائلاً:

- على العموم يجب أن ننبه ندى بسرعة. رُبما يلحقها ضرر.

متوتراً أخرج هاتفه، ليسأله حسن عما يفعل، فيرد بأنّه سيتصل بها. ضحك حسن وسأله:

- من المؤكد أن يكون هاتفها مُراقباً؟

- صحيح. سأبعث لها برسالة وستفهم كُل شيء.

كتب كرم رسالته «The bird fall down. see me soon at freedom bar» وخرجا معا هابطين فى سرعة. ثوانٍ معدودة ليجد اتصالاً من ندى. فاجأه صوت نسائى آخر تخبره صاحبته أنها رباب شقيقة ندى وتقول له إنّها ستقابله بعد ساعة فى نفس المكان.

# (٤٤)

وسط البلد نهار حتّى لو اقتربت الساعة من العاشرة مساء. ازدحام باب اللوق يمنح المارين بالشوارع ليلا شعورا غريبا بالأمان، رغم أنّ البشر هم منبع الشر الحقيقى. كان حسن يُدندن إلى جوار كرم المُحمر الوجه غضبا وحنقاً ماداً خطواته، وكأنه طبيب فى طريقه لاسعاف مريض. هدوء حسن وبروده ودندنته كأنّ شيئاً لم يحدث آثار الريبة فى نفس كرم الذى فقد ثقته بالناس بعد أن صُدم فى والده مرتين. الأولى عندما علم أنّه يختلس وثائق محفوظة ليُقلدها والثانية عندما عرف أنه منح الداخلية وثيقة «العسس» مُقابل تعيين ابنه مُعيداً فى الجامعة.

تذكر كيف التقى حسن قبل سنوات قليلة عندما كان يستمع لمُحاضرة فى الجمعية التاريخية يُلقيها أستاذه الدكتور محمود مندور بعنوان مُجتمع القاهرة السفلى فى القرن التاسع عشر. تناولت المُحاضرة استعراضا تفصيليا لظاهرة البغاء فى مصر خلال السنوات السابقة على الاحتلال البريطانى، وكيف كانت العاهرات تعمل؟ وأين؟ وكيف كانت تلك

المهنة تُدار فى ظل الرفض المُجتمعى المُعتاد؟ سأل وقتها حسن المُحاضر عن موقف الأزهر وكيف لم يكن يُعارض تقنين أوضاع «الخواطى» كما كانوا يلقبونهن فى ذلك الزمن! وبعد المُحاضرة استوقفه كرم ليعرض عليه جانبا من معلوماته، وتعارفا والتقيا بعد ذلك عدة مرات على مقاهى وسط البلد حتى صارا صديقين.

من يومها وكرم لديه شعور طاغ بأنّ حسن شخص مُختلف فى مظهره، أفكاره، ثقافته، انفعالاته، وفى نظراته للأمور. حتى قصة عزوبيته وعزلته الاجتماعية أمر غريب بين مُجتمع المثقفين فى مدينة مُزدحمة ومتعددة الرؤى كالقاهرة. كيف صدق كرم قصته بكل سهولة؟ وكيف اقتنع بأنه كان شيوعيا قديما وعلى خلاف مع النظام؟ كيف استساغ حكاية سفره إلى لندن للعمل بالصحافة، ثُم عودته إلى لا عمل بالقاهرة رغم عدم منطقيتها؟ إنّ أى عائد من الصحافة العالمية إلى القاهرة يُنظر له باعتباره خبيرا، وتُفتح له أبواب كثير من الصحف ليعمل بها، لكن القول أنّ حسن لا يجد عملا سوى مُراجعة الكُتب عند دور النشر أمر يُثير أكثر من علامة استفهام. كيف لم تزره تلك التساؤلات من قبل؟ وكيف لم يشُك فى هذا السائر إلى جواره يُغنى «جيفارا مات جيفارا مات.. آخر خبر فى الراديوهات. وفى الكنايس وفى الجوامع وفى المصانع وع البارات... واتمد حبل الدردشة والأغنيات»؟

دائماً ما يرسم حسن على وجهه ابتسامة سخرية. مما؟ كُل شىء وأى شىء. يضع كفيه فى جيبه ويسير ناظراً إلى أسفلت الشارع دون اهتمام أو قلق. هل هو راضٍ بما انتهت إليه مُغامرة صحفية شابة نقية تسعى إلى فضح ظُلم أو رفض قُبح؟ هل هو سعيد بتدمير الفكرة من منبعها

والوشاية بصاحبة أطيب قلب وتدمير مُستقبلها فى الصحافة؟ هل هو مُستريح أن تتحول هذه الفتاة إلى مُتهمة، مُراقبة، وموضوعة فى ملف أحمر باعتبارها خطرا على النظام؟

هُنا القاهرة. البصّاصون فى كُل وجه. البصّاصون حولك فى كل مكان. فى الهواء الذى تتنفسه، وفى الدخان الذى تستنشقه، وفى القهوة التى تستعذبها. البصّاصون لا يختبئون فى كُتب التاريخ فقط، وإنما هُم يُجاهرون بفعالهم فى الوقت الحاضر. البصّاصون هُم أولئك الذين لا تتخيلهم أبداً. رُبما إخوتك، أصحابك، بنوك، عشيقاتك، ومَن تحسبهم يُحبونك.

حسن بن مرعى وشى بطومان باى رغم أنّه قسم له ألا يُسلمه أبداً. حسن بن مرعى الذى كان مُضطهداً من السلطان قنصوه الغورى حين سجنه وكتب على قيده «مُخلد» ولما تسلطن طومان باى فك أسره وأكرمه وعوّضه، لكن الخائن باعه للسلطان سليم الغازى مُقابل حفنة ذهب. حسن بن مرعى الذى ساق صديقه السلطان المُنهزم واللاجئ إليه إلى حبل المشنقة ليُثبت أن الخيانة مرض دائم فى هذه الأمة. حسن بن مرعى مازال يتكرر وحسن بن السويسى دليل على ذلك. بكم بعت يا صاحبى؟ بكم وأنت لا تبغى شيئاً؟ ولِمَ وأنت بلا أسرة؟ ما الذى تنتظره وأنت فى عقدك الخامس؟

تُغنى أغنية «جيفارا»؟ تدعى الثورية والنضال وكراهية النظام؟ تتحمس لتوثيق التعذيب ثُم تخدعنا جميعاً؟ كيف لم أعرفك جيدا؟ رماه بنظرة احتقار وهو يمضى فى طريقه إلى بار «الحُرية» ليلتقى شقيقة ندى. فكر قليلاً فى جدوى اصطحابه معه فى هذا التوقيت، فتوقف فجأة ناظرا

إلى رفيقه الذى مازال يُغنى: «مات البطل فوق مدفعه وسط الغابات.. جسّد نضاله بمصرعه ومن سُكات»، وهتف به:

ـ حسن. لِمَ خُنتنا؟

صمت كثيرا ونظر بتعجب مُطلقاً صوت شخير وقح. ثُم رد بحدّة:

ـ هل جُننت يا كرم. أنت تتهمنى بالخيانة؟ أنا حسن السويسى الذى دخل المُعتقل وعمره عشرين عاماً، وحوكم وهو طالب. أنا حسن السويسى الذى لعن نظام السادات أمام ضباط المباحث، وحاول قلب نظام الحُكم وأنت تلعب الأولى فى الحارة. أنا حسن السويسى الذى..

ـ كفى هُراءً.

صرخ كرم فى صاحبه وهو يرفع أصبعه فى وجهه مواصلاً:

ـ نصف الشيوعيين أمثالك باعوا زملاءهم والنصف الآخر يبحثون عن مشترٍ. أنتم عيون بعضكم على بعض. لا تحاول أن تجعلنى أُصدق أنك برىء من الوشاية بندى، وبنقل كُل شىء إلى المباحث. ما جرى لزميل أحمد هواش يؤكد أنّ هُناك واشياً، وما تدعيه أنت فى مطبعة السويس هُراء وكذبا حتى تُفشل طباعة الكتاب وتُتم مُهمتك.

رفع حسن كفه اليُمنى احتجاجاً وقال لكرم:

ـ عندما يصل الحد بك أن تتصور أننّى عميل للأمن فأنت لا تستحق صُحبتى. أنا نادم على وقتى المُهدر معك أيها التافه المُدعى.

كور كرم قبضته وغزا بها وجه حسن الذى علا صوته وتجمع حولهما أُناس من المارة والسباب منهمر من فم حسن كدماء ثور ذبيح، لعنات

وقبضات وبصقات تطايرت وحواجز بشرية اعتادها المصريون دون أن يعرفوا أى شىء عن سبب المُشاجرة. بعد وصلات من السُباب المُتبادلة انفصلا فى ميدان باب اللوق قبل خطوات قليلة من مقهى «الحرية» الذى بدا هادئا كعادته، خالياً إلا من عدد محدود من الكهول وذوى الشعر الأبيض الذين يحتسون زجاجات من البيرة.

دخل كرم مُغتاظا كارها اليوم الذى عرف فيه حسن ورآه، مُعتقداً أنّ وجوده فى حياته من البداية كان خطأ. سحب كُرسياً فى ركن المقهى وطلب زجاجتى «استلا» وأشعل سيجارة سحبها بعصبية زائدة من غُلبته. حاول كرم إعادة قراءة ما جرى دون انفعال.

البداية حديث بينه وبين ندى عرف فيه رغبتها فى توثيق ظاهرة التعذيب لدى الشرطة المصرية، وكان جالساً معه حسن الصديق المُثقف الذى لا يعمل شيئاً ويدعى حُب المُغامرة ورفض نظام الحكم المُستبد. يعرض حسن خدماته، ويختصرها فى حكايات يُقدمها صديق له ضابط سابق ـ ورُبما فى الخدمة ـ عن مُبررات التعذيب. يبدأ العمل الفعلى وتحصل ندى على شهادات جديدة فى حضور حسن الذى يستمع لشهادة أحمد سامح ويقرأ الخطاب المُقدم من زميل أحمد هواش، ثُم يقرأ كمراجع الكتاب ككل، والأسخف أنّه هو الذى يُعدّ خطة النشر والتوزيع.

أى سذاجة كُنا عليها؟ يسأل نفسه قبل أن يرن هاتفه فيبادر ليجد صوت رباب:

ـ أستاذ كرم. أنا وصلت لكن المكان غير مُناسب بالمرة. لو سمحت اخرج لنتحدث فى أى مكان آخر.

وقف سريعاً، ونادى النادل ليمنحه عشرين جُنيهاً مُسرعاً إلى خارج المقهى ليجد فتاة طويلة حمرية اللون ترتدى بنطال جينز أسود يتناسب مع نحافتها، وتلبس جاكيت روز من الصوف، وايشارب تشبه طريقة لفه إيشاربات حبيبته الرقيقة. سألها فى قلق:

ـ أين ندى؟

ـ قبضوا عليها.

صدمة. صاعقة. قطار فى غير موعده يُطلق دخاناً أسود. سيارة مُسرعة تدهسك دون كلاكسات مُسبقة. رد فعل طبيعى لخيانة صديق. إجابة عملية لسؤال غريب سألته ندى له فى اللقاء الأخير فى «ريش».

سأل مُجدداً عما جرى فقالت:

ـ سأحكى لك كُل شىء. لكن تعال نجلس فى مول البُستان. أنا لا أطيق المقاهى الشعبية ولا البارات.

تذكر ندى، وعرف إلى أى مدى ضحت لتجلس معه فى أماكن لم تكن ملائمة لها.

# (٤٥)

حكت كُل شيء سريعاً كمن يتعجل القيام للحاق بموعد. رباب التى لا علاقة لها بالسياسة ولا تحب الصحافة ولا تهتم بالثقافة تعي تماماً ما جرى لشقيقتها.

فى الثامنة صباحاً استيقظوا على طرق خفيق مُنتظم يوحى بالأدب. فتح الدكتور حسين طبيب الأسنان الباب ليُفاجيء بأشخاص هادئين يسألون فى برود إن كانت الآنسة ندى موجودة، ثُم اخرج أحدهم ورقة قدمها إلى الرجل ليقرأ فيها سطوراً تحت اسم «نيابة جنوب. ضبط وإحضار ندى حسين عبد الفتاح المُتهمة فى قضية أمن دولة عليا برقم....». لم يُصدق والد ندى للوهلة الأولى ما جرى وارتد قليلاص إلى الوراء مُستجمعاً شجاعته ليظل واقفاً مُتماسكاً طالباً منهم الإذن بأن يوقظ ابنته، وتركهم فى صالة شقته لتقطع عليه زوجته الطريق سائلة فى ثبات عما جاء بالمباحث إلى بيتها، قبل لحظات قليلة من خروج ندى من غُرفتها بوجه مُضطرب وعينين زائغتين.

ألقت الابنة والأم نظرات أخرى على طلب النيابة وأدركت من ملابس ووجوه الرجال أنّ القوة الواقفة تتبع مباحث أمن الدولة. ذات النظرات الغامضة، والحُلات السوداء والكرافتات المربوطة بعناية، والابتسامة الباردة التى لا تترك أى انطباع. يُخرج الأب هاتفه المحمول ليتصل بشخص فيمنحه قائد القوة تعليقاً سخيفاً بأنّ القرار قرار نيابة وأن أحدا لا يمكنه منع استجواب ابنته، لأن القضية تمس أمن الدولة، لكنه يستكمل اتصاله حاصلاً على وعد بُمتابعة الموضوع والتعرف على سبب قرار الضبط.

تستئذن ندى لتلبس ملابس الخروج فى خمس دقائق حرصت فيها أن تبدو أنيقة كما هى عادتها لتخرج ببنطال جينز كُحلى وقميص صوف لبنى يغطيه جاكيت أسود ثقيل تحسباً لأوقات مسائية باردة. وكان بادياً حرص ندى أن تخفى الخوف فى عينيها تحت نظارتها الشمسية الـ«RYBAN».

ـ ما الموضوع بالضبط؟

سأل الطبيب الهادئ الذى لم يكن يُعرف عنه أى علاقة بأى كيان سياسى رسمى أو غير رسمى فى حياته، فتلقى إجابة مُبسترة بأنّه لا يعرف تفاصيل القضية وإنما هو مُجرد أداة تنفيذ.

رسم القلق حاجبى الرجل، بينما تطاير الشرر من عينى زوجته، وأفلتت شهقة حُزن مكتومة من حنجرة رباب التى كانت تُتابع الموقف مُستيقنة أنّ كتاب التعذيب الذى تكتبه شقيقتها هو سبب وجود رجال الأمن فى بيتهم.

ـ هل من المُمكن أن تأتى ندى معى فى السيارة؟

سأل الوالد، فاعتذر الشاب الذى بدا أنه ضابط مُهم رغم أنه لا يرتدى ملابس رسمية، مؤكداً أنّه يُمكن له لو أراد أن يُصاحبهم بسيارته حتى مديرية أمن القاهرة. تركت ندى هاتفها المحمول مع شقيقتها ورشّت بارفانها المُعتاد على ملابسها، ومنحت قُبلتين لأمها التى احمّر وجهها قلقا، ثُم غادروا.

أوصد الباب، وارتجفت يدا رباب وهى تحمل هاتف شقيقتها لتتصل بزملائها فى الجريدة واحداً بعد الآخر، ثُم برئيس التحرير لتُخبرهم بما جرى، وانهمرت دمعتا خوف من مُقلتى الأم التى تذكرت فجأة سنوات الجامعة، وكيف كانت تنتظر القبض عليها كُل يوم بعد مُظاهرات صاخبة كانت تسير فيها.

بعد ساعتين من الغياب عاد الأب بائساً حزيناً، وهو يقول إنّ ندى مُتهمة باختلاق وقائع تعذيب لتشويه صورة مصر، وأن مُحققا قال له إنّ موقف ابنته صعب لو لم تُحدد مَن الذى دفعها لكتابة خطابات إلى مُنظمات أجنبية مشبوهة تُحرضهم فيها على مصر. وحاول الأب أن يحضر مع ابنته لكن ضابطا نصحه بالعودة للمنزل لأنّ التحقيق معها سيستغرق عدة أيام، وأنّ عليه الا يقلق لأنّها لو تعاونت معهم فإنّ كُل الأمور ستكون على ما يُرام.

ما قاله الأب أيضا إنّ لواء ـ يعرفه ـ كان قد اتصل به فور دخول رجال الأمن، أخبره بعد استفساره بأن الموضوع بسيط وستتم تسويته سريعاً، لكن عليه أن يحترس لأنّ ابنته مُتهورة ويُمكن أنّ تسقط فى ورطات نتيجة اندفاعها. كذلك فقد اتصل بمحام كبير أبدى اندهاشه من وجود إذن نيابة وقال إنّ ذلك الإذن كان يعنى ألا يتم اصطحابها إلى مديرية الأمن وإنما إلى قسم الشُرطة لتحول على النيابة.

أما زملاء ندى فقد اتصل كثير منهم طوال اليوم يستفسرون عما جرى لندى، ثُم اتصل بعد ذلك رئيس التحرير وطلب التحدث إلى والد ندى وأخبره بأنّه سيسوى الموضوع تماماً، وستعود ندى فى الصباح، لكن عليه ألا يبلغ أحداً.

طوال اليوم لم يذهب طبيب الأسنان إلى عيادته المُجاورة للبيت واتصل مُعتذراً، واجتمعت الأسرة مساء ووافقت الأم والابنة على اقتراح الأب بعدم إبلاغ أحد والانتظار حتى الصباح، لكن لأن رباب تعرف تماماً أن كرم مُتورطة معها فى موضوع الكتاب، فقد سارعت للقائه فور ارساله رسالة التحذير.

دوار الحيرة أصاب كرم الذى لم يعُد قادراً على التعليق، ومرّت على خاطرته صورة ندى بسمتها الرقيق ورقتها البالغة وهى ترد على أسئلة المُحققين من المباحث. وسرت موجة توجس بين أوصاله من أن تتعرض هذه الفتاة الصافية لأذى لفظى أو جسدى، لكنّه سرعان ما بدّد ذلك بأنّ حماقة المباحثين لا يُمكن أن تصل إلى هذه الدرجة. تشتت أفكاره وتذكر أنّ موعد مُناقشة رسالته للحصول على الدكتوراة فى فلسفة التاريخ هو الغد، وأنّ كثيرين ممن كان ينبغى لهم أن يحضروا اللقاء سيغيبون عنه. أستاذه المُحب أحمد نوار الذى عزله المرض عن العالمين، جاره الطبيب أحمد هواش الذى تشاجر معه، وصديقه المُثقف حسن السويسى الذى باعه، وهاهى ندى حسين رفيقته وحبيبته تتغيب رغما عنها. تخيّل كرم أن يقتصر الحضور على شقيقته والدكتور عفت عزام رئيس قسم التاريخ، وغريب مجاهد زميله، ونادر عبد العليم قائد حرس الكُلية وربما قليل من الطلبة المُهتمين.

شعر كرم ببعض الانقباض، وارتشف فنجانى قهوة، وأحرق عشرات السجائر، وأبدى أسفاً لرباب على ما جرى لشقيقتها، وودعها حزيناً عائداً على قدميه إلى شقته القريبة مُترقبا ليوم انتظره سنوات وهاهو يأتى، لكن دون فرحة.

# (٤٦)

مُبكراً استيقظ مُختنقاً باحتقان فى حنجرته ذكره أنه دخن أكثر مما ينبغى فى الليلة الماضية. هل كان حزيناً أو مهموماً بندى أم كان مُنشغلاً برسالته التى أنهى ترتيباتها مع الدكتورعفت قبل أيام؟ تذكر صديقه حسن وشعر أنه تسرع فى الحكم عليه بالخيانة دون أى دليل سوى استنتاجات مُعظمها غير منطقى.

غسل وجهه بالماء والصابون قبل أن يفرش معجون الحلاقة على شُعيرات خشنة نابتة على خديه ليسمع صوت هاتفه يرن بانتظام، لم يُكمل وعاد لينظر إلى شاشته ليجد اسم رأفت يتراقص على الشاشة. لم يتذكره، ولم يرد كعادته عندما تفقد ذاكرته القدرة على استيعاب شخصيات مرّت وتوارت فى النسيان. استكمل حلاقة ذقنه وقرأ فى عينيه سروراً مُفاجئاً عندما لمح والداه فى بروازهما المُعلق يبتسمان فى صفاء. رمى تحية الصباح على عبد الرحمن الجبرتى الساكن معه مُنذ خمس سنوات مُلتحفاً بالصمت مُكتفياً بنظرة أمل لا محدودة.

عاد حجرته ليرتدى ثيابا يحرص أن تكون مناسبة لحدث لا يحدث لأستاذ الجامعة سوى مرة وحيدة فى حياته. ألقى نظرة باهتة على وثيقة العسس المُلقاة على مكتبه، ولاحظ أن هُناك وريقات أخرى أسفلها مكتوباً عليها بالرصاص. لم يكترث كثيرا وراجع ربطة كرافتته ووضع مُجلد رسالته فى الحقيبة السوداء واستكمل طقوسه اليومية المُعتادة بكوب نسكافيه سريع وسيجارة ميريت ثُم غادر مع وأد آخر أنفاسها.

فى الطريق إلى الجامعة اتصل على هاتف ندى فلم تُجب، ثُم اتصل بالدكتور عفت الذى طلب منه ألا يقلق من زميليه المُناقشين وأن يتقبل ملاحظاتهما فى صبر وأدب. نظر فى هاتفه ليجد missed call من رقم غريب لم يلتفت للرد عليه، فيسارع بالاتصال ليسمع صوتاً ناعماً يُهنئه برسالة الدكتوراة. شكره سائلاً عمَن يكون فيفاجئه بأنّه «رأفت» الذى حادثه قبل لحظات ولم يرد. صوته ليس غريبا لكنه لايعرف جيداً أين التقاه أوعرفه. حاول أن يتذكره دون نتيجة فشكره بأدب وأغلق السماعة شاعراً أنّ الاسم يرن فى رأسه بنغمة غريبة يعرفها جيداً.

اتصل بُهدى التى أخبرته بأنّها جاهزة وستخرج بعد دقائق، لكن زوجها اعتذر عن الحضور لمشاركته فى امتحانات آخر السنة. تخيلها بفستانها القصير تُمسك يديه وهما يسيران فى وسط المدينة إلى جوار والدهما فى زمن غير الزمن ببراءة صادقة، ومنحها دعوة مُخلصة بأن تُنجب مُقتنعاً أنّها تستحق كُل خير.

تفرّس فى وجوه الواقفين فى المترو بنفس النظرات الكالحة التى اعتادوها، نادماً أن ينحشر وسطهم بملابسه الأنيقة فى مثل هذا اليوم. أما كان من الافضل أن يستقل تاكسيا؟ تساءل وقلبه يدق مع اقتراب المترو رويداً رويداً من محطة جامعة القاهرة.

هبط بُخطى مُتزنة ويسير بمُحازاة سور الجامعة فى هدوء الواثق، وخيلاء العالم. تذكر حُلم والده مُبتسما، وكرر دعوة أمه بأن يفتح الله له أبواب الخير، واستعذب ابتسامة خجلى من شفتى ندى، شاعراً بُغصة من عدم حضورها لترى حلمه يكتمل. استعاد ما جرى، واقتنع أن عدم اكتمال حُلم كتابها كان أمراً مُحتملاً وأن كلام شقيقتها رباب بأن الموضوع ستتم تسويته فى محله. ستخرج قريبا وسنبدأ حياة جديدة حالمين بأمنيات أخرى. هكذا قال لنفسه وهو يدلُف من بوابة الجامعة الجانبية التى يُسميها الطلبة «باب تجارة» لأنها تفُضى أولاً إلى مبنى كلية التجارة قبل أن ينحرف الداخل إلى اليسار ليجد مبنى كُلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ووراءه مبنى كُلية الآداب.

تابع مع عم حسانين الساعى ترتيبات المُناقشة وتأكد من وضع باقات الورد الثلاث على منصة اللجنة، فضلاً عن المشروبات الباردة وزجاجات المياة. صعد إلى حجرته ليقرأ الرسالة مرة أخرى منتظرا الساعة الواحدة ظهراً بصبر يونس وأيوب.

لحظات طالت وقصرت ليجد نفسه واقفاً أمام اللجنة مقدما رسالته عن «تطور النظام الأمنى فى عهد محمد على باشا» ومُتبعا التقديم بعبارات من الثناء والشكر للأساتذة الدكتور عفت عزام المشرف على الرسالة، والدكتور على حسين أستاذ التاريخ الحديث بالجامعة، والدكتور رضا العدل أستاذ مساعد المخطوطات بكلية الآثار. قرأ كرم بعينيه قلة الحضور الذى لا يعرف من بينهم سوى هُدى ونادر ووجوه قليلة من الباحثين والطلبة ليس من بينهم أمجد سامح أو رفيقته غادة. بدا حسام الحفنى الطالب الوحيد الذى يعرفه من بين الحاضرين.

العلم خارج اهتمامكم أيها الشكاءون بلا نهاية. ياشعوبا من كلام لِم تستخفون بجلسات البحث العلمى وتحتشدون أمام مباريات الكُرة وحفلات الرقص الشرقى؟يا أناساً من ضجيج لمَ تتجاهلون عواصف التفكير وتنشغلوا بالسواك والجلابيب القصيرة وعذاب القبر وعلامات الساعة؟ يا بشراً ينام نصف العُمر وينافق أبد الدهر لمَ تتغيبون عن حفل ميلاد قامة فكرية فى سماء بلادكم؟ أيها الساكتون على الحق الراضون بالظُلم المُبتسمون فى وجوه جلاديكم.. كم تستعذبون الوجع وكم تُصفقون للتفاهات! هذا آخركم.

قدم الدكتور عفت الرسالة باعتبارها منحى جديد فى الرسالات التاريخية التى تربط بين التاريخ والسياسة. واستعرض الملاحظات التى أبداها للباحث حتى تخرُج الرسالة بهذا المستوى، ثُم منح الكلمة للدكتور على حسين والذى بدا مُسناً ومُتحدثاً ببطء حيث قدّم سلسلة من الملاحظات تُركز على سوء الصياغة، ووجود أخطاء إملائية وطباعية، فضلا عن عدم الإشارة إلى بعض المراجع والمصادر بشكل تفصيلى، والاعتماد على وثيقة واحدة دون الجزم بصحة ما ورد بها. إلى جانب قلة الاعتماد على المراجع الأجنبية خاصة تلك التى دوّنها الرحالة الأوروبيون الذين زاروا مصر خلال السنوات الأخيرة من عهد محمد على باشا.

وجاء الدورعلى الدكتور رضا العدل ذى اللحية البيضاء والصلعة الواسعة والنظارتين السميكتين والذى قدم كثير من المُلاحظات العلمية كان منها الاعتماد على مؤرخين ممن لديهم مواقف عدائية تجاه محمد على، وعدم تحليل نصوصهم فى إطار متطلبات العصر، وقبول كثير من القصص والحكايات التى أوردها الجبرتى دون أن يكون لها ذكر آخر

عند مؤرخين آخرين. وسأل الدكتور رضا العدل كرم كيف خلص إلى أنّ النظام الأمنى فى عهد محمد على اعتمد على تجنيد أناسا دون أن يشعروا أنّهم مُجندون لخدمة الأمن، مُشككا فى بعض الإشارات التى اعتمد عليها الباحث، وأجاب كرم بأن هُناك حكايات يوردها المؤرخون لعقار جديد كان يستخدمه رجال العسس يؤدى إلى بوح الشاربين بكل شىء بصراحة، مُقدماً نصاً لأحد كُشاف الصعيد يُفيد استحضار مشروب البوح لمعرفة قتلة رسول الباشا إلى السودان.

وعاد الأستاذ المُناقش ليسأل كرم عن سبب اعتماده حكايات تعذيب بعض الضحايا لاستنطاقهم، مُحذراً من أن كثير من «المُسجلين خطر» فى الوقت الحالى يدعوّن بأنهم تعرضوا للضرب والصعق والتعذيب ابتزازاً للضباط والمباحث. وتذكر كرم شهادات التعذيب التى جمعتها وحاولت توثيقها ندى ثُم جرى لها ما جرى، ومر بنظراته على الرائد نادرا الذى منحه ابتسامة اعجاب، ثُم قال إنّ تلك الحكايات لا يُمكن نفيها لأن التعذيب وقتها لم يكن مُبررا لافساد القضية، كما أنّ ما ورد فى معظم مصادر التاريخ يؤكد أن النظرة له لم تكُن مُستهجنة كما هى الآن وإنما كان فى نظر كثيرين وسيلة شرعية للحصول على معلومات واعترافات.

تكررت المحاورات على مدى ساعتين، وكان واضحاً أنّ المُلاحظات التى أبداها أعضاء اللجنة المُشرفة لا تضرب مضمون الرسالة، واستأذنت اللجنة للمشاورة، ثم عادت لتُقر منح كرم سالم البرديسى درجة الدكتوراة فى فلسفة التاريخ بدرجة ممتاز مع التوصية بطباعة رسالته عن تطور النظام الأمنى فى دولة محمد على فى كتاب اكاديمى.

وضجت القاعة بالتصفيق، وسارعت هُدى إلى احتضان كرم ذارفةً دمعات فرح ساخنة على وجنتيها، مُرددة فى سعادة حقيقية يعرفها كرم مُذ كانا طفلين: ألف مبروك. ألف مبروك. ألف ألف مبروك.

# (٤٧)

«أين ندى؟» سألته هُدى ولم يجد ما يُجيب به، فاضطر أن يدعى أنّ والدتها مريضة بالمُستشفى.

تمنى كرم رؤيتها واتصل مرة أخرى لكنها لم تَرُد أيضاً. فكّر فى مُهاتفة حسن بهدوء، لكنه خشى أن يعُنفه ويسّبه لأنّه اعتبره مُخبراً. رُبما كان عليه أن يتريث قليلا قبل أن يتهمه بالتجسس عليه وعلى ندى. يصعد سلالم بيته مُلقيا بتحية المساء على صالح الذى يبدو ناعساً فى عزّ الظُهر لكن عينيه مُنفتحتان كعدستى تصوير ماركة canon.

سأله فى جدية إن كان الدكتور أحمد هواش موجود، فيجيبه صالح بسرد تفصيلى يفهم منه فى النهاية أنّ المذكور لم يُغادر من الصباح. صعد السلالم مُقرراً مُصالحته وطرق الباب فى هدوء حتى فتح له جاره بعينين مُحمرتين وذقن نابتة. بطيبة قلب غريبة سأله عن حاله فقال كرم:

ـ بخير. ناقشت اليوم الرسالة.

برقت عينا أحمد هواش وابتسم ثُم احتضن كرم مُهنئاً. دعاه للدخول فقال كرم:

ـ آسف يا دكتورعلى حدّتى آخر مرة. كُنت متوتراً بسبب الرسالة. أرجوك سامحنى.

ـ لا عليك يا بروفيسور. الآن صرت صاحب لقب دكتور. ستفرح نُهى بشدة عندما تعود غداً. لِمَ لم تُخبرنى لأحضر؟

ابتسم كرم يشعر بصدق السعادة على وجه جاره الطبيب فقال:

ـ خشيت أن تخذلنى ولا تأتى خاصة أنّنا تحدثنا بشكل غير لائق.

ـ لا عليك يا بروفيسور. ما جرى جرى. لكن باسم صداقتنا أو جيرتنا أحبّ أن أحذرك من صديقتك. رُبما تكون مدسوسة عليك و..

لم يُكمل أحمد لأن كلمة «مُستحيل» المُندفعة من فم كرم علت حتى سمعها صالح أسفل العمارة، موضحاً أنه تم القبض عليها. استغرب أحمد ويبدو حائرا ثُم قال:

ـ عموماً. هُناك أمر ما خطأ فيما جرى، لكن لا أعرف ما هو. أغلق هذا الموضوع تماماً، وتعال نحتفل معا بحرف الدال. عندى أصبعان حشيش يُعيدانك إلى عهد سليمان الحلبى.

ابتسم كرم معلقاً:

ـ المُهم ألا يُعيدنا لمصيره.

ثُم استئذن قائلاً:

ـ سأستريح قليلا ثُم سأنزل بعد ساعة لأنّ شقيقتى دعتنى لمأدبة غداء احتفالاً بالرسالة. عموماً سنسهر فى الليل ونحتفل معاً. شكرا يا أخى الجميل.

ودعه إلى مغارته العتيقة المُختنقة بروائح بقايا السجائر المُتكومة فى منافض عدة فى الصالة والمطبخ وغرفة النوم. دخل إلى الغرفة الأخرى شبه المهجورة ليجد زجاجتين «استلا» فارغتين على منضدة خشبية وكومة سجائر ميتة فى طبق من الصاج. لاحظ أنّ أوراقاً عديدة مُتناثرة إلى جوار المنضدة، فأغلق باب الغرفة لاعناً تأخره فى دعوة زوجة صالح لتنظيف الشقة. عاد غرفته ليجد وثيقة «العسس» كما هى فوق المكتب. أمعن النظر فى وريقات تحت الوثيقة بعد أن لاحظ اسم أمجد سامح فيها. امسك الورقة ليجد شخبطة القلم الرصاص إلى جوار اسم أمجد سامح وحروف مُتشابكة تُكون عبارات «معرض سياسى الأربعاء ١١ نوفمبر». استغرب ففتش باقى الورق ليجد فى ورقة أخرى اسم حسن السويسى وإلى جواره المعلم غزال «مطبعة الكرامة» دون أية كلمات أخرى. قلّب باقى الأوراق ليجد رسومات لكُتب ومكتبات ووجوه لشباب وفتيات ورسم لوجه يُشبه كثيرا عبد الرحمن الجبرتى.

عاد كرم مرة أخرى للغرفة المهجورة ويجمع الأوراق المُتناثرة على الأرض ليقرأ فيها ما لم يتوقعه أو يتصوره.

بتاريخ ١٣ إبريل يقرأ «طبيب شاب يعمل فى سجن العقرب على علاقة وثيقة بشباب جماعة الجهاد وينقل رسائلهم إلى الخارج ومنها رسالة أرسلت إلى مُنظمة هيومان ووتش رايتز فور خروجها من السجن.»

وفى ورقة أخرى ليس لها تاريخ يقرأ «المعلم نصحى يُتاجر فى التُحف

الفنية والأوراق القديمة والوثائق الأثرية ويدير شركة وهمية للتجارة بشارع عباس العقاد بمدينة نصر».

ولمحت عيناه اسم ندى حسين فى ورقة أخرى فيرفعها إلى عينيه ليقرأ «فتاة ذكية تظُن أنها ستُغير العالم، تبحث عن حُب جديد، وتدعى كتابة الشعر. لا تقتنع كثيراً بعملها فى الجريدة الناطقة باللغة الفرنسية وتسعى إلى تحقيق ذاتها من خلال عمل كبير يُحدث تأثيراً كبيراً.» ثُم يقرأ «والدها طبيب أسنان ناجح لديه عيادة فى المقطم، لا توجهات سياسية له، لكنه أقرب للتيار اليسارى الذى يعتبر نظام الحُكم كريها فاسداً».

قلّب باقى الأوراق وشعر أنّ الخط خطه. لم يره مُنذ سنوات عندما بدأ يكتب كُل ما يريد على جهاز اللاب توب، لكنه كان يشعر أنّ المكتوب من صُنع يديه. رفع زُجاجة البيرة إلى أنفه ليشم رائحة البيرة واضحة وكأنّه شربها بالأمس. جمع الأوراق كُلها وتساءل ما الذى يدفعه أن يكتب تلك العبارات عن أصدقائه ومعارفه؟ هل كان يكتب مُذكراته؟ لكن لِمَ وهو ليس لديه حاضر أو ماضٍ ولا هو مسئول فى مكان تستحق أحداثه تدويناً!

فتح جهاز اللاب توب مُفتشاً عن تفسير لتلك الأوراق المُتناثرة. دخل إلى سطح الجهاز فوجد مقالات متناثرة كتبها للجريدة الخليجية تحت عنوان شخصيات تاريخية تضم ملفات باسم صالح حرب، أحمد عبد الحى كيرة، حسين توفيق، عبد الرحمن فهمى، عبد الحكم الجراحى، جواد حُسنى، حسن كريت، وُسليمان الحلبى. دخل إلى الـD ليجد مجموعة كُتب تاريخية عديدة، ورسالات ماجيستير ودكتوراة متنوعة فى التاريخ، ثُم ملفات بعنوان محاضرات سيكشن ب، ومحاضرات سيكشن ج. فى الـ E يجد ملفات عديدة تضم صحُفاً قديمة وصوراً لشخصيات

تاريخية شهيرة ثُم يُفاجىء بملف عنوانه الاستاذ رأفت. تذكر اسم رأفت الذى اتصل به مُهنئاً فى الصباح وسارع بوضع الماوس على الملف ليفتحه لكنه فوجئ بأن هُناك كلمة سر لفتح الملف. اعتصر دماغه مُتذكراً كيف ألقى بهذا الملف فى مكان ما على جهازه الشخصى لكنه لم يتذكر شيئا. فكر كثيرا فى اسم «رأفت» لكن شيئا لم يلتمع فى ذاكرته. رنّ هاتفه فوجد صوت هُدى تسأله متى سيأتى؟ فأجابها وعقله مضطرب: حالاً.

أشعل سيجارة وفكر أنه كانت هُناك علاقة بين اسم «رأفت» والجريدة التى يُراسلها. يحاول أن يتذكر اسم المُحرر المسئول عن تسلُم مقالاته فلم يصل لشىء، لكنه رجح أن يكون اسمه «رأفت» وأن يكون هو مُدير مكتب الجريدة بالقاهرة. حاول أن يتذكر الجريدة التى كان يكتب فيها، هل كانت كويتية أم قطرية أم إماراتية، لكنه فشل أيضا. نظر إلى ساعة محموله فوجدها تُشير إلى الواحدة ونصف، فقام ليغسل وجهه، ثُم يرش بضعة رشات من بارفان hego boss الذى اعتاد عليه ثُم يخلع كرافتته ويضع سجائره ومحموله فى جيبه ويهبط مُسرعاً.

أوقف أول تاكسى يمر عليه طالباً توصيله إلى السيدة زينب، وأخرج محموله ليتصل مرة أخرى ليطمئن على ندى، لكنه سمع العبارة التقليدية بأنّ الرقم خارج الخدمة. أغمض عينيه قليلا وسرح فى أزمنة فاتت وأيام مرت وأشخاص عرفهم ونسيهم ويغوص فى خيالات عديدة حالما بوجه ندى ونادما على قطع صلته بحسن.

تذكر فاتن فجأة ويشعر أنه خسرها فيمن خسر فى الشهور الأخيرة. كانت مُخلصة وصادقة وحنونة رغم وقاحتها. رُبما كانت الوقاحة سمة طبيعية لدى هؤلاء، لكنها لم تكن مُبتزة ولم تُحاول تعكير حياته فور أخبرها بارتباطه.

نظر إلى الطريق المُختنق بأتربة ربيعية تنفى تماما أغنية سعاد حسنى الخيالية «الدنيا ربيع والجو بديع». أى جمال فى هذا الدُخان وتلك العواصف المُحمّلة بالغبار. قرأ لافتة شارع بورسعيد فسرح مرة أخرى.

شارع بورسعيد مُزدحم كالعادة صباحاً أو مساءً مثلما كان دائماً فى الماضى. الخليج المصرى هو اسمه قبل عام ١٩٥٧ وكان خليجا فى زمن الفراعنة لنقل البضائع من النيل إلى البحر الأحمر وبعد الفتح العربى لمصر تم ردمه عدة شهور، لكن عمرو بن العاص عاد وشقه مرة أخرى بعد أن شكى إليه التجار وتم تسميته خليج أمير المؤمنين، وعادت السفن تجرى فيه من النيل إلى البحر الأحمر مُحملة بالغلال والبضائع وظل غائصاً بالمياة حتى عهد الخديوى اسماعيل حين عُرض عليه انشاء أول تُرام للقاهرة محله ووافق على الفور مُعتبرا ذلك بداية للمدنية الحديثة.

يقترب من مبتغاه مُتابعا حديقة جديدة أنشئت أمام مستشفى الحوض المرصود تحمل اسمه. دفع للسائق خمس جنيهات ثُم هبط أمام حارة ضيقة غير مرصوفة تنضح مياة المجارى على جانبيها. دخل إلى بناية قديمة ويصعد إلى حيث تقطن شقيقته الطيبة، سند يُمناه على سور السلم صاعدا ككهل تجاوز الخمسين. كان ينهج كثيرا نتيجة خمسة عشرة سيجارة دخنها مُنذ الصباح ثم ضغط الجرس. مرة، والثانية، وسمع صوت هُدى من خلف الباب تقول له: حاضر يا كرم.

انفتح الباب ليرى مَن لم يتوقع رؤيته. عينين ناعستين ووجهاً مازال مُضيئاً. هتف فى سعادة:

ـ ندى.

سألته هُدى عن رأيه فى المُفاجأة. ودخلت سريعاً إلى المطبخ.

# (٤٨)

قابلته صامتة، لكن عينيها كانتا تقولان أكثر مما ينتظر. شوق. محبة. جنوناً. بعينيه يحتضنها مرات، ويقبلها مرات وهُما واقفان مُتحجران فى مكانيهما. كان كرم مهموم الوجه رغم تحقيق حُلمه يفوح حُزن غريب من عينيه، وكانت ندى تبتسم وتشع نوراً وبهجةً وأملاً رغم ما عانت ورأت. قالت له هامسة: خرجت فى الصباح وحاولت أن آتى للمناقشة لكن الوقت كان قد أزف. اتصلت بُهدى فسألتنى عن أمى المريضة، فعلمت أنك قُلت لها ذلك لتُبرر غيابى. بالطبع لا يُمكنك أن تُخبرها بأننى رد سجون.

ابتسمت وواصلت:

ـ عموماً مبروك يا كرم. ألف مبروك أن حققت حلمك، وأصبحت دكتوراً للتاريخ.

وضع كفه فى كفها مُصافحا ومُقترباً وهامساً:

ـ حمداً لله على السلامة. حُلمى لم يتحقق بعد يا ندى. حُلمى هو أنتِ. حُبنا هو الأمنية السامية. أن نبقى معا هو..

قاطعته مُبتسمة ابتسامة باهتة:

ـ مبروك الدكتوراة يا دكتور.

شعر بألم فى حلقه وضيق فى التنفس، جلسا إلى جوار هُدى التى أعدّت لهما مائدة شهية من المأكولات. بدت ندى حريصة على ابتسامتها ورقتها المُثبتة فوق وجهها الذى بدا مُرهقاً بعض الشىء وأكلت فى هدوء واستمتاع ونظرات خفية كانت تُرسلها بين الحين والآخر إلى كرم الذى جلس وهموم عديدة فوق كتفيه. لاحظت ندى عدم إقباله على الأكل فدعته للطعام مُكررة أنّ مذاق طعام هُدى لا يُقاوم أبدا، ثُم قالت فى مرح: إنّها العدو الأول لبرامج الـ Diet. ضحكوا وثرثروا فى أمور شتى، وكررت هُدى تمنياتها لوالدة ندى بالشفاء، بعد أن سألتها مرارا عن حالها.

شربا الشاى وقامت ندى مُستئذنة مُلقية نظرة استدعاء إلى كرم الذى قام معها شاكرا شقيقته، طابعا قُبلتين على خديها، ومُرسلا تحية وسلام إلى زوج شقيقته بعد عودته. هبطا معا والصمت ثالثهما حتى خرجا إلى الشارع فسألها كرم عن المكان الذى ترغب أن يجلسا فيه فقالت له: البيت. وكررت فى غموض: بيتنا.

أوقف تاكسيا بدا سائقه ضائقاً بحياته ليوصلهما إلى باب اللوق، وهُناك سارا فى هدوء ناحية منزل كرم الذى كان التوتر واضحا على عينيه بينما مشت ندى إلى جواره دون كلام. عند باب البيت أشارت إليه قائلة: تفضل. نظر

إليها بنظرات شك، ولمح صالح جالساً مُتكوراً كأنه فى انتظاره، فهتف فى نفسه: فليذهب إلى الجحيم.

بدت ندى واثقة من خطاها، كمَن يمتلك عصا القيادة، صعدت مُلقية تحية مسائية على صالح الذى لم ينبُت ببنت شفة ثُم فتح كرم باب الشقة ونظر إلى ندى مُترددا وهو يقول لها: تفضلى.

دخلت بعينين صاحيتين كأنهما تُعيدان اكتشاف المكان، المائدة الخشبية والكنبة الصغيرة فى الصالة والنجفة العتيقة المُتدلية والبراويز الثلاثة لكرم، ووالديه، والجبرتى، والمدخل الضيق المُفضى للحمام والمطبخ، وبابين من خشب الزان لغرفتين إحداهما أكبر كثيراً من الأخرى. جلست على الكنبة لتضع ساقا فوق أخرى وتهتف بكرم الذى يضع راحته على كتفها:

ـ ماذا لديك لأشرب؟

قبلها فى رأسها ثُم خديها فدفعته قليلاً وأعادت سؤالها فرد قائلاً:

ـ شاى أو نسكافيه لو أحببت.

منحته ابتسامة ماكرة غامزة بعينها اليُسرى وهى تقول:

ـ أليس لديك «استلا»؟ واحدة لو سمحت. أو واحدة لك وواحدة لى.

استغرب قليلاً، لكنها بادرت قائلة:

ـ سنحتفل برسالتك.

أطاعها كعبد صالح، وأحضر زجاجتين وكوبين ليضعهما على المائدة، وفتح الاولى ليملأ الكوبين فشربت كمحترفة مانحة إياه نظرة استهانة

ساخرة. سألها عما جرى لها، فابتسمت وملأت كوبها مرة أخرى، ثُم لاحظ دموعا مُنسابة على خديها الناعمين وآثار الكُحل الأسود تُلطخ مجرى الدموع. سألها: ما بها؟ فانتحبت أكثر وعلا صوتها واهتز صدرها بأنين غريب يرتفع حينا ويخفت حيناً آخراً. نظُرت إليه وملامحها تعتصر مآقيها كأم فقدت وليدها الاوحد مُردفة:

ـ خُنتنى يا كرم. بعتنى لأمن الدولة مُقابل لاشىء. أخبرتهم بحلمى ومشروعى وسرى الذى ائتمنتك عليه من أجل ماذا؟

علا صوت نحيبها واختلطت كلماتها وهى تصرخ:

ـ بعت القلب الذى أحبك بصدق، ومنحك كل ما يستطيع وكان على استعداد أن يمنحك عمره كُله حتى تُصبح أسعد وأعظم انسان فى الوجود. لماذا يا كرم؟ لماذا يا دكتور يا باحث يا عدو الطغيان والاستبداد؟ من أجل الدكتوراة؟ أم من أجل المال؟ أم من أجل النفوذ؟ أم من أجل الرضا السامى؟

لا تصدق ما تسمعه. رُبما هى فى حالة سكر، ورُبما أنت. تُهذى أم تتخيل أم تحلُم أنت بما يحدث. هذا الشقة شقتك، وتلك الفتاة الغارقة فى دموعها هى التى كانت مُنذ أيام أملك وحُلمك. ماذا يجرى يا ترى!

هتف:

ـ أنا يا ندى؟ أنا تتهمينى بالوشاية بك؟ أنت مُخطئة. لابد أنه حسن. لقد طردته وضربته لأنه خاننا. أنا وأنتِ.

صرخت:

ـ لا. حسن برىء. أنت الواشى. أنت المُخبر الذى قدم للأمن كُل شىء يخص موضوع الكتاب ورقة ورقة. أنت البائع السرى. أنت البصّاص يا كرم الذى تدرس أساليبه ونُظمه. أنت البصاص الذى لا يتوقعه أحد. كُل شىء انكشف تماماً. أنت خائن يا كرم. خُنت حتى مَن أحبتك ومنحتك عُمرها وإخلاصها.

ـ مُستحيل.

رد فى عصبية، لكنها كانت تأبى العفو. أشهرت سيفها وواصلت:

ـ لقد وشيت من قبل بصديق عمرك أمجد سامح وأخبرت الأمن كل ما تعرفه عنه، حتى أنّك قُلت لهم بقصة المعرض الذى كان يعتزم عمله، فأوقفوه، وبالندوة التى سيشارك فيها ليكشف تدليس أستاذك فمنعوه. وقدّمت معلومات تفصيلية عن حُسام الحفنى رائد التيار الدينى فاعتقل وعُذّب، ثُم نقلت شكاويه من التعذيب إلى الأجهزة الأمنية فأسكتته إلى الأبد بالاعتداء علي عرضه وتسخيره للعمل كمرشد لهم. وبعد أن تعرفت عليّ قدمت شهادات توثيق التعذيب فى السجون والأقسام المُختلفة إلى أمن الدولة فحاسبت من تكلم وعاقبت من تجرأ على فضح سادية بعض رجالها، وأرهبت مَن حاول مُساعدتنا.

ـ مُستحيل.. مُستحيل.. مُستحيل.

صرخ كطفل لا يُريد أن يُصدق أنه فقد أمه، فأكملت بصوتٍ مبحوح:

ـ ليس مُستحيلاً. أنت الذى بعت وليس حسن السويسى. أنت الذى خُنت لا أحمد هواش. أنت الذى ذبحتنى من الوريد. قُلت لك أننى

لا احتمل صدمات أخرى. قُلت لك أننّى خرجت من حُبٍ فاشل ولن أسمح لنفسى أن أعود إليه، لكنك بلا قلب بلا ضمير بلا أخلاق.

واصلت باكية:

- طُظ فى رسالتك العلمية، طُظ فى دكتوراتك، فى عقلك فى أفكارك، فى وثيقتك. طُظ فيك يا كرم.

يكرر مُستحيلاته فأضافت:

- على أى حال ما فعلته لم يوقفنى. بعض الشهادات التى حصلت عليها أعدت توثيقها مرة أخرى وأرسلتها إلى هيومان رايتس. والقضية التى ساعدتهم على تدبيرها نسفت نسفاً بعد وصول الأمر إلى المُنظمات العالمية.

- لا لا.. أنا لست كذلك. أنت مخدوعة. مَن أخبرك بهذا الهُراء؟

صمُتت فجأة ونظرت إليه بسخرية وهى تقول:

- أستاذك. قائدك. مُديرك المُباشر الذى أوهمته بقبولى عرضه للعمل معه فأخبرنى بقصتك كاملة، مُذ منحك عملا اضافيا فى جريدة لا تصدُر ووقف إلى جانبك حتى يُشكلوا لك لجنة خاصة بعد تعرُض مُشرفك للمرض.

- مَن هو هذا القائد؟

سأل غير مُصدق، فقالت:

- رأفت الكردوسى.

شدّت حقيبتها وفتحت الباب، ثُم تلتفت إلى كرم الذى شعر بسقوط ألواح من الثلج فوق رأسه مودعة بكلمات من جهنم:

ـ لا أريد أن أرى وجهك مرة أخرى. سأمحو تماماً من ذاكرتى أننّى عرفتك أو رأيتك أوالتقيت بك. ويكفي أن تموت وحيداً دون أن تجد مَن تمنحك رُبع حُبى الذى كُنت أحبه لك.

وصفعت الباب، فرأى كرم جدران البيت تهتز حوله، ثُم شعر بها تتساقط عليه ليُدفن فى قاع بئر سحيقة، ثُم غاب فى الغياب مُرددا آخر ما كتب فى رسالته بأنّ «كثير من البصاصين لم يكونوا يعرفون أنّهم كذلك».

# (٤٩)

مساء حزين. جلس كرم على مكتبه بالمنزل وأمامه جهاز الكمبيوتر يُقلّب فى صفحاته. دُخل مرة أخرى على الملف الغامض «رأفت» وحاول فتحه لكنه لم يتذكر اسم المرور. جرّب اسمه دون استجابة، ثُم وضع تاريخ ميلاده، وجرّب أسماء شقيقته ووالديه دون نتيجة. تذكر أنّه مَن قام فعلا بحماية هذا الملف، ودارت فى ذهنه خيالات لجلسات كان يكتب فيها رسائل قصيرة وهو يحتسى البيرة مساء.

كيف كان يكتب ما كتب دون أن يشعر؟ كيف كان يُدير عملاً سرياً دون أن يتذكر؟ وهل كان المُقابل الذى يحصل عليه كافياً أن يتحول إلى عصفورة؟ لقد ظلموا العصفورة بإطلاق اسمها على المُخبرين. ما الذى يجعله يُخفى كُل هذا الغدر بمَن حوله؟ وكيف لا يشعر للحظة بتأنيب الضمير؟ بل كيف لم يكن يعرف أساساً أنّه عميل للأمن؟ بصّاص من البصّاصين كما قالت ندى. ندى التى كانت طوق النجاة الوحيد لغريق فى بحر من الظلمات.

حتى هى غدرت بها أيها المُتحذلق الماكر. ما الذى دفعك أن تفعل ما فعلت؟ البيرة؟ عليها اللعنة. تقودك إلى القيام بدور الضحية والجلاد فى الوقت ذاته، توقظ ضميرك وتُخدّره فى اللحظة ذاتها.

أشعل سيجارته وفكر للحظات فيما مضى من حياته. كانت حياة مُملة رتيبة مُكررة لا نفع فيها للبشرية، لا صداقات حقيقية ولا قصص حُب خالدة، ولا مشاعر تعاطف أو كراهية. لاشىء البتة لاشىء. لو سُئل يوما عن أصدقائه لما وجد أحداً. رُبما صديق وحيد رحل مُنذ قرنين إلا رُبع يبتسم فى خُبث ويحكى دون ملل هو عبد الرحمن الجبرتى. عندما كتب تاريخه لم يكُن يكتب طالباً مالاً أو نفوذاً وإنما يكتب من أجل الكتابة والتسجيل غير عابئ بسخط حاكم أو ساعياً إلى ارضاء أمير. لقد اختاره صديقاً مُنذ دخل إلى سراديب التاريخ يبُثه الشكوى والهموم ويتحاور معه فى وحدة الليل المريرة، والحق أنه كان نعم النديم والصاحب.

أمسك «الماوس» مرة أخرى وينقر على ملف «رأفت» ليكتب اسم عبد الرحمن الجبرتى باعتبارها كلمة المرور. ضغط enter ففتح الملف ليجد ملفات word عديدة مُرقمة تاريخيا تبدأ بـ٩ إبريل عام ٢٠٠١ وتنتهى بأول مايو ٢٠٠٢.

فتح الأول ليقرأ:

«السيد ر

تحية طيبة وبعد

يشارك الدكتور محمود مندور فى مؤتمر دولى لجماعة السلام يُعقد آخر الشهر الحالى فى مدينة بيروت حول اللامساواة فى الوطن العربى. يُقدم

الدكتورمندور ورقة عمل حول مُشاهداته للقُرى الأكثر فقراً فى مصر، وتعلمون أنّ الرجل له توجهات يسارية قاسية ويعتبر النظام القائم نظاماً فاسدا يُحابى رجال الأعمال على حساب البُسطاء ومحدودى الدخل. وتصورى أنّه يجب تعطيل الدكتور عن السفر دون أن يشعر من خلال تأخير تجديد جواز سفره والذى من المُفترض أن ينتهى فعليا خلال أيام.

بالمُناسبة هُناك موظف برعاية الشباب اسمه مُحسن يُصلى بانتظام فى مسجد الكُلية، ورغم أنّه لا يتحدث فى السياسة أمام الناس إلا أنّه يقف كثيرا مع الطالب حسام الحفنى الذى كثيرا ما يحمل بين يديه كُتيبات صغيرة مُستوحاة من كتابات سيد قطب. الموضوع جدير بالمُتابعة. سأفعل ما استطيع لنعرف أكثر.»

بتاريخ ٦ يونيو ٢٠٠١ يقرأ:

«الدكتور عفت عزام استقبل اليوم فتاة عربية أغلب الظن أنّها طالبة تسعى لعمل ماجيستير فى التاريخ الاسلامى. الفتاة تبدو ثرية، وواضح أنّها قدمت هدايا جيدة للدكتور، لذا فقد أعطاها ثلاث رسائل ماجيستير سابقة لتُلخصها وتختار من بينها ما يصلح. ويبحث الدكتور عن زميلين يقبلان مُهمة «سلق» الرسالة، وهو ما يؤكد أنّ المُقابل مُجزٍ.

ملحوظة: الدكتور عفت عزام مُنضم حديثا إلى الحزب الحاكم ويسعى لبناء علاقات جيدة مع قياداته.»

وبتاريخ ٩ يونيو ٢٠٠١ يقرأ:

«جرت اليوم مُشادة بين الدكتور عفت عزام والدكتورمحمود مندور حول تسجيل رسالة الماجيستير للطالبة العربية، والتى تُدعى سُعاد ويُعد

والدها من رجال الأعمال الخليجيين الكبار. فى البداية اعترض الدكتور محمود مندور على التسجيل فى غيابه كعضو فى مجلس القسم، وقال إن رئيس القسم ليس من حقه اضافة أسماء للتجسيل بعد انتهاء الموعد المُقرر. وحاول الدكتور عفت ببروده امتصاص غضب زميله وأخبره أنّ موضوع الرسالة جديد ومُبهر ويستحق سرعة الاستجابة.»

وبتاريخ ١٣ يوليو ٢٠٠١ يقرأ:

«هُناك فتاة مُصاحبة للطالب أمجد سامح الذى يتزعّم أسرة الجيل اليسارية بالكلية، تُدخن، وترتدى ملابس غير مُناسبة للجامعة، ويُمكن من خلالها ضرب شعبية أمجد سامح بين الطلبة، وأقترح أن تتم الاستعانة بالطالب حسام الحفنى وطلبة التيار الدينى لشنّ حملة هجوم على الطلبة اليساريين العلمانيين باسم الأخلاق الحميدة ومواجهة الانحلال.

فى رأيى أنّ تأثير أمجد سامح على طلبة الكلية المُسيسين ينمو بشكل كبير بسبب احتفاء واحتضان الدكتور محمود مندور له. وأنتم تعرفون أن الدكتور مندور عضو فى حزب التجمع الاشتراكى وعلى صلة قوية برموز اليسار داخل وخارج الجامعة.»

مرر ملفات مُتشابهة ليقرأ بتاريخ ١٣ سبتمبر٢٠٠١ خطاباً طويلاً يقف عند جانب منه يقول:

«والصحفية المذكورة لا تنتمى إلى أى تيار سياسى، لكنها تحمل أفكاراً ساذجة عن التغيير ومواجهة الفساد، ومن الواضح أنها مثقفة وتكتب شعرا لا تنشره فى الغالب، وهى غريبة الاطوار إلى حد كبير، تبدو فى بعض الأحيان مُتحررة، يغلب عليها الطابع الغربى فى الحياة والتفكير،

وتبدو فى أحيانٍ أخرى متحفظة ومرتبطة بالقيم الشرقية الأصيلة.»

ثُم قرأ فى نفس الخطاب:

«طبقا لما عرفت فإن علاقات ندى داخل جريدتها محدودة، مُغلفة بالاطار الرسمى، وهى لا ترتبط بصداقات حقيقية داخل المؤسسة»

ثُم قرأ فى موضع آخر:

«هُناك سمة نادرة تتميز بها هذه الفتاة المُقبلة على الحياة أنّها لديها حاسة قراءة عيون ووجوه الناس. لقد جربت اكثر من مرة أن أطلب إليها تخمين ما يدور فى رأسى فكانت تصل إليه من خلال التحديق فى العينين، وهذه المقدرة تتفق مع العلم الحديث، وهناك نماذج عديدة مرت علينا فى دراسة التاريخ تُشابهها.»

وفى خطاب بتاريخ ٩ أكتوبر ٢٠٠١ قرأ فقرات من خطاب طويل يطلب ابعاد الضابط نادر عبد العليم عنه لأنّه كثيراً ما يقف معه أمام الطلبة فيثير الشكوك حوله، فضلا عن أنه شخص ساذج ولا يكف عن طلب المعلومات بشكل بدائى.

ومرّ سريعاً على ملفات أخرى بتواريخ مُتتالية ويقف عند خطابا مؤرخا بتاريخ ٩ نوفمبر يقرأ فيه:

«علمت أن الطالب أحمد سامح سيُقيم بعد يومين معرضاً سياسياً حول الحكام العرب وفسادهم، وأعتقد أن مثل هذا العمل سيحظى بإعجاب جموع الطُلاب.»

وتنير خطابات رأفت ذاكرته فيرى وجه رجل أصلع التقى به قبل

عامين فى الجمعية التاريخية حين كان يلقى مُحاضرة عن نظام الشرطة فى عهد دولة المماليك، وقال له وقتها أنه عاشق للتاريخ ومُحب له، ثُم دعاه للكتابة بشكل اسبوعى فى جريدة خليجية يرتبط بصداقة مع مدير مكتبها فى القاهرة. قال كرم وقتها إنه لا يكتب فى الصحف، لكنه أغراه بأن راتبه سيكون ٥٠٠ دولار شهريا، وهو رقم يستحق عناء الكتابة اسبوعيا. مرتين التقاه بعد ذلك بشهور وطلب منه مساعدته فى جمع معلومات عن قسم التاريخ بالجامعة، مُقابل مُساندته فى أى عمل خاص يحتاج تدخل من الأمن. لم يره بعدها وظل يكتب ما يكتب وهو شبه ناعس فى خيالات العصور الماضية بعد زجاجتي بيرة اعتاد أن يحتسيهما كُل ليلة.

ضحك كثيراً وأشعل سيجارة وصب كأساً من البيرة رشف منه بضع رشفات ليحاكم نفسه مُرتدياً روب القاضى قائلاً:

ـ كرم سالم البرديسى. بصّاص ابن بصّاص. مُتهم بالوشاية بعدد من زملائك وأصدقائك، وحبيبتك.

يتقمص شخصية المُحامى ويترافع موجهاً حديثه إلى صديقه صاحب البرواز الثالث ليقول:

ـ سيدى القاضى.. حضرات المُتفرجين. أنا إمرؤ مُحب لهذا الوطن، مُقدّر للأخطار المُحدقة به، مُتفهماً للمسئوليات المُلقاة على حُكامه. مثلى مثل الملايين أحب السلام وأنشد الاستقرار وأرضى بقليل العيش. أعرف أن الناس كالقطيع متى يُسيرون يسيروا، وأينما يوجهون يتوجهوا، ولا يختارون الأفضل وإنما الأنسب، والأنسب هو الأكثر توافقا مع فسادهم وكسلهم وجبنهم ووضاعتهم وكراهيتهم بعضهم البعض. يأكلون على كُل الموائد ويشربون من كافة الأقداح، هُم عبيد مَن يملك، وأسرى مَن

يحكم، يمالئون الغنى ويحتقرون الضعيف. يتخذون الدين سُلما لفسادهم، وعُذرا لتبرير سلبيتهم وتواكلهم، ويتاجرون بالأخلاق والعفة والشعارات الرنانة دون أن تُغير شيئا من طبائعهم. هُم لا يستحقون سوى الوشاية لمن يحيد عن الطريق ويبغى الفتنة ويهز الاستقرار.

سيدى القاضى: إننى أؤدى دوراً وطنياً، قلما يوجد مَن يؤديه ببراعة واحتراف. إننى استغل هذه الجُمجمة المُدهشة، المُختلفة عن جماجم تغوص فى لجاج السذاجة والبله، وتخضع للخرافات وتخاصم العلم الحديث فى خدمة بلادى. فى سحق السوس الذى ينخُر جسدها، فى تسوية حشائش الاستبس العشوائية التى تمتص الهواء والماء. إننى أُسخّر عقلى وعبقريتى فى دعم سلام وأمان هذه الأرض.

يعود قاضياً ليقول:

ـ لكنك استخدمت وسائل لا أخلاقية فى هذا الطريق مثل الخديعة والغدر والتجسس على الآخرين. بل إنّك استغللت حُب فتاة بريئة لك شرّ الاستغلال، وحطمت قلبها، واستهنت بمشاعرها، وحولتها إلى ظلال إمرأة.

ـ رُبما. لكن عظم الغايات يمنحنا العذر. إنّ خدمة الوطن أعظم من أن يجرح ضميرنا غدر أو تجسس أو استغلال حُب إمرأة.

يُمسك بوثيقة العسس ليقرأ منها بصوتٍ عالٍ:

«البصّاص هو الإمام الحارس. مشكاة الدروب المُظلمة وسلالم الصاعدين إلى الحقيقة. شجرة وارفة الظلال تقى من الفتنة، وسياج من العطاء يصد سهام الغدر. رجل الاقدار لحفظ الأمن والحفاظ على الدولة، والتى لولاها

هلك الدين وانقطع رباط الخلافة. البّصاص عين الأمة وعون الأئمة للسهر على منافع الناس. به يستمد السلطان معرفته، وبعينيه يرى ما يُدبر من كيد للدين القويم على أيدى السفلة والمفسدين فى الأرض.

لولاه لسادت الظُلمة، وتسيّد الغوغاء، ولطغى الناس على كبرائهم واختل ميزان القوة ونهشت كلاب الأعداء دين الله نهشا. هو خادم الحق، ومطارد الحقيقة، والعاصم من الهلاك. هو دارئ الشرور وكاشف البُغض، والمُنقذ من الضلال.»

يشرب من كأسه ثُم يقرأ:

«عينا البصاص لا تمسها النار لأنّها باتت تحرس فى سبيل الله. يُسجل الشاردة والواردة، ويدقق النظر فى وجوه الخلق مستقرئا خباياهم ومفتشا أسرارهم. عيناه مُسلطة على الجميع، الكبير والصغير، الغنى والفقير، الأبيض والأسود، العبد والسيد. كل نظرة وراءها غرض، وكل فعل خلفه خفايا يتبع الكلمة خلف الكلمة متى خرجت من ألسنة الإفك وصُناع الفتن لتنسل لحم الدولة.

البصّاص لا يُحقّر أمراً، ولا يستثنى أحداص من المراقبة فكثيرٌ من الأشرار لا يبينون، وبعض مَن تبدو سيماهم طيبة جواسيس وخونة. إن الكلاب التى لا تنبح قد تنهش غادرة، ودائماً تشتعل النار من مستصغر الشرر.

البصّاص لا قلب له. مات ودُفن يوم نذّر نفسه لخدمة الإمام. لا يحب سوى مَن يطيع ويرضى، ولا يكره الا مَن يعصى ويطغى. يداه هى عذاب الله للمارقين والكفرة يعتصر الضالين اعتصارا حتى يبوحوا ويقروا.

يعذره الله فيما يفعل لأنّ مبتغاه الأخيرهو صون الدين وصيانة الدنيا. لذا فعليه السلام أينما حلَّ وأذلَّ وله المن متى أنطق واستنطق.»

تنهمر الدموع من عينى كرم ويشرب حتى الفجر.

# (٥٠)

تلمحه جالساً على مقهى السلام يُدخن بنهم نارجيلته، حسن السويسى الذى افتقدته وما كان ينبغى لك أن تفعل. صديقك يا كرم الذى تشككت فيه وجرحته وأنت الذى تستحق الجرح والإهانة. لا داعى الآن للتبكيت.

تقترب منه بهدوء الواثق من بياض قلب المُثقف الشيوعى الذى ليس أمامه سوى أن يغفر ويسامح. تبتسم فى وجهه ثُم تُقبله على رأسه، فيُعانق فيك أيام التحاور والجلسات الصاخبة والتأفف من الأحوال.

ـ آنا آسف عما...

لا تُكمل، فكف يده تتصلب مُعترضة ويقول مُهوناً:

ـ لا عليك. كثيراً ما تعرضت لهذا الاتهام، وكثيراً ما وجهته لآخرين.

ـ الموضوع تسّرب من عند ندى.

يبتسم حسن قائلاً:

- رُبما. على أى حال أنا طويت الصفحة تماماً.

يربُت كرم على كتف صديقه قائلاً:

- كان عندك حق يا حسن عندما نصحتنى ألا ارتبط بندى. بنينا أحلاماً من خيال وفجأة انهار كُل شىء على أرض الواقع. يبدو أننا كُنا سُذج.

- دائما يكون الحُب فى أوله خياليا، لكن الواقع مُغاير.

- معك حق.

- هل أفرجوا عنها؟

يسأل حسن وهو يسحب نفساً عميقاً من أعماق نارجيلته، ويهزّ كرم رأسه، فيرُد أنّه توقع ذلك، فليس من المُمكن تحويل الاتهام إلى قضية ثُم مُضيفا «مُجرد قرصة أذن». يُخبره كرم أنه ناقش الدكتوراة وأنه مُرشح لبعثة دراسية فى جامعة «إلينوى» بشيكاجو تبدأ فى اكتوبر القادم. يبتسم حسن سائلا:

- هل صفيت حالك مع الدكتور عفت عزام؟

- نعم. كان لابد من ذلك.

يبتسم حسن ويهرُش فى ذقنه النابتة قليلاً ويقول:

- فى كثير من الأحيان يكون عليك فعل ما لا تحب حتى تعبر حواجز مُهمة فى حياتك. الواقعية تدفعك فى بعض الأحيان إلى احتضان مَن لا تحب وتقبيل مَن تحتقر. أنا أعرف ذلك جيدا. عموما بالتوفيق.

يسأله كرم عن أحواله، فيرد باقتضاب: لا جديد لا جديد.

نفس العبارة المُكررة المُملة التى تتساقط من أفواه كُل مّن حوله من ناس يكرهون ما حولهم لكنهم لا يُغيرونه أبدا لأنه قضاء وقدرا.

دُخان حسن المُحلّق فى تناغم فوق رأس كرم يرسم سحابات اللامبالاة الدائمة التى رزقها الله له. ما ضرك شيء يا صديقى. ما ضرتك خيانة ولا أوجعتك خديعة، ولا قهرتك صدمة. هكذا فكر ذو الوجه الصامت.

يتذكر فاتن فيطلب من حسن رقم هاتفها الذى حذفه من هاتفه قبل ستة أشهر عندما كان مُتخيلاً أنه سيرتبط بالفعل بندى. تنطلق الارقام من ذاكرة حسن إلى لسانه ليضربها كرم على هاتفه مُبتسماً مُتذكراً ليالى مرح وسرور ذاق فيها حلاوة الأنثى دون أعباء ومسئوليات. يبتسم كرم وهو يرى حسن يغمز له، ترد فاتن على الفور كأنها تنتظر اتصاله، يُكلمها همسا، يبثها شوقاً مُصطنعا، ثُم يُخبرها أنّه ينتظر زيارتها الليلة مُضيفا «لو كان ممكنا». يُتمتم كرم قائلا: نعم ارتدى النقاب، وأخبرى صالح أنك هُدى شقيقة الدكتور كرم. سأنتظرك.

أصيلة يا فاتن. لا تنسين زبائنك المُفضلين. أنتِ أشرف كثيراً ممَن يُطلقون شعارات القيم النبيلة والأخلاق الحميدة ويعظون الناس ليل نهار.

الحياة لا تستحق سوى لذة تيه لشراب مُمتع، ورشفات عذبة من خمر الأنوثة، وإغماض عين لكُل ما حولك من قُبح وبؤس وقرف. الحياة لاشيء.. الحياة لاشيء.

ابتسم وقبّل صديقه مرة أخرى وودعه ساحباً قدميه إلى بيته ليحصى

الأيام الباقية على السفر إلى بلاد كريستوفر كولمبوس حيث مُجتمعا أوسع وأناسا مُغايرون ونساء مختلفات.

فى مكان آخر من العاصمة القاسية تجلس ندى حسين أمام جهاز الحاسب الآلى بتحفز شارعة فى كتابة رواية جديدة. لم تكتب روايات من قبل، واقتصرت كتاباتها على الشعر، لكنها الآن لديها ما يستحق أن تضمه رواية. هكذا فكرت وهى تستعيد أحداثاً وحكايات ووجوه عايشتها على هذه الأرض.

«تمت»

إبريل ٢٠١٥

شكر خاص للجنة القراءة الأولى:

- مصطفى بيومى
- على حامد
- عماد أبو صالح
- أحمد مراد
- صالح ابراهيم
- راضية شقروش
- حنان أبو الضياء
- صابر رمضان
- أحمد عبد المجيد

## صدر للمؤلف:

### أولا: فى مجال الدراسات والكتب الفكرية:

١ـ التطبيع بالبزنيس ـ أسرار علاقة رجال الاعمال باسرائيل ـ دراسة ـ ميريت للنشر ٢٠٠٥.

٢ـ ملياردیرات حول الرئيس ـ كنوز للنشر يناير ٢٠١١ «ثلاث طبعات».

٣ـ موسم سقوط الطغاة العرب ـ دراسة ـ كنوز للنشر ـ مارس ٢٠١١ «طبعتان».

٤ـ الفريق سعد الشاذلى العسكرى الابيض ـ سيرة ـ الرواق للنشر يناير ٢٠١٢. «ثلاث طبعات».

٥ـ كتب هزت مصر ـ مقالات ـ كنوز للنشر ٢٠١٢.

٦ـ أفكار وراء الرصاص ـ رجال العنف السياسى فى مصر من هنرى كورييل الى سيد قطب ـ كنوز للنشر ـ نوفمبر ٢٠١٣.

٧ـ زينب الوكيل سيدة مصر. سيرة حرم مصطفى باشا النحاس ـ الرواق للنشر سبتمبر ٢٠١٤.

### ثانيا فى الابداع الأدبى:

١ـ ثورة العشاق ـ ديوان شعر ـ الوكالة العربية للدعاية والنشر عام ٢٠٠٠.

٢ـ محمد الدرة يتكلم ـ قصيدة طويلة ـ الوكالة العربية للدعاية والنشر عام ٢٠٠٠.

٣ـ واحدة والف مشنقة ـ ديوان شعر ـ مركز الحضارة العربية عام ٢٠٠٥.

٤ـ بكاء على سلم المقصلة ـ ديوان شعر ـ مركز الحضارة العربية عام ٢٠٠٩.

٥ـ ذاكرة الرصاص ـ رواية ـ كنوز للنشر ٢٠١٣.

٦ـ انقلاب ـ رواية ـ الرواق للنشر ٢٠١٤.

# البصّاص

متاهات من الحيرة تنفتح أمامه وهو يبحث عن تاريخ حقيقي لصناعة الألم . يبدأ كرم سالم البرديسي أستاذ التاريخ بالجامعة رحلة استكشاف مُضنية للتعرف على نُظم التلصص والعمل السري لدى مُجتمع البصاصين . يرسم الرجل ملامح واضحة لأولئك المنتشرين كالهواء عبر الامكنة والأزمنة .

في طريقه المحفوف بالخطر يلتقي حُبا نادراً يُحفزه نحو سلالم الحقيقة . يصطدم ببشائع النفس الإنسانية عند تورطها في سحق القيم والمبادئ المتعارفة . مفاجآت مُذهلة تنتظره لتبدو الحقيقة أقسى مما يتخيل .

يغوص في سراديب من الخوف ، ويشتبك بشخوص غريبة وغامضة يختلط فيها الخير بالشر ليعرف ما لا ينتظره أبداً .


## مصطفى عبيد

أديب وصحافي مصري ، مواليد ١٩٧٦ ، حاصل على ليسانس آثار إسلامية . التحق ببلاط صاحبة الجلالة عام ١٩٩٧ وحاز عدة جوائز في الكتابة الصحفية. يشغل موقع نائب رئيس تحرير جريدة الوفد وله مقالات دورية بعشرات الصحف والمواقع الإلكترونية . صدر له ١٣ كتاباً متنوعا منها روايتين هما " ذاكرة الرصاص" و" انقلاب " .



الشروق
للنشر والتوزيع